حبيب عبد الرب سروري

لا إمام سوى العقل

رياض الريس للكتب والنشر
RIYAD EL-RAYYES BOOKS

حبيب عبدالرب سروري

لا إمام سوى العقل!

رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

No Leader but the Mind!

Habib Abdulrab Srouri

First Published in April 2014
Copyright © **Riad El-Rayyes Books S.A.L.**
BEIRUT - LEBANON
elrayyes@sodetel.net.lb - www.elrayyes-books.com
www.elrayyesbooks.com

ISBN 978 - 9953 - 21 - 561 - 7

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording, or otherwise, without prior permission in writing of the publishers.

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى: نيسان (ابريل) ٢٠١٤

لشراء النسخ الإلكترونية:
www.arabicebook.com

تصميم الغلاف: هوساك كومبيوتر برس

المحتويات

مقدمة ١٣

في مديح رأس أبي العلاء ١٥

المحور الأول: الإنسان ٢٣

الإنسان جسدٌ لا غير! ٢٥

نظرية داروين: فرضيةٌ غبراء أم حقيقةٌ ساطعة؟ ٣١

النسيان غواية الشيطان! ٤٥

المحور الثاني: دِين ٤٩

من كتبَ التوراة؟، (وأسئلةٌ قرآنيةٌ مجاورة) ٥١

الديانات و«فرمتة» الأدمغة! ٦٣

السيرة النبوية: الكرة في ملعبِنا الآن! ٧١

المحور الثالث: تعليم ٧٧

يُماهون بين الله وفوتوشوب! ٧٩

هدهد سليمان عظمٌ في حنجرة التعليم ٨٩

التعليم العربي: بناءٌ تحتيٌّ تأسّسَ في عصر الانحطاط! ٩٧

سماؤهم وسماؤنا ١٠٥

المحور الرابع: اللغة العربية والإنترنت ١١٣
اللغة العربية في الزمن الرقميّ: ستُّ فجائع،
وثلاثةُ مقترحات! ١١٥
اللغةُ العربية في مهبِّ العولمة: مشروع إنهاض! ١٣٣
المحور الخامس: قراءات ١٥١
الجنّة والجحيم في ملكوتِ «رسالة الغفران» ١٥٣
العلاقة بين التخييل والتأمل الفلسفي:
«رسالة الغفران» أنموذجاً ١٦٩
تأملات من وحي «سبعة أجيال من قاطعي الرقاب»! ١٩٥
المحور السادس: الربيع العربي ٢١٣
دفاعاً عن مُعمّر القذافي! ٢١٥
الثوراتُ العربية وسقوطُ نظريةِ صراع الحضارات ٢٢٥
أضواء على مباراة شطرنج بين صالح وشعب اليمن ٢٣٣
بلاغة صالح ٢٤٣
«بلكونة» جون جينيه تكشفُ حاضر اليمن ومستقبله ٢٥١
المحور السابع: حيّ على العلمانية! ٢٦١
العلمانية وتضليلات السلفيّين الأربعة ٢٦٣
ما الفرق بين الدولة العلمانية والدولة المدنية؟ ٢٧١
لنفصل الدين عن مدرسة الدولة المدنية! ٢٧٩
في مديحِ الفصلِ بين الشوربة والروث ٢٨٥
فهرس الأعلام ٢٩٣
فهرس الأماكن ٢٩٩

إلى عزّت القمحاوي

لا تستطيع الآلهةُ قهرَ إنسانٍ تفجّرَتْ
في روحهِ ينابيعُ الحريّة

سارتر

مقدمة

تدور فصول هذا الكتاب حول سبعة محاور (الإنسان، الدِّين، التعليم، اللغة العربية والإنترنت، قراءات تراثية، الربيع العربي، العلمانية) لكنها تصبُّ في مشروعٍ واحد عنوانه: «لا إمام سوى العقل!»، حسب تعبير فيلسوف الشعراء وشاعر الفلاسفة، أبي العلاء المعرّي!.

جميعها طوباتٌ عقلانيةٌ لِهيكلِ هذا المشروع، شتلاتٌ صغيرةٌ في أرضيته...

أستهلُّ الكتاب، قبل الخوض في محاوره السبعة، بموضوعٍ بعنوان: «في مديح رأس أبي العلاء»، تحيّةً لِعظيمنا الخالد الذي حزّ الظلاميّون أخيراً رأسَ تمثالِه في المعرّة.

□□□

لعلّ سقوط جدار الخوف في دماغ المواطن العربي منذ

بدء ربيع ثوراته الخالدة قد فتح اليوم باب حرّيةِ الكلمة، الذي يجدرُ أن يفتحَ بدورهِ بابَ جدَلٍ فكريٍّ واسع يصبو لِجعلِ مشروعِ «لا إمام سوى العقل!» في رأس جدولِ أعمالِ العالَمِ العربي الجديد، هذا المشروع الذي أضاء «عصرَ الأنوار العربي» في نهاية الألفية الأولى وبداية الثانية، قبل انطفائه خلال عصر الانحطاط الذي دام كلَّ الألفية الثانية تقريباً.

□□□

أتمنى أن تفتح فصول هذا الكتاب شهيّةَ القارئ العربي على التساؤلات والجدلِ المثمر حول مختلفِ آرائها ومحاورها، وأن تقدّم له مواضيع جديدة لا تخلو من تنويرٍ وإضاءات.

نيسان ٢٠١٤
المؤلف

في مديح رأس أبي العلاء

((وُلِد لسوءِ الحظِّ في أمّةٍ غافلة، لم تُدرِّس كتبَهُ في مدارسِها وجامعاتِها، لم تحتفلْ به، لم تُشيّد تماثيلَهُ في أبواب الجامعات وفي أعلى الهضاب.

لم تلتفِت لِمشروعهِ لحظةً واحدةً على الأقل!.

ما أحمقها: لو صعدَتْ على كتفيهِ السامقتين لَرَأتْ أبعدَ وأفضل... لَشاهدَتْ ما وراء السياج، ما وراء الأفق!...))

تستهلُّ رواية «تقرير الهدهد» (حبيب سروري، دار الآداب، ٢٠١١) بهذه الكلمات حديثَها عن أبي العلاء المعري (٩٧٣ ـ ١٠٥٨)، بطل الرواية ومحورها. تحتفل به، وتتمنى ضمنيّاً أن لا يتأخّر اليوم الذي «تُشيّدُ فيه تماثيلُهُ في أبواب الجامعات وفي أعلى الهضاب».

مفارقة المفارقات: من كان يتوقّع، بدلاً من ذلك، أن يرى

ثورات ربيعنا العربي العظيم تحزّ رأسَ تمثالهِ الوحيد، في عقر دارِه، المعرّة؟

يلزمُ وقتٌ طويلٌ لهضم ذلك، وكثيرٌ من الأسى والخيبات!.

إذا كان الشاعر الإيطالي دانتي (١٢٦٥ ـ ١٣١٢)، صاحب القصيدة التاريخية: «الكوميديا الإلهية» (التي استلهمها من بنية ومواضيع «رواية الغفران»: الجزء الأهم من «رسالة الغفران») هو الجسر الذي نقل أوروبا من فكر حضارة الإغريق نحو الحداثة:

من قصيدة دانتي انطلقت فنون عصر النهضة وآدابها، («قبل دانتي: الإغريق، وبعدهُ: العصر الحديث»، على حدّ تعبير فيليب سوليرس في كتابه: «الكوميديا الإلهية»)، فأبو العلاء أولى بامتياز بأن يكون جسرَ عبورِنا نحو الحداثة والمستقبل.

كتاب دانتي الذي يصفُ رحلتَهُ إلى الجنّة والنار مع الشاعر اللاتيني فيرجيل (على غرار رحلة ابن القارح إليها) ويسردُ حواراته فيهما مع شخصيّاتٍ ميثولوجية وتاريخية أوروبية شهيرة (على غرار حوارات ابن القارح فيهما، وهو يتقمّصُ شخص أبي العلاء، مع كثيرٍ من أدباء وعظماء الجاهلية والإسلام) جوهريٌّ مركزيٌّ في الثقافة الغربية: «جوهرة الفنّ الأوروبي»، كما يقولون.

يُدرَّسُ في المدارس، يُصغى له على الدوام، ويُستلهمُ في

استنطاق أدباء ومفكري وفناني الحداثة من رامبو إلى هيديغر، مروراً ببيكاسو وموزار.

أما أبو العلاء المعري فيعاني من تعتيمٍ دام عشرة قرون، ومن عدمِ جرأتنا على دراسة أعماله ووضعها في الواجهة.

هو، مع ذلك، مفتاحُنا لِعصر العقل والحداثة الذي أخفتهُ عنّا قرون الانحطاط. بِقراءةِ أعمالهِ الخالدة ودراستها نستعيذ من الفكر الظلاميّ وننطلقُ نحو الإشراق والمستقبل.

إذ يكسرُ أبو العلاء في «رواية الغفران» كلّ المسلمات الظلامية التي راكمتها في أدمغتنا قرون عصر الانحطاط التي تلتْ عصره.

يُهدِّمها بالتخييل العبقري الذي لا يتكرّر مثيله في حياة البشرية إلا مرّة كل عشرة قرون، بالكلمة الذكيّة، بالسخرية، بالشعر!.

بالميتافيزيقيا يُحرّرنا أبو العلاء من سطوة الميتافيزيقيا على تفكيرنا وحياتنا[1]، وكأنّ «وداوني بالتي كانت هي الداءُ» ستظلُّ بيلسان الشعراء الخالد.

بالبرهان المنطقي والتحليل العقلاني ينسف أبو العلاء في «رواية الغفران» كل مسلّمات الظلاميين التي تمنع التفكير وتضمن لنا البقاء في عصور الانحطاط.

يُحرّرنا من كل ذلك بشكلٍ راقٍ أنيق: يكفي التمعّن مثلاً بجحيم

أبي العلاء التي تبدو في «رواية الغفران» أشبهَ بِسجن رأيٍّ كونيّ، يسكن فيه أعظم شعرائنا ومفكّرينا[٢].

يكفي قراءة حوارات ابن القارح (الذي يتقمّص أبا العلاء أثناء ذلك) مع كبار أدبائنا وعظمائنا في الجحيم، طريقة دخول ابن القارح الجنّة، حواراته المختلفة مع أدباء يعيشون في جنّة الملذات ونوم العقل... لإدراك القوة التحريرية للتخييل والعقل في هذا العمل الخالد لِفيلسوف الشعراء وشاعر الفلاسفة.

كم أُفضِّلُ جحيمَ أبي العلاء على جحيم دانتي المملوءة «بالضفادع والأرواح المهشّمة»!. ثمّة روحٌ نقديّةٌ جبّارة كم نحتاج إليها اليوم، وعبقرية لا تضاهيها عبقريّة في كلِّ تفاصيل «رواية الغفران» التي لم نمتلك بعد الشجاعة في دراستها والإبحار نحو آفاقها البعيدة.

ثمّ هناك «اللزوميات» أيضاً: ديوانٌ إنسكلوبيديٌّ من ١٠٩٦٠ بيتاً، خاض فيه أبو العلاء حرباً جبهويّة مع الظلمات، وقدّم خلاله فلسفةً ورؤيةً وجوديّةً وأخلاقيّة كاملةً (يمكن تلخصيها بكلماتهِ الأربع: لا إمام سوى العقل) ارتفعت، وهي في القرن الحادي عشر، إلى ذروة ما عرفته الفلسفات الأوروبية في القرن السابع العشر، لاسيما إلى مصاف أطروحات الفيلسوف الفرنسي باسكال[٣]!.

لذلك يظلُّ أبو العلاء على الدوام خصم من لا مشروع لهم غير: «لا إمام سوى العنف»، عدوّهم الأوّل!

يجدون في «رهين المحبَسين» بعبعهم الرئيس منذ أن أطلق عليه بعض كبار الفقهاء في عصره: «خليفةَ إبليس»، «أعمى البصر والبصيرة، كلب معرة النعمان»... مروراً بمنعهم لِكتبهِ وسبِّهم السوقيّ له الذي لم يتوقّف منذ عصرِه حتّى اليوم، وانتهاءً بسفك دمِ تمثالهِ اليتيم في معرة النعمان أخيراً!.

على صعيد واقعنا الثقافي، يتبوأ أبو العلاء موقعَ رأس الأركان في الحرب الروحيّة الأزليّة الأبديّة بين الظلمات والأنوار: فصاحب «لا إمام سوى العقل» لم يوارب يوماً في جدلهِ مع الفكر الظلامي. أفكارهُ ديناميتٌ ينسف مداميك ذلك الفكر بشكلٍ لا نفاق فيه أو مساومة.

وما مُورس في حقِّ أبي العلاء من عنفٍ وتعتيم، منذ حياته وحتى اليوم، هو جزءٌ من سُنَّةِ الحرب الدائمة بين النور والظلمات: «الحرب الروحيّة لا تقل عنفاً عن المعارك العسكريّة»، كما قال شاعرٌ عبقريٌّ آخر، أرثور رامبو، في «فصلٍ في الجحيم».

غير أن التراجيديّ في ما حصل لِتمثال أبي العلاء هو أن الجلاد الذي قطع رقبتَه جاء من داخل قوى الثورة السورية على نظام بشّار الأسد الديكتاتوري!.

يُجلي ذلك مدى تعقيد ثورات الربيع العربي التي لا تواجه قوى الأنظمة الديكتاتورية الظلامية فحسب، لكن قوىً سلفيّةً ظلاميةً جهاديّة تسلّلت إليها، تأخّرنا كثيراً في مواجهتها وفي فتح ملف الجدل مع كلّ مسلّماتها ونواميسها ولغتها التكفيرية العنيفة.

لعل الوقت حان الآن، بعد سقوط جدران الخوف بفضل ثورات الربيع العربي، لأن نفتح باب الجدل على مصراعيه مع الفكر السلفي بكل أنواعه واتجاهاته.

مفتاحنا: خصمه النوراني الأول، أبو العلاء المعري!

لِنُدرِّس أعمالَه طلابَ مدارسنا وجامعاتنا، لنستلهمها في رؤيتنا للحياة وتفكيرنا وإبداعاتنا!

لِنبدأ مشروعَهُ الخالد: لا إمام سوى العقل!

ولنشيّد تماثيلَ لأبي العلاء في أدمغتنا أوّلاً، وفي أبواب الجامعات وفي أعلى الهضاب!

ثمّ لِنصعدَ على كتفيه، كي نرى أبعدَ وأفضل، كي نشاهد ما وراء السياج، ما وراء الأفق!.

الهوامش

(١) راجع فصل: العلاقة بين التأمل الفلسفي والتخييل: «رواية الغفران» أنموذجاً.

(٢) راجع فصل: الجنة والجحيم في «رواية الغفران».

(٣) Les Impératifs, poèmes de l'ascèse. Edition bilingue. Ma'arrî. Traduits et commentés par H. H. Vuong, et P. Mégarbané. Ed. Sindbad, 2009.

المحور الأول: الإنسان

الإنسان جسدٌ لا غيـر!

ظهر مفهوم «المُقدّس» في ثقافة الإنسان القديم قبل مئات آلاف السنين. تجلّى ذلك في طريقة تزيين الإنسانِ لِموتاه ودفنهم، وفي بعضِ شعائرِ حياته، كما تدلّ على ذلك الحفريات.

ثمّ تجلّى ذلك بنحو أوسع منذ أن امتلك الإنسان الحديثُ دماغَه الحالي، قبل حوالى خمسين ألف عام من تاريخٍ بيولوجيٍّ عمرهُ بضعة ملايين سنة.

بدا لهُ منذ ذلك الحين، بنحو ملحوظ، أن العالَم ينقسم إلى قسمين: مرئيّ وغير مرئي.

أثاره الجانب اللامرئي أيّما إثارة: توجّس منه واعتبره «فاعلاً» يختفي وراء كلّ الظواهر الطبيعية: العواصف، الزلازل، الكسوف والخسوف... اتّهمه بأنه يسكنُ في الجسد ويفعل فعله أثناء المرض، عند الأحلام... ثمّ يكفي أن يغادر هذا الكائن اللامرئي الجسدَ ليموت الإنسان على التوّ!.

أرعب الموتُ الإنسانَ منذ الأزل أيّما إرعاب. لاحظ أن من يموت موجودٌ وغيرُ موجودٍ في الآن نفسه: موجودٌ بجسده، بذكرياته، بالأشواق والحنين الذي يسبّبه. لكنه غير موجودٍ أيضاً، بلا حياة، جثّة لا تسمع أو تجيب: فقدَ إذن شيئاً ما.

آه، نعم، فقدَ شيئاً ما!.

سمّى الإنسان الأوّل ذلك الشيء اللامرئي المفقود: الروح! شبّهها بنفخة الزفير أثناء التنفس. اعتبرها آخر النفخات التي تغادر الجسد لينطفئ بعدها ويموت!.

اعتبرت معظم الأساطير القديمة، في الحقيقة، أن الإنسان جسدٌ تتحرك فيه نفخةٌ سحريّة، أشبه بِشبح، اسمها الروح: جذوةٌ تضطرم بفضلها الحياة في جسد ابن أديم الأرض الذي نفخ فيه الإلهُ فمنحهُ الحياة، كما جاء في ملحمة جلجامش التي كُتِبت قبل أكثر من ألف عامٍ من التوراة.

الروح إذن نفخةٌ تسبح في طين. شبحٌ يحوم في ماكينة!.

استمرّ اعتقادُ الإنسان، حتى ظهور العِلم الحديث، بأن هذه النفخة اللامرئية، أو الشبح الذي يحوم في الجسد، سبب كل نشاطات الإنسان الروحية: التفكير، الكلام، الأحاسيس من حبٍّ أو كراهيةٍ أو قلق، اللاوعي... اعتبرها بعض العرب أشبه بنوعٍ من الجن (بني الشيصبان) يوحي للشاعر بكلماته:

ولي صاحبٌ من بني الشيصبان
فحيناً أقولُ وحيناً هُوَه!...

ظلّ الروحُ لغزَ الإنسان الأكبر قبل أن يبدأ العِلم الحديث فكّ أسرار هذا اللغز.

يرى العِلمُ الحديث في الحقيقة أن الدّماغ وحده مركز كل النشاطات الروحية، لا غير. جميعها تيارات كهروكيماوية بين آلافِ مليارات عصبونات الدماغ التي يتفاعل كل واحدٍ منها مع عشرة آلاف عصبون في الوقت نفسه: شبكة عصبونات لا يمتلك تعقيدها وشساعتها أي حيوانٍ آخر.

لاحظ العِلم، مستخدماً أحد أعظم اكتشافاته: سكانير الدماغ، أن لهذه الشبكة خارطتها الجغرافية المذهلة: مناطق اللغة، ٥٠ منطقة للنظر ترتبط بالعين، مناطق تحليل العلاقات الاجتماعية.

لا يتوقف العِلم يوماً بعد يوم، مستنداً إلى هذا الجهاز العبقريّ المذهل، عن دراسة مجرّات هذه العصبونات، بغية فكِّ شفراتها وكشف أسرارها واستيعاب علاقاتها ولغة تفاعلاتها المعقّدة التي تشكَّلَتْ خلال عدّة ملايين سنينٍ من التطوّر البيولوجي.

لا وجود للروح إذن إلا كنشاطٍ دائمٍ للدماغ: كلّ النشاطات الروحية للإنسان تياراتٌ كهروكيماوية تتحرك وتتفاعل داخل شبكة هذه العصبونات.

فالرّوح مثل برامج الكمبيوتر: لا توجد بشكلٍ منفصل عن الكمبيوتر، هي مكتوبةٌ على ذاكرته الإلكترونية وفي «دِسْكه» و«وحدتهِ المركزية». يجري تجسيدها وتفعيلها عبر تياراتٍ إلكترونية يتفاعل بعضها مع بعض داخل شبكة ترانسيستورات هذه الأجهزة لِتنفيذِ خطوات كل برنامج وتحقيق مآربه. عندما «يموت» الكمبيوتر لا تغادرهُ تلك التيارات، كنفخةٍ ميتافيزيقية، نحو عوالم مجهولة بعيدة. تموتُ بموتهِ لا غير.

كان الإنسان قبل العِلم الحديث يظنُّ أن الروح تختفي في القلب، أهم أعضاء الجسد بالنسبة للإنسان البدائي.

كشفَ العِلمُ أن القلب ليس أكثر من مضخةٍ للدّم، يمكنُ استبدالهُ إذا تعطّلَ والإتيان بِقلبِ إنسانٍ آخر، أو بقلبٍ بلاستيكي (من يدري!). أما الدماغ فلا يمكن استبدال حتّى شذرةٍ واحدةٍ منه فقط، وإذا ما تعطّل مات الإنسان على التو. فالموت سكتةٌ دماغية بادئ ذي بدء.

ليس القلب بطبيعة الحال مركز الحبّ كما كان يظن الإنسان الأول، بل الدماغ!.

باختصارٍ شديد، الدماغ مركزُ قيادةِ الإنسان، روحُه، نواتُه، أهمُّ أعضاء جسدِهِ قاطبة. أما باقي الجسد، كلّ الجسد، فليس أكثر من قشرةٍ بيولوجية تحيط بالدماغ كَثوب!.

أن يُستبدلَ دماغُك بدماغِ إنسانٍ آخر يعني أنك صرت ذلك

الإنسان الآخر لا أكثر ولا أقل! (من لم يحلَم يوماً أن يُستبدَل دماغُه بِدماغٍ شبيهٍ بدماغ داروين أو اينشتاين أو أبي العلاء المعري؟).

في الغرب، حيث «لا إمام سوى العقل» كما قال أبو العلاء، تستولي علوم عصبونات الدماغ وعلوم الذكاء الاصطناعي على شغفِ البحث العلمي ومشاريع عوالم المستقبل!. ما إن وُلِدتْ علوم الكمبيوتر على سبيل المثال حتّى انطلق مشروعٌ شهير، إثر اجتماعٍ تاريخيٍّ لعلماء الذكاء الاصطناعي والكمبيوتر والرياضيات والإلكترونيات في عام ١٩٥٦ في معهد «إم آي تي» الأميركي، هدفه النهائي صناعة كمبيوتر قبل نهاية القرن العشرين يتمتّعُ بكلِّ ذكاءِ دماغ الإنسان ويفوقه!.

برهنت نهاية القرن العشرين أنه كان مشروعاً طوباويّاً إلى حدٍّ ما، لأنه يصعب استيعابُ تعقيدِ جهازٍ كالدماغ، تشكّلَ خلال ملايين السنين من التطوّر البيولوجي، في أقلِّ من خمسين عاماً فقط!.

تحقّقَ مع ذلك جزءٌ ملحوظٌ من ذلك المشروع: صار الكمبيوتر يهزم الإنسان في الشطرنج، يُجيدُ وِحده برهنةَ بعض النظريات في الرياضيات، يُحاكي الذكاء الإنساني في كثيرٍ من التطبيقات الكمبيوترية في أكثر من مجال.

ما زال الباحثون يطمحون اليوم لإنجاز ذلك المشروع الاستراتيجي التاريخي وإن احتاج لعقودٍ كثيرة!.

من جانب آخر، تتمحورُ أبحاثُ علوم العصبونات، المُنصبّةُ على كشف خارطة الدماغ وآلياته، في قلب مشاريع علميةٍ أوروبيةٍ أميركيةٍ شرق آسيويةٍ عملاقةٍ عديدة. اهتمامُ الناس بنتائجها وتفاصيلها يزداد يوماً بعد يوم. هناك على سبيل المثال أسبوعٌ كل سنة، في فرنسا، اسمه «أسبوع الدماغ» يمتلئ بالفعاليات العلميّة المفتوحة للناس، لتوضيحِ كلِّ جديدٍ سنويّ يخرج من مختبرات الأبحاث الدماغية وشرحِه. جديدٌ زاخرٌ بشكلٍ خاص لأن العقد الأول من القرن الواحد والعشرين، الذي شهد تفجُّر اكتشافاتٍ عديدة في هذا المجال وأبحاثٍ طليعيةٍ جديدة، سُمِّيَ في الدول المتطوّرة: «عقد الدماغ»!.

ماذا عن العالم العربي الذي يحتفل منذ زمن بـ «قرون نوم الدماغ»؟.

ما أحوجنا، نحن أحفاد من قال قبل ألف عام: «لا إمام سوى العقل»، إلى أن يخرج هذا الدماغ أخيراً من قمقمه، وأن يترجَّل!.

نظرية داروين:
فرضيةٌ غبـراء أم حقيقةٌ ساطعة؟

(١) مناسبتان تاريخيتان

يصادف اليوم، ١٢ شباط/ فبراير ٢٠٠٩، عيد ميلاد تشارلز داروين، «مكتشف سرِّ أسرار الحياة»، كما يسميه البعض. يصادف هذا العام أيضاً مرور قرن ونصف قرن على نشر كتابه: «أصل الأنواع» الذي عرض أهم الاكتشافات العلمية قاطبة، لاسيما في مجال علوم الحياة، والذي أثار جدلاً لا مثيل له، دام أكثر من قرن، كونه مسّ أكثر المواضيع جوهرية وحساسية في حياة الإنسان: سرّ وجوده!.

يكتظ هذا العام ٢٠٠٩، في الغرب، بسيل لا ينقطع من الفعاليات العلمية المرتبطة بهاتين المناسبتين: برامج إذاعية

(*) نُشِر هذا الفصل في «القدس العربي» في ١٢ فبراير ٢٠٠٩، عيد ميلاد تشارلز داروين، في عام داروين الذي صادف مرور ١٥٠ عاماً على نشر كتابه الخالد: «أصل الأنواع».

وتلفزيونية، معارض ومتاحف متخصصة، أعداد خاصّة من المجلات المكرّسة لذلك، مؤتمرات ومحاضرات علمية لا تتوقف إلخ.

وضع موقع غوغل الشهير على سبيل المثال، بمناسبة اليوم، في رأس صفحته على الإنترنت، صوراً لطيور «الشرشور الجبلي» كرمزٍ لهذه المناسبة للتذكير بأن داروين لاحظ (أثناء رحلته حول العالم على السفينة الاستكشافية «بيغل» لمدة خمس سنوات) التنوّعَ البيولوجي لهذه الطيور في جزر أرخبيل الغالاباغوس (ثمّة ١٣ نوعاً بيولوجياً مختلفاً منها) بشكلٍ أثار استطلاعه: تنسجم هيئة الطائر في هذه الجزيرة أو تلك (حجم المنقار، طقوس التغذية...) مع البيئة الخاصة بالجزيرة. افترض حينها أن الأنواع المختلفة من هذه العصافير انبثقت من أصلٍ واحد آتٍ من شواطئ أميركا الجنوبية، ثم تشكّلت اختلافاتها ونمت في معمعان تفاعلها مع ظروفها البيئية الخاصة!.

لعل تلك الملاحظة كانت شرارة انطلاق نظريته، التي لم يتوقف عن بناءِ صرحِها ومراكمةِ براهينها طوال عشرين عاماً، منذ بدء تلك الرحلة التاريخية وحتى ظهور كتابه الشهير في ١٨٥٩.

(٢) ماذا تعني كلمة «نظرية»: افتراضات أم حقيقة؟

لكلمة «نظرية» في العربية مدلولان مختلفان لعلهما سبب التباس كبير في بعض الأحيان. هي من ناحية مجموعة فرضيات تشرح

موضوعاً ما، من وجهة نظرٍ محدّدة (مثل «النظرية الماركسية»)، بالإمكان قبولها أو الاختلاف معها. ومن ناحية أخرى هي حقيقة مبرهنة علميّاً (مثل «نظرية النسبية»، «نظرية الجاذبية»...) يصعب الاختلاف معها!.

تظلّ كلّ نظريةٍ (مادامت لم تبرهَن كلّيةً) فرضيةً لا غير، بهذه الدرجة أو تلك، في ضوء كمية أجزائها التي لم تبرهَن بعد. لنأخذ، على سبيل المثال، نظرية فيثاغورس (مساحة مربع وتر المثلث قائم الزاوية يساوي مجموع مساحتي مربعي الضلعين الآخرين): أدرك البابليّون، بشكل تجريبي، هذه العلاقة الرياضية قبل ميلاد فيثاغورس بستة قرون! لاحظوا صحتها في أي مثلث قائم الزاوية يمكن رسمه، واستخدموها عملياً في أكثر من مجال. ظلت تلك العلاقة، رغم ذلك، فرضيّةً لا غير، حتى برهنها فيثاغورس رياضياً وحوّلها من مشاهدة حدسية تجريبية إلى حقيقةٍ علميّة دامغة!.

السؤال هنا: ما موقع «نظرية داروين» من الإعراب، بين الفرضية والحقيقة؟. يلزم قبل الإجابة عليه تقديم حيثيات هذه النظرية بإيجازه.

(٣) نظرية داروين بكلمتين

من المهم جداً القول بأن كلّ الأنواع البيولوجية الموجودة على الأرض لم تمتلك، بشكلٍ ثابتٍ منذ الأزل، هيئتها البيولوجية

الحالية. يكفي متابعة أحفوراتها لرؤية أنها تحيى في تطورٍ وتغيُّرٍ دائمين!.

ثمّة أنواع تنقرض، مثل الديناصور قبل ٦٥ مليون سنة بعَد تغيّرات حرارية ومناخية في بيئة الأرض إثر سقوط نيزك هائل عليها. أو مثل «هومو نياندرتال»: (نوع آخر من الإنسان، يختلف بيولوجياً عن نوعنا: «هومو سابيانس»، أي الإنسان الحديث) انطفأ تدريجياً ولم يعد له وجود منذ حوالى ٣٠ ألف سنة، بعدما عاش على الأرض مجاوراً للإنسان الحديث!.

عموماً، كل الأنواع البيولوجية الحيّة، مثل الإنسان الحديث، لا تتوقف عن التحوّل والتطور الدائم، كما يتجلّى ذلك في الأحفوريات. تتكيّف بذلك مع بيئتها التي لا تتوقف هي الأخرى عن التغيّر والتشكّل المستمر: مرّت الأرض، منذ ميلادها قبل أربعة ونصف مليار سنة، بسلسلة رهيبة من الأحداث والتغيرات الجيولوجية والمناخية والفلكية شديدة التنوع والأهمية. خارطتُها الجغرافية الحالية محطة في مسيرة طويلة من الانشطارات والتوحّدات والتغيّرات والتبدّلات الهائلة ذات الآثارِ الجوهريّة الجذريّة على حياة الكائنات ونموها وتطوّرها. الإنسان الحديث لذلك، مثل سائر الأنواع، ليس أكثر من مرحلة في مسيرة سلالة أنواعٍ بيولوجية لم تنفك عن التطوّر والتكيّف مع بيئةٍ لم تتوقّف عن التغيّر منذ بدء الحياة على الأرض قبل ٣،٨ مليارات عام!.

لم يكن داروين أوّل من اكتشف ذلك بالطبع. لامارك (١٧٤٤م ـ ١٨٢٩م)، قبله على سبيل المثال، عرض هذه الرؤية التحوّلية للتاريخ الطبيعي للكائنات الحية، دون أن يعطي تفسيراً علمياً لميكانيكا تغيّراتها. فسّر ذلك بشكل ميتافيزيقي: «ثمّة في كلّ الكائنات ميولٌ داخليّة للارتقاء!».

أما داروين فقد قدّم نظرية متكاملة تشرح ميكانيكا ذلك التطور انطلاقاً من مبدأ «الانتقاء الطبيعي». فكرة هذا المبدأ الجديد (المنطقي والبديهي جداً في جوهره، وإن لم يكتشفه أحدٌ قبل ذلك) تتكئ على دراسة أثر بعض «التغيّرات الأحيائية»، Mutations، أي التغيّرات المفاجئة التي تحصل أثناء وراثة الأبناء للتركيب البيولوجي لِسلفهم.

من الملاحظ جدّاً أن الأبناء ليسوا نسخاً دقيقة من أبويهم. لهم أحياناً أشكال وصفات بيولوجية تختلف أكثر أو أقل (يمكن مثلاً أن يلد طفلٌ بعينين فاتحتي اللون من أبوين لهما أعين بُنِّية اللون). بعض هذه التغيّرات الأحيائية تتناسب والبيئة أكثر من غيرها (ولادة زرافةٍ برقبة أطول من رقاب زرافات محيطها، أو إنسانٍ لهُ مقدرة في تحمّل مرض فاتك أفضل من أبناء محيطه، أو فراشة لها نفس لون جذع الشجرة التي تحطّ عليها مما يمنع العصافير من رؤيتها...).

لأولئك الذين يمتلكون هذه المؤهلات البيولوجية حظٌّ أوفر من غيرهم في البقاء على ظهر الحياة وفي الإنجاب، لاسيما في

الظروف المحدودة الموارد! يتراكم أحفادهم من جيل لجيل، لِينتشروا ويسودوا أكثر من غيرهم. يؤدي تراكمهم، خلال آلاف السنين أحياناً، إلى ظهور نوع بيولوجي جديد يحلّ محلهم، يمكن رؤيته كفرعٍ ينبثق من نوعهم كما ينبثقُ فرعٌ من جِذع شجرة.. يمكن تجسيد هذه العلاقة التناسلية بين الأنواع بِـ «شجرة سلالات الكائنات الحية» التي تلخِّص تاريخ نشوء هذه الكائنات، وعلاقاتها ببعض، وتطوراتها منذ فجر الحياة على الأرض.

أجلى داروين تشعبات هذه الشجرة خلال دراسات طويلة لكائنات حية عاشت أو تعيش في مناخات بيئية مختلفة تربطها ببعضها علاقاتٌ عضويةٌ مختلفةُ الدرجات، ولِمُضغٍ وأجِنَّاتِ الأنواع البيولوجية المختلفة وهي تنمو يوماً بعد يوم. لعلّ أكثر ما أثاره هو أن طول مدة التشابه بين أجنة الأنواع ينسجمُ ويتناسبُ مع قرب موقع هذه الأنواع من بعضها في شجرة السلالات!: أجنة الأسماك والزواحف والثدييات، على سبيل المثال، تتشابه تماماً في البدء، ثم تختلف أكثر فأكثر: تبتعد الزواحف والثدييات عن الأسماك بعد ذلك وتظلّ متشابهة معاً فترةً أطول، ثم تتنافر هي الأخرى. وهكذا دواليك!. يستمر التشابه على سبيل المثال بين أجنة القرد والإنسان أطول فترة، قبل أن يتنافرا هما الآخران في نهاية المطاف. يتفق ذلك واقترابهما الشديد من بعضهما في شجرة السلالات!.

(٤) قرن من الاكتشافات قبل اكتمال برهنة «نظرية داروين» وتصحيحها!

لعله يمكن القول إن برهان نظرية داروين لم يكن مكتملاً تماماً حتى منتصف القرن العشرين، رغم أن داروين راكم كمية هائلة من الملاحظات الحفرية والدراسات المختبرية التي ساهمت في برهنة نظريته، ورغم أن شجرة الأنواع التي تقترحُها مشاهداته وتجاربه تتفق مع نتائج علوم الأجنة.

يرجع سبب ذلك إلى أن «التغيّرات الأحيائية»، التي تحتلُّ موقعاً رئيساً في نظريته، كانت مبنية على ملاحظات عينية فقط، دون تفسير علمي لكيفيةِ وميكانيكا حدوثها!. يرجع ذلك إلى أن «الجينات» (الموجودة في الخلايا، والتي يمكن رؤيتها كعباراتِ «انسكلوبيديا» شفرة التركيب البيولوجي الخاص بكل كائن حيّ، والتي توجّه صناعة البروتينات) لم تكن معروفة بعد في أيّام داروين!.

الحق أن تفسير داروين الشخصي لتلك التغيرات كان ناقصاً وغير صحيح: افترض أنها نتاج للعلاقة مع البيئة فقط. غير أن تفسيره يعتبر اليوم، من منظور الاكتشافات الحديثة، جانبياً فقط. يمكن فعلاً، على سبيل المثال أن يؤدي التعرض لبعض الإشعاعات إلى مثل تلك التغيرات الجينية. لكنها تنبع غالباً مما يمكن تسميته مجازاً بـ«الأخطاء المطبعية» أثناء نَسْخِ الجينات من الآباء إلى الأبناء!.

حدثت نقلةٌ نوعيّة في علوم البيولوجيا في عام ١٩٥٣: تمّ فيه اكتشاف جزيء الـ «دي. إن. إي» الهائل، الموجود في كل خلية حيّة، والذي تتشكل من متوالياتِهِ الجيناتُ: أمكن بعد ذلك التحديد البيولوجي الدقيق لتلك التغيرات الجينية ورؤيتها مجهريّاً!.

ثمّ تمّ تشفير جينوم الإنسان («انسكلوبيديا» كامل المعلومات الوراثية المشفّرة في جيناته) بكل تعقيده الشاسع، وكشف أسرار شفراته. صار ممكناً أيضاً برهنة صحّة شجرة الأنواع من خلال المقارنة بين جينومات الأنواع البيولوجية وتحديد كميّة اختلافاتها!. على سبيل المثال، ٥ في المائة فقط من جينوم الإنسان يختلف عن جينوم قرد الشمبانزي (أقرب الأنواع البيولوجية للإنسان في شجرة الأنواع)!

ثمّ توالت البراهين الأخرى الجديدة لاسيما النابعة من علوم الأحفوريات. تمَّ مثلاً اكتشاف وتحديد المراحل السابقة لحياة سلف الإنسان الحديث، بعد العثور على حفريات نماذج من أنواع بيولوجية إنسانية عفا عليها الزمن، مثل هياكل لوسي وأورارون وتوماي الشهيرة، أسلافِ الإنسان الحديث الذي نشأ وترعرع في أفريقيا، لاسيّما بعد ظهور السافانا على أنقاض غابات شرق أفريقيا، في ظروف جيولوجية خاصّة حدثت قبل ملايين السنين!.

تلتها اكتشافات جديدة آتية من «علوم الأحياء الجزئية» التي

أجْلَت التماثل الدقيق في التركيب الجيني لكل الكائنات الحية: ما يختلف بينها هو مدى تنشيط هذه الجينة أو تلك لصنع البروتينات! (على سبيل المثال: الجينة المتخصصة بصناعة بروتينات الرقبة تنشط في الزرافة أكثر منها من الفأر!).

من جهة أخرى، صحّحت التجارب المختبرية لعلوم الأحياء الجزئية بعض الفرضيات الثانوية الخاطئة في نظرية داروين: كان داروين يظنّ مثلاً أن الانتقال من نوع بيولوجي إلى نوعٍ آخر يحتاج إلى آلاف السنين! تمّت البرهنة المختبرية على أنه يحتاج أحياناً، في ظروف محدّدة، إلى عدة أجيال فقط!.

باختصار شديد، لاحظت علوم مختلفة (انصبّتْ جميعها على دراسة نظرية داروين)، كلٌّ بطريقته، أن فروع شجرة الأنواع ترتبط ببعضها بنفس علاقة وتشعبات شجرة السلالات الداروينية. لها جميعاً الجذر نفسه الذي تشكّل قبل ٣،٨ مليارات عام عند بدء الحياة على الأرض: الطحالب الزرقاء!.

(٥) ما موقع «نظرية داروين» من الإعراب اليوم؟

أصبحت نظرية داروين اليوم، بعد قرن ونصف من نشر كتابه، أساس البيولوجيا الحديثة. لا يوجد مختبرٌ أو عالِمٌ بيولوجي واحد في الغرب لا يعتمدها قاعدةً لأبحاثه.

لعل سيرورة انتقالها من فرضية علمية، عند نشر كتاب داروين، إلى حقيقة علمية مبرهَنة اليوم، تشبه في نظري تماماً مرحلة

انتقال نظرية فيثاغورس من حقيقة تجريبية (أيام البابليين) إلى حقيقة رياضية (بعد برهنة فيثاغورس لها).

بالمثل، كانت نظرية داروين طوال القرن الذي تلا ظهور «أصل الأنواع» فرضيّةً فقط (وإن كانت فرضيّةً راسخةً قوية، مبنيةً على كتلة هائلة من الملاحظات التجريبية والبراهين الفرعية). ثمّ تحوّلت إلى حقيقة علمية ساطعة لا تقلّ في ذلك عن نظرية نيوتن أو أينشتاين، بعد اكتشاف أساسها الجيني وبرهنتها من علوم أخرى متنوعة: علوم الأحفوريات، البيولوجيا الجزئية إلخ.

لا تقلّ صحتها، على سبيل المثال، عن القول بأن «حرباً عالمية حدثت بين عامي ١٩٣٩ و١٩٤٥»! الدلائل التي تُبرهنُ على ذلك لا تُحصى: الكتب والصحف والصور والأفلام الحية المرتبطة بها، شهادات من عاشها من الأحياء والموتى، جثث الموتى... يكفي ذلك للإقرار بأن تلك الحرب العالمية وقعت دون شك، حتى وإن ظلّ تاريخها ويومياتها غير مدروسةٍ وموثقةٍ بالضرورة، دقيقةً دقيقة، في هذه القرية أو تلك، في هذا الحيّ أو ذاك. تتوالى الدراسات والاكتشافات بانتظام لتفاصيل جديدة حدثت هنا وهناك، تُكتشفُ بعض المقابر الجماعية الجديدة، يتمُّ تصحيحُ بعض التواريخ والأرقام، تنجلي أسرار جديدة هنا وهناك، لكن مجمل ذلك لا ينفي أن ثمة حرباً عالمية وقعت، بقدرِ ما يُعزِّز من برهان حدوثها بالطبع!.

ذلك أيضاً وضع نظرية داروين اليوم: صارت في الغرب أساس التعليم المدرسي للتاريخ الطبيعي للكائنات الحيّة. يتعلّمها

الجميع، وتناقشها مؤسسات التعليم ووسائل الإعلام والمتاحف والمحاضرات الثقافية دون توقّف.

أكبر شاهد على سيادتها في الغرب هو ركوع الكنيسة (التي أجبرتْ غاليليو في عام ١٦٣٣ على جحود كروية الأرض ودورانها!) للاعتراف أخيراً بنظرية داروين! في رسالة الأكاديمية البابوية في ٢٤ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٩٦ قال البابا يوحنا بطرس الثاني هذه العبارات التاريخية:

«ثمة معارف جديدة اليوم تقود للاعتراف بأن نظرية التطور والانتقاء صارت أكبر من فرضية! من الملحوظ في الواقع أن هذه النظرية فرضت نفسها تدريجياً على الباحثين، انطلاقاً من اكتشافات نابعة من مجالات علمية شتى! فكَونُ هذه الاكتشافات المختلفة تصبّ في النتيجة نفسها، بشكل غير مبرمج أو متوقع، دليل هام على صحة هذه النظرية!».

من كان يتوقّع هذه الشهادة من الكنيسة التي سمّت داروين، على لسان أحد بابواتها في القرن التاسع عشر، «أصبع الشيطان»؟.

الغريب أن نظرية داروين، رغم ذلك، ما زالت تثير شكوك البعض هنا وهناك: حوالى ٢٠ في المائة من الفرنسيين، على سبيل المثال، مازالوا يشكّون في صحّتها!. أسباب ذلك في اعتقادي كثيرة:

لم يتوقف الإنسان الحديث، منذ امتلاكه البنية المتطوّرة لدماغه الحديث (قبل حوالى ٥٠ ألف سنة)، عن التساؤل عن تاريخه وأصله. لم يتوقف أيضاً عن صنع عددٍ هائل من الإجابات التخيّلية، منذ ذلك الزمن السحيق: في مجتمعاتٍ أفريقيّةٍ قال إنه انبثق من مضاجعة «الرب» ـ «السماء بالأرض» ـ «الأم»... في مجتمعات التوراة قال إن الإله الأوحد بعدما خلق السماوات والأرض في ستة أيام جمّع تراباً من كل أنحاء الأرض، نفخ فيه في اليوم السادس ليخلق الإنسان «على شاكلته»، قبل أن يأخذ إجازةً للراحة في اليوم السابع. في حضارات الصين القديمة يختلف السيناريو قليلاً: من اضطرابٍ كونيٍّ أوليٍّ سحيق تشكّلتْ بيضة، انبثق منها الينغ واليانغ وعملاقٌ كونيٌّ كبير اسمه بانجو. من جسدِهِ وهو يُنَخِّرُ تشكّلَ العالم: من عينيه انبثقت الشمسُ والقمر. من شَعرِ جلدِهِ ودمهِ الأنهارُ والبحار، ومن قملِهِ وصيبانهِ البشر!.

تصطدم نظرية داروين، بالضرورة، بكل هذه المعتقدات المستفحلة في التاريخ الثقافي الإنساني، وإن لم يكن لها أي هدفٍ إلحاديٍّ أو معادٍ مسبقاً لأي فرضية ثقافية أو دينية عن أصول الكائنات الحية. فضلاً عن أنها تلتقي في الجوهر مع الآراء الفلسفية العميقة التي لا تميلُ للحديثِ اليقينِ عن اتجاهٍ للحياة مُخطَّطٍ بشكلٍ مسبق، أو عن معنىً ما لِبدايتها ونهايتها، مثل رباعيّة الحيرة العلميّة النقيّة المباركة لِلشاعر وعالم الرياضيات العظيم الخالد عمر الخيام:

لَبستُ ثوبَ العيش لم أُستشَر
وحرتُ فيه بين شتّى الفِكَر
وسوفَ أنضو الثوب عنّي ولم
أُدرك لماذا جئتُ، أينَ المقر

هدف نظرية داروين الوحيد تقديم تفسير علميّ لميكانيكا الحياة الطبيعية! . . . غير أنها، مثل باقي الاكتشافات العلمية، تصل في أرضية احتلتها إجابات غير علمية منذ الأزل، يصعب دحرجتُها بسهولة! مثل الاعتقاد البدائي بأن الجسم الثقيل يسقط من الأعلى إلى الأرض بسرعة أكبر من الجسم الخفيف، كما يتهيأ ذلك لحدسنا البسيط، وكما أكّده أرسطو! . لاحظ غاليليو أنهما يصلان في الوقت نفسه (يقال إنه أثبتَ ذلك أمام الملأ برمي جسمين مختلفي الوزن من أعلى برج بيزا). بالطبع، تسقط الريشة (بسبب مقاومة الهواء) بسرعةٍ أبطأ من الفولاذ، لكنهما يسقطان بالسرعة نفسها في الفراغ! . ثمّ برهن «مبدأ نيوتن» ذلك رياضيّاً بشكلٍ دامغ! .

علماً أن نظرية داروين «جرَحَتْ نرجسيَّةَ» الإنسان، حسب تعبير فرويد: هذا الكائن الذي اعتبرته الثقافات «ألفا وأوميجا» الكون، الذي «خلقة الرب على شاكلته» كما تقول التوراة، والذي «نفخ فيه من روحه» كما يقول القرآن، ليس أكثر من ظاهرةٍ حديثة برزت في ظروفٍ بيئيةٍ عرفتها أفريقيا، قبل بضعة ملايين من السنين فقط (أي في «الليلة الماضية» من التاريخ

الطبيعي للأرض)، لهُ نفس التركيب الجيني والتاريخ السلالتي لسائر الكائنات الحية!. انحدر هو والقرد من أبٍ مشتركٍ واحد لهُ أسلاف أكثر فأكثر بدائية!. آه، ما أجمل الخيال، وما «أقبح» العلم!.

أو بالأحرى، ما أعظم شاعرنا الضرير، أبا العلاء المعري، الذي امتلك بصيرةَ أحذقِ العباقرة عندما قال هذه الكلمات الإلهية التي كثَّفَتْ قروناً كاملةً من الأبحاث والاكتشافات العلميّة الحديثة:

والـــذي حـــارتِ الـــبـــريّـــةُ فـــيـــه
حـــيـــوانٌ مُـــســـتـــحـــدَثٌ مـــن جـــمـــاد

أجزمُ أنه لو وُلِدَ شاعرنا الكفيف في بلدٍ غير عربي (يهتمُّ بذكرى عظمائه، ولا يخجل من رفعِ لواءِ ألمَعيّتِهم الخارقة أمام العالم)، أو لو كان معروفاً خارج العالم العربي، لانحنى أمام قبره كوكبةُ عباقرةِ البشر!.

(٦) خاتمة: ما موقع نظرية داروين في الثقافة والتعليم العربي اليوم؟

للإجابة عن هذا السؤال، يلزم الخوض (دون نفاقٍ أو لفٍّ ودوران) في سؤال أعمق: ما هو الخطأ الأساسي الجوهري في التعليم العربي؟. سأتحدث عن هذا الموضوع في فصلٍ آتٍ!.

النسيان غواية الشيطان!

(١)

«مزيداً من الاحتفال بالذاكرة الجمعية!»، كتبتُ ذلك في حائط الأستاذة صباح الإرياني التي تنشر على صفحتها في فايسبوك مذكرات حياة والدها، الأستاذ القدير مالك الإرياني. يحوي أحدُ فصولها يوميات تعذيبه في سجون علي عبدالله صالح البشعة.

أضفتُ في صفحتِها: لأن «النسيان غواية الشيطان»، كما يقولون.

(٢)

ومع ذلك، للنسيان أحياناً فوائد عظيمة: نسيان بعض الآلام الشخصية القديمة «ضرورة» سيكولوجية حيوية. لولاه مثلاً لما أرادت كثير من النساء، اللواتي تألمن أثناء الإنجاب، أن يحبلن مرة ثانية!.

غير أن الذاكرة «واجبٌ» إنساني. لولاها لما تطورت المعارف الإنسانية خطوة واحدة، ولما استفادت الإنسانية من تجاربها وتقدمت في أكثر من مجال.

(٣)

إذا كان النسيان غواية الشيطان فعلاً، فليس ثمة أكثر «ألوهيّة» من محرك البحث: غوغل!

غوغل يعرفنا أكثر مما نعرف أنفسنا: لعلنا ننسى المواضيع التي بحثنا عنها في غوغل قبل أشهر أو سنين، الأشخاص الذين «تلصصنا» على سيرتهم ومواقفهم.

لكن ذلك كله مرصودٌ ومحفوظٌ بعناية في ذاكرة غوغل. يستطيع الباحثون الاستفادة منه لدراساتٍ سوسيولوجية وتاريخية وسيكولوجية وغير ذلك، وينشرون بالفعل أحياناً نتائج مثيرة عن بعض ذلك.

غوغل لا يحترم «حق» الإنسان في النسيان!.

فايسبوك أيضاً ينافس غوغل في ألوهيته: كل ما يُكتبُ يومياً في صفحاته، منذ تأسيسها، يهرول عمودياً نحو بئر ذاكرته. محفوظٌ في بطنه. لا يستطيع أصحاب صفحات الفايسبوك وكتّابها الوصول إلى نصوصهم العتيقة بعد تقدم الزمان، لكنها تضطجع بهدوء في أروقة كمبيوترات شركة فايسبوك. ملكها وحدها لا غير!.

تشكل تلك النصوص مادةً خاماً ومنجماً لا نظير له لعالِم الاجتماع والنفس واللغة والتاريخ: يستطيع هؤلاء من خلالها دراستنا ومعرفتنا بشكلٍ ميكروسكوبي دقيق، لِضرورات الدراسات العلمية والتاريخية أحياناً، أو لِمجرد استشراف آرائنا ومواقفنا واتجاهات تفكيرنا وفعلنا المستقبلي أحياناً أخرى.

(٤)

ليس ثمة أكثر ألوهية بالفعل من الاحتفال بالذاكرة!.

وليس ثمة أقرف من بدء شعور المرء في الخمسينيات، مثلي، عندما ينسى اسماً أو بيت شعر، بأن عصبونات دماغه لم تعد بثراءِ طفولتهِ وشبابه، وأنه ضحية «خيانة الذاكرة».

لحسن الحظ أن أبحاثاً علمية جديدة (لِفريق: بيير ماري لييدو، معهد باستير) برهنت أن الدماغ يصنع عصبونات جديدة على الدوام، حتى في سنٍّ متأخرة من العمر!.

ثمة منطقةٌ فيه، تم اكتشافها مؤخراً: نافورة عصبونات، أشبه بمستشفى ولادة، تنجب باستمرار عصبونات جديدة. لكن هذه العصبونات الطازجة تنقرض سريعاً إذا لم يحقق الإنسان شروطاً خمسة:

١) الدهشة الدائمة. استيعاب أشياء جديدة مثيرة، وليس الاكتفاء فقط بمعرفتها.

٢) الاحتماء من التلوث الضوئي والصوتي.

٣) بناء علاقاتٍ اجتماعيةٍ حية خصبة.

٤) تجنب الأدوية التي تمس الدماغ.

٥) ممارسة الرياضة ١٥ دقيقة يومياً على الأقل.

سيقود هذا الاكتشاف الهام، كما يبدو، إلى أبحاث مستقبلية قد تؤدي للقضاء على أمراض تمس فقدان الذاكرة أو ضعفها، من ناحية، وتفتح ربما، من ناحية أخرى، الطريق لعلماء الدماغ لآفاق جديدة أهمها: تصميم سبل الوصول إلى «الذاكرة المضاعفة»، كما يقولون. الذاكرة الشاسعة المتوهجة العظيمة.

ذاكرة «الإنسان الأعلى»!.

أو: ذاكرة الفيل (حسب التعبير السائد، بسبب مقدرة الفيل على تذكر كلِ الطرق التي عبرها، البشرِ الذين آلفهم منذ صغره، أزمنةِ نضوج الفواكه والخضرة في الأراضي البعيدة...).

صدق من قال إن القرن الواحد والعشرين هو قرن الدماغ!.

المحور الثانـي: دِيـن

من كتبَ التوراة؟
(وأسئلةٌ قرآنيةٌ مجاورة)

(١)

حسب التاريخ العلمي، المستندِ دوماً إلى الوثائق والحفريات والتحليل التاريخي النقدي، بدأت كتابةُ التوراة في القرن السابع قبل الميلاد، انطلاقاً من تراثٍ شفوي، ودامت حوالى أربعة قرون. فيما يقول التاريخ الديني إن التوراة نزلَت مباشرة لليهود من إله بني إسرائيل عبر النبي موسى، في جبل سيناء.

النبي موسى، الذي يفترض أن يكون قد عاش قبل هذا القرن السابع بستة قرون (أي في القرن الثالث عشر قبل الميلاد)، شخصية شديدة الأهمية في التاريخ الديني، لكنها شخصيّة غامضة من وجهة نظر التاريخ العلمي. لماذا؟.

لا ذكر لإنسانٍ اسمه موسى في كل مخطوطات ووثائق المصريين القدامى أو الشعوب المجاورة، رغم أن الأرستقراطية

المصرية كانت تميل لكتابة كل يوميات حياتها[١]، بما فيها أحوال الطقوس الجويّة اليوميّة، فما بالكم بقصة نبيٍّ حرّر العبرانيين من العبودية في مصر (قاد خروج ٦٠٠ ألف عائلة عبرانية من مصر كما تقول التوراة، أي أكثر من عدد سكان مصر حينذاك!)، هزم فرعون مصر في حربٍ ضروس (لا وجود لها في التاريخ العلميّ)، قبل أن يشقَّ البحر ويمشي عليه وهو يقود الستمائة ألف عائلة العبريّة!.

«الجراح العشرة» الواردة في التوراة والتي أنزلها إلهُ اليهود، يهوه، بليّةً على شعب مصر جراء استعبادهم للعبرانيين: الماء الذي كان يتحوّل إلى دم، هجوم الضفادع والجراد، موت أوّل طفلٍ يولد في كلِّ عائلةٍ مصرية... ليس لها جميعاً أي دليلٍ تاريخيٍّ علميّ. لذلك يلزم قراءتها (مثل كثيرٍ من آيات «الكتب السماوية») بشكلٍ مجازيٍّ ربما، لا حرفيٍّ في كل الأحوال.

فضلاً عن أن قصة ولادة موسى ابن عمران، الذي تركته والدته في صندوقٍ خشبيٍّ في النيل ليحمله اليمّ إلى قصر فرعون، استُلهِمت، أثناء كتابة التوراة، من ملحمة جلجامش في بابل كما سنُذكِّرُ بذلك بعد قليل.

غير أن الأساطير لا تنبع من العدم في أغلب الأحوال. إذ ليس من المستبعد أن يكون قد وُجِدَ حقّاً عبرانيٌّ، اسمه موسى، غادر مصر وهو يقود عشرات العائلات من العبرانيين[٢]. لكن

ذلك، كما يبدو، لم يُثِر فضول المصريين ليُسجِّلوه في مخطوطةٍ ما حينذاك.

إن وُجِد حقّاً ذلك الرجل الذي تأسست عليه قصص النبي موسى فلا علاقة، في كلِّ الأحوال، بين حياته الحقيقية والسيرة الميثولوجية التي أرستها التوراة حولها.

الملك داود، الذي عاش في القرن العاشر قبل الميلاد والذي كان حاكماً لِمملكةٍ صغيرة جدّاً في أرض فلسطين، شخصيّةٌ تاريخيةٌ، كما يقال، تُبرهِن على وجودِها بعض الحفرياتُ والوثائقُ التاريخية[٣]. لم تكن القدس في عهده (كما أكّدت الحفريات الإسرائيلية الحديثة) غير قريةٍ صغيرة، لم يكن فيها حينذاك، كما تؤكد تلك الحفريات، ذلك الهيكل الهائل الشهير الذي يقول التاريخ الديني إن سليمان ابن داود كان قد شيّده.

منذ القرن العاشر، قرن داود، وحتّى القرن السابع قبل الميلاد، قرن بداية كتابة التوراة، لم يكن مفهوم الوحدانية (الإله المجرّد الواحد) موجوداً بعد في معتقدات بني إسرائيل. كان يهوه خلال تلك القرون الوثنيّة الثلاثة جزءاً من منظومة آلهه: ابن الإله الأكبر إيل، ترافقه غالباً الإلهة أشيرا. تعتبره بعض البقاع إله الحرب، وأخرى إله العواصف.

لم يتحوّل إلهُ الدِّين اليهودي، يهوه، إلى الإله الوحداني الذي صارَهُ بعد تلك القرون الثلاثة، إلا رويداً رويداً خلال سيرورةٍ

تاريخيةٍ طويلة انتهت في القرن الرابع قبل الميلاد، نال في نهايتها صورته الأخيرة كخالقٍ لِلكون: الإله المجرّد الواحد الأحد الذي تبنّته الديانات السماوية الأخرى، المسيحية والإسلام.

يلزم أن نلاحظ هنا أنه إذا لم يكن معروفاً بشكلٍ محدّد متى بدأ تاريخيّاً استخدام مفهوم الديانات «السماوية»، فما يتوق له واضعو هذا المفهوم من استثناءات واستبعادات جليٌّ للعين المجرّدة!.

تأسست ملامح يهوه، كإلهٍ يلزم ألّا يُعبَد غيره، في عام ٦٢٢ ق.م (عهد الملك جوزياس ومستشاريه، الذين أرادوا جعل القدس المركز الديني الوحيد، ويهوه الإله الأوحد) بغية وحدة القبائل اليهودية في أرض فلسطين، لاسيما ضدّ زيادة نفوذ الأشوريين في الشرق الأوسط واتساع تسلُّطهم على بقاعها.

أضافوا إلى ذلك أن يهوه إلهٌ يُسانِدُ بني إسرائيل («شعبه المختار» كما تقول التوراة!) ويُحارب في الخفاء معهم، لِتعزيز سلطة المِلك وتعميق مفعول تأثير الدين في الإنسان.

عرف تاريخ كتابة التوراة أهم مراحله عقب عام ٥٨٧ ق.م الذي غزا نبوخذ نصر خلاله مملكة يهودا (مملكة جنوب أرض فلسطين) ودمّر هيكل القدس فيها، ونقل منها العائلات الارستقراطية والعائلة الملكية والنخبة المثقفة إلى أرض بابل[٤].

مثّلَ ذلك الشتات صدمةً هائلةً للنخبة الدينية التي بدأت أثناءه بكتابة أهم أجزاء التوراة لِلحفاظ على هويّتها وإلهها الوطني، يهوه، المهدّدَين معاً بالانقراض.

اعتبر مؤلفو التوراة أثناء كتابتهم لفصولها أن يهوه لم يكن ضعيفاً في مواجهة البابليين، لكنه وكّلَهم لِغزو مملكة يهودا عقاباً لأهلها على عدم تخلّيهم كليّةً عن معتقداتهم الوثنية الأخرى، ولعدم عبادتهِ واحداً أحداً كما يلزم! . أي أن قدرات يهوه وتأثيره لا تمسُّ اليهود ومصائرهم فحسب، بل تتجاوزها نحو الشعوب الأخرى.

ساعدت الهجرة البابلية رهبان اليهود على معرفة الأساطير البابلية، لاسيما ملحمة جلجامش التي كُتِبت قبل أكثر من ألف عامٍ من وصولهم إلى بابل. استلهموا كثيراً من أساطيرها في كتابة بعض أسفار التوراة: طوفان نوح (المنسوخة في التوراة كما جاءت في الملحمة تقريباً)؛ قصة ولادة موسى وتركِهِ في صندوقٍ على اليمّ؛ آدم، إبن النفخة في الطين، وحواء التي خرجت من كتفه. تأثروا أيضاً أثناء كتابتهم للتوراة بديانة النبي زرادشت في فارس المجاورة، مستلهمين منها مفهوم الملائكة ويوم القيامة.

كُتِبَ الجزءُ الأهم من التوراة هكذا في أتون رغبةٍ عارمة، لِنُخبةٍ دينيّة مثقفة، في الحفاظ على هوية شعبها من التبدّد والاندثار، إثر صدمةِ الهجرة والشتات التي دامت خمسة عقود تقريباً.

عاد اليهود إلى مملكتهم بعد غزو الملك الفارسي سريوس لبابل وتحريره لهم في عام ٥٣٩ قبل الميلاد. قبل أن يتركهم الاحتلال الفارسي، المتسامحُ حينها مع الأديان عموماً، يمارسون دينهم في مملكتهم بهدوءٍ وحريّة.

تطوّرت كتابة التوراة بعد العودة من الهجرة، وانضافت لها نصوصٌ كتبها يهودٌ في بقاعٍ مجاورة أخرى، لتكتمل جميعها في عام ٤٠٠ قبل الميلاد. أخذ يهوه في نهاية هذا المطاف التاريخي شكله الوحداني، إله السموات والأرض الذي لا حدّ لقدراته، كما هو حاليّاً في الديانات السماوية الثلاث.

ساهم في كتابة التوراة خلال هذه الفترة، التي تواصلت بين القرن السابع والرابع قبل الميلاد، أكثر من ٦٠ كاتباً، وبِلغاتٍ مختلفة.

لعلّ أهم كُتّابها الراهب أسدراس الذي كان على رأس الرهبان اليهود الذين عاشوا في بابل أثناء الهجرة.

(٢)

ماذا عنّا في بلاد الإسلام؟. متى سنبدأ، نحن أيضاً، بكتابة التاريخ العِلميّ لِدِين الإسلام؟. ألا يلزم أن نستخدم، نحن أيضاً، أساليب البحث العلمي نفسها في دراسة تاريخ النصوص، لِمعرفة سيرة كتابة القرآن الكريم بشكلٍ مستقلٍّ عن الرواية الدينية الرسميّة؟.

أعرف أن هذا الموضوع يثيرُ عواصف غضب بعض المتحجّرين من الفقهاء، وكأنَّ الحقيقة العلمية لن تنال رضى الله (من سيكون أسعد منه جلّ جلاله، إن وُجِد، وهو يرى الباحثين يكتبون السيرة الذاتية العلميّة لِتاريخ القرآن الكريم؟).

يلزم هنا في الحقيقة أن نميّز بين مسعى الفقيه الذي يختلفُ تماماً عن مسعى الباحث العلمي. لا يهمُّ الفقيه في الأساس إلا محتوى الوثائق «الإلهية» التي يريد أن يصل للمؤمنين بطريقةٍ أو بأخرى، فيما لا يُقلِقُ الباحث أكثر من التأكد من تاريخيّة هذه الوثائق، كيف ومتى كُتِبت، ومن كَتبَها.

في الطريق إلى ذلك، يلزم أن يجيب الباحثون على مئات التساؤلات، كي ندرك ونستوعب، نحن أيضاً، التاريخ العلمي للمصحف الكريم!.

يلزمُ التساؤلُ بادئ ذي بدء (كونُ القرآن الكريم يواصل رسالات اليهودية والمسيحية: أليست عبارة «أشهد أن لا إله إلا الله!»، على سبيل المثال، ترجمة حرفيّة للآية ٨، ٢٠ من سِفر يهوديت؟).

ما هي الصيغ الموجودة في كلِّ النصوص الدينية اليهودية والمسيحية السابقة للإسلام (المعترَف بها في هاتين الديانتين، أو غير المعترَف بها رسميّاً) حول كلِّ قصص الأنبياء والأقدمين التي جاءت في القرآن؟ ما هي أوجه الشبه والاختلاف بينها وبين صيغ القرآن، وكيف يمكن تفسير ذلك؟.

يجدر بهذا الصدد ملاحظة (٣) التشابه الكبير بين سيرة النبي إبراهيم (الذي يلعب دوراً كبيراً متميّزاً في القرآن الكريم، بالمقارنة بالتوراة والإنجيل، فهو «كليم الله» الذي قام برحلةٍ سماوية، ودمّر الأصنام. . .) وبين ما جاء في سِفر «رؤيا إبراهيم»: سِفرٌ أبوكريفي، أي غير معترفٍ به في الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد. لعلهُ الزبور، حسب تسمية القرآن التي يكتنفُ مدلولَها غموضٌ كبير، وإن قال البعض إن الزبور هو «مزامير داود»، أي «كتاب المزامير» الموجود ضمن التوراة، وليس في كتابٍ منفصلٍ في هذه الحالة!.

ثمّ هناك أسئلة كثيرة حول «مصحف عثمان» الذي تقول الرواية الرسميّة الأرثوذكسيّة إنه جُمِّعَ من نصوصٍ مرجعيّةٍ كُتِبتْ في حياة الرسول على الألواح والوريقات والأحجار وعظام الإبل، وتمّ الاحتفاظ بها بعنايةٍ مطلقة. أو من نصوصٍ ظلّت في «صدور» الناس حتى عهد الخليفة عثمان بن عفّان، بعد حوالى ٣٠ عاماً من وفاة الرسول:

أين هو هذا المصحف؟ في أي متحفٍ أو مركزٍ يمكن رؤيته؟. إن كان قد سرقهُ ناهبٌ أو غازٍ فلماذا لم نسمع عن ذلك يومذاك؟ أين هي نسخه التي قيل إنه تمّ إرسالها لعواصم أرجاء الإمبراطورية الإسلامية؟ وإن كان قد سرقها ناهبٌ أو غازٍ، هي أيضاً، فلماذا لم نسمع عن ذلك يومذاك؟.

الأهم: كيف نفهم كل الغموض والتناقضات والخلافات الحادّة

التي صاحبت جمع القرآن منذ وفاة الرسول، والدلائل[٥] التي تنفي صحّة هذه الرواية الرسميّة الأرثوذكسيّة؟

ثمّ لماذا أُحرِقت وأُلغِيت ما يروى أنها صيغٌ أخرى من القرآن مثل «مصحف علي» الذي كان في خلافٍ مبكّرٍ مع سلطة اجتماع السقيفة ونواة من سيستولون عليها في العصر الأمويّ؟.

لماذا ترجعُ أقدمُ النسخ الرسميّة لِنصِّ القرآن، كما نعرفه اليوم، لبدء القرن الثالث الهجري، وليس قبل ذلك؟ ولماذا لم يصلنا شيء من نصوصهِ المرجعيّة التي كُتِبت على الألواح وعظام الإبل والأوراق والحجارة والذي تمّ الاحتفاظُ بها بعناية مطلقة؟.

ثمّ كيف يمكن الردُّ بشكلٍ علميّ على بعض الدراسات[٦] والأبحاث الجامعيّة حول جمْعِ القرآن وكتابته، المتوالية في الغرب بشكلٍ مُكثّفٍ منذ حوالى قرنٍ ونصف قرن، والتي برهنت أن صيغة النص النهائي للقرآن الكريم تأثرت بالحروب والصراعات الدائمة على السلطة (منذ اجتماع السقيفة)، وبالرغبة المتعاظمة في توحيد الإمبراطورية الإسلامية وضمان وحدةِ هيكلِها العقائدي؟. فإذا كان الجزء الأكبر من القرآن قد كُتِب ربّما خلال أيّام الخلفاء الراشدين، فهناك دلائل قويّة وعديدة بأن نصّه تطوّر وتغيّر في مراحل متعاقبة، وبشكل خاص في عصر الخليفة الأمويّ عبدالملك بن مروان. وهناك أطروحات تدعمها دلائل مرتبطة بمناهج النقد اللغوي تؤكد أن

إضافات مختلفة طرأت عليه في بداية العصر العباسي الذي توسّعت وتطوّرت خلاله الإمبراطورية والشعوب والثقافات الإسلامية!.

ما هي النتائج الأخيرة لبعض برامج الدراسات والأبحاث الطويلة الأمد عن نُسخِ النصوص الأكثر قدماً للقرآن، والتي تُجرى في الخفاء تقريباً في بعض مراكز البحث الجامعيّ الأوروبية لاسيّما في مجموعة باحثي جيرد بوين الألمانية التي تدرسُ أقدمَ نصٍّ معروفٍ للقرآن، يُسمّى «نسخة صنعاء»، وُجِد بالصدفة في السبعينيات من القرن المنصرم مخفيّاً في أحد سقوف الجامع الكبير في صنعاء، وسُلِّم لألمانيا؟

تمّ، بالكربون ١٤، إرجاع تاريخ كتابة نسخة صنعاء إلى ما بين ٣٧ و٧١ عاماً بعد وفاة الرسول، وأكّدت أوّل الدراسات التي نُشِرتْ حوله على أن هناك اختلافاتٍ كبيرة بينه وبين ما يسمّى اليوم «مصحف عثمان»، ثمّ توقّف نشر جديد هذه الدراسات كما يبدو (٤، ٦) تحت ضغوطٍ مختلفة!.

يلزم أيضاً توجيه أسئلةٍ كثيرة حول كلّ قصّةٍ قرآنية يَطلبُ الفقهاء منّا قراءتها حرفيّاً (وليس مجازيّاً)، مثل قصّة قصر ملكة سبأ الذي جاء جنّي سليمان، كما يقول القرآن الكريم، لِينتزعه من مملكة سبأ ويطير به إلى سليمان، ويثبّته أمام جلالته، «قبل أن يرتدّ طرفه»، أي بأقل من غمضةِ عين:

ألا ينافي ذلك قوانين الفيزياء الحديثة التي تنصُّ على أن المادة (قصر ملكة سبأ هنا) تتحوّل إلى طاقة عندما تسير بسرعةٍ تقترب من سرعة الضوء؟ لماذا لم يجرِ الحديث عن طيران هذا القصر خارج النصوص الدينية، رغم أن طيران القصور وانتقالها بهذا الشكل لم يحدث في تاريخ الدنيا قبل ذلك، ولا بعده بالتأكيد؟ ثمّ لماذا لم تجد الحفريات التاريخية في إسرائيل في الخمسينيات من القرن المنصرم أثراً لذلك القصر، ولا حتّى لهيكل سليمان نفسه، لاسيّما أن القُدس كانت حينها قريةً صغيرة لا غير، كما برهنت تلك الحفريات؟.

ثمّة أسئلةٌ كثيرةٌ أخرى، مثيرةٌ جدّاً، يمكن توجيهها حول تاريخيّة نصوص الأحاديث الشريفة التي لم يجرِ البدء بكتابتها إلا في زمنٍ متأخرٍ جدّاً، في العصر العباسي، بعد أكثر من قرنٍ ونصف من وفاة الرسول، أو حول سيرة الرسول نفسها، التي لم تُكتب إلا بعد قرنين من وفاته!.

باختصار شديد: ألا نحتاج، نحن أيضاً، إلى إجاباتٍ علميّة على هذه الاسئلة وعلى عددٍ آخر لا نهائي من الأسئلة التي يثيرها غموض كثيرٍ من قصص وجوانب تاريخنا الديني؟.

الهوامش

(١) Dieu, un itinéraire. Régis Debray. Editions Odile Jacob, 2001.

(٢) Moise «lui que Yahvé a connu face à face», Thomas Romer, Gallimard, 2002.

(٣) Dieu, Fréderic Lenoir, Rober Laffont, 2011.

(٤) Revue Books, L'énigme du Coran, N. 10/2009.

(٥) 20 clés pour comprendre Dieu. Le Monde des religions. Hors-Série N. 11.

(٦) Le coran silencieux et le coran parlant, M.A. Amin-Moezzi, CNRS-Editions, 2011.

الديانات و«فرمتة» الأدمغة!

لا يستطيع المرء، وهو يقارن بين قصص الأنبياء في «الديانات السماوية» الثلاث، إلا أن يلاحظ الدور الكبير الذي أخذه النبي إبراهيم، «كليمُ الله» و«مشيّدُ الكعبة»، في الميثولوجيا الإسلامية بالمقارنة باليهودية والمسيحية.

لعلّ لِذكرِ اسم إبراهيم في القرآن ٢٣ مرة (يليه ذكر موسى ٢١ مرة، وعيسى ٢٠ مرة) دلالةٌ رمزيّةٌ ما على علوّ مقام سيّدنا إبراهيم في كوكبة دين الإسلام، بالمقارنة بالدّينَين السابقين.

المدهش أن هذا الترتيب يعكس نفسه بشكلٍ لا واعٍ في نِسبِ اختيارات الناس لأسماء أبنائهم!. يكفي إحصاء عدد هذه الأسماء الثلاثة في ملفات الإنترنت وقواعدِهِ البيانية التي تحوي عدداً كبيراً من الأسماء العربية، ليلاحظ المرء تقدّمَ عدد ذِكرِ اسم إبراهيم على عددِ ذِكرِ اسم موسى، الذي يفوق بدوره قليلاً عددَ ذِكرِ عيسى في تلك الملفات!.

الحق أن فاعلية الأديان في «فرمتة» الأدمغة، أي في تشكيل خارطتها والسيطرة على نشاطاتها الواعية واللاواعية، مدهشٌ بشكل لا حدّ له. أشكال تلك السيطرة شديدةُ التنوّع. بعضُها، مثلُ ترتيبِ هذه الاسماء الثلاثة كما جاء في هذا المدخل التمهيدي، مثيرٌ قليلاً لكنه لا يعني شيئاً ذا أهميّةٍ ما في حياة الناس.

غير أن أبشعَ النتائج الملموسة لتلك الفرمتة هي ولا شك ممارسةُ العنفِ والنهبِ والقتلِ والإرهابِ باسم الدّين: الحروب «الصليبية»، نهبُ أراضي الفلسطينيين من قبل المستوطنين من «شعب الله المختار»، تفجيرات «الإسلاميين» الانتحارية في ١١ أيلول/ سبتمبر وغيرها من الأعمال الإرهابية اليومية، لاسيّما أن «أسوأ الشرِّ الذي يمارس بشراسةٍ وبكل رضى، يُمارَسُ باسم الدّين!»، كما قال الفيلسوف وعالم الرياضيات بليز باسكال.

المثير هنا أنه لا يوجد إنسانٌ مستعِدٌّ للتضحية بحياته من أجل حقيقة علميّة (أنقذ غاليليو حياته من بطش حكم الكنيسة التي رفضت أطروحاته العلمية المبرهنة عن دوران الأرض حول الشمس، قبل أن يهمس ساخراً: «ولكنها تدور!»)، لكن هناك عدداً لا نهائيّاً ممّن يُقدِّمون حيواتهم في التفجيرات الانتحارية، دون تردّد، قرابين لأوهام دينيةٍ خالصة في أغلب الأحيان!.

سأضرب في هذا الفصل (الذي يهدف إلى إثارة التساؤلات

حول عمقِ ومدى «فرمَتَةِ» الأديان للأدمغة) مثالين مذهلين لهما مدلولان جوهريّان ونتائج مرعبة.

المثال الأول: آتٍ من دراسة[١]، تستحقُّ كلَّ تأمّل، قام بها عالم النفس الإسرائيلي جورج تاماران. قدّم هذا الباحث لأكثر من ألف طالبٍ إسرائيلي، أعمارهم بين الثامنة والرابعة عشرة سنة، آياتٍ من سِفر يشوع في العهد القديم من الكتاب المقدّس، عن غزو أريحا.

تشرح تلك الآيات كيف دخل يشوع ومعه الإسرائيليون أريحا وذبحوا رجالها ونساءها، شيوخها وأطفالها، حمِيرها وغنمها وثيرانها، ثمّ أحرقوا المدينة بعدما نهبوا مالها وذهبَها.

سأل الباحث كل واحدٍ من الأطفال هذا السؤال: «هل تصرّف يشوع والإسرائيليون كما ينبغي؟»!.

لا يهمني هنا التذكيرُ بأن علماء التاريخ والحفريات برهنوا اليوم أن هذه القصة التوراتية لم تحدث في الحقيقة. وليس هنا موضع التساؤلِ عمّا إذا لم تكن هذه القصّة، أو غيرها من القصص التوراتية، قد ألهمت الإسرائيليين، بشكلٍ أو بآخر، في غزو ونهب الفلسطينيين في ١٩٤٨، وعمّا إذا لم تكن اليوم وراء اتخاذ قرارات الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة لتوسيع الاستيطان في الأراضي الفلسطينية المحتلّة.

ما يهمنّي هنا هو أن ردود الأطفال الإسرائيليين كانت مثيرة

جداً: أيّد ٦٦٪ منهم ذلك الغزو بشكل قاطع!.

راوحَتْ تبريراتُ تأييدهم غالباً بين: «وعد الله بني إسرائيل بتلك الأرض!» و«أمرَ الله يشوع بذلك!».

تبريرات المستنكرين من الأطفال لما قام به يشوع وجنوده كانت أحياناً غير نقيّة، ولأسبابٍ دينيّةٍ خالصةٍ أيضاً: «أخطأ يشوع لأن العرب نجسون، ومن يدخل أرضاً نجسةً تقع عليه اللعنة!»، أو «أخطأ يشوع لأنه لم يحتفظ بالحيوانات طعاماً للإسرائيليين!».

الأدهى في دراسة تاماران أنه قدّم الفقرة التوراتية نفسها لمجموعةٍ أخرى من الأطفال الإسرائيليين، مستبدلاً اسم يشوع بالجنرال لين، واسم مدينة أريحا بمملكةٍ صينيةٍ قبل ثلاثة آلاف سنة، موجِّهاً السؤال نفسه: «هل تصرّفَ الجنرال لين وجيشه كما ينبغي؟»!.

كانت ردود الأطفال معاكسةً تماماً هذه المرّة: لم يوافق على هذا الغزو إلا ٧٪ منهم فقط!.

من نافل القول هنا إنه إذا وُجِّهت أسئلةٌ من النوع نفسه لأطفالٍ في أوساط إسلامية أو مسيحية، يؤثر فيها الفكر الديني الظلاميّ، فستكون النتيجة مشابهة أيضاً!.

المثال الثاني: الذي أودُّ تقديمه في هذا الفصل مقتطفٌ من كتاب الباحث الانثروبولوجي الفرنسي باسكال بوييه[٢]. يجلي

هذا المثال كيف أن «فرمتة» كلِّ دينٍ للدماغ تجعلهُ لا يستوعبُ حكايات ومعتقدات أي دينٍ آخر، وكأننا أمام نظامَين مختلفَين لـ «فرمتة» أقراص (ديسكات) الكمبيوتر:

كان باسكال بوييه، ذات ليلة في مأدبة عشاء في إحدى كليات أكسفورد، يحكي بعض المعتقدات الخاصة لشعب الفانج، بالكاميرون، الذي يؤمن كثيرٌ من أفراده بأن السحرة لهم أعضاء بيولوجية إضافية خفيّة تغادرهم لِتطير في الليل، كي تُبيدَ المحاصيل الزراعية لهذا الشخص أو تُسمِّمَ ذاك.

قاطعَهُ رجلُ دِينٍ مسيحيٌّ شهير قائلاً: «يؤكدُ هذا روعة وصعوبة علم الإنثروبولوجيا، إذ يلزمكم كباحثين أن تشرحوا كيف يمكن للناس أن يؤمنوا بسخافات من هذا النوع!».

صعق باسكال بوييه، كما قال في كتابه، ولم يجد الفرصة ليسأل رجل الدّين: ماذا سيقول أي فردٍ من شعب الفانج إذا أخبرناه بأن ثمّة من يؤمنون بأن هناك رجلاً وُلِد بلا أب، من أمٍّ عذراء. ذات يوم، نادى هذا الرجل، الذي وُلِد من أمٍّ عذراء وبدون أب، صديقاً له ميّتاً مدفوناً في القبر، اسمه لازار، وأعاد له الحياة! غادر هذا الرجل نفسه، الذي وُلِد بلا أب ومن أمٍّ عذراء، قبرَهُ بعد ثلاثة أيام من موته، وصعد لقمةِ تلٍّ ليطير بجسدهِ من هنالك نحو السماء؟.

من نافل القول هنا أيضاً أن استبدال رجُلِ الفانج ورجُلِ الدِّين

المسيحي في أمسية أكسفورد، بإثنين يؤمنان بمعتقداتٍ دينيّةٍ أو غيبيّةٍ أخرى، سيؤدّي إلى نتيجةٍ مشابهةٍ تماماً، وكأننا دوماً أمام نَوعين بيولوجيين مُختلفَين لا يتزاوجان.

باختصارٍ شديد: قصصُ المعتقداتِ التي لم ينشأ عليها المتديّنُ، أيّاً كان، منذ طفولته، تبدو دوماً غريبةً جدّاً من وجهة نظره، لِدرجةٍ تجعله يُوجِّهُ هذا السؤالَ المندهشَ المُدهش: كيف يمكن للناس أن تؤمن بسخافات من هذا النوع؟.

الهوامش

(١) John Hartung, Skeptic, Vol. 3, No. 4, 1995.

(٢) Pascal Boyer. Et l'homme créa les dieux. Rober Laffont. 2001.

السيرة النبوية: الكرة في ملعبِنا الآن!

لم أُعجب بشخصيّة الرسول محمد مثلما أُعجبتُ بها بعدما قرأتُ «كتاب الشخصية المحمدّية» لمعروف الرصافي (منشورات الجمل، ٢٠٠٢).

كتابٌ يُخاطِب العقل غالباً، يحترمُه. يبدو محمد من خلاله إنساناً حسّاساً عاشقاً عبقريّاً، مُدهِشاً في مختلف أوجهِ حياته اليومية، جذّاباً في قلقهِ وانتصاراته، ضعفهِ وقوّتِه.

يتركُ الكتابُ لدى القارئ انطباعات معجَبةً بإنسانٍ استثنائي. بقائدٍ عسكريٍّ نادر غيّرَ مجرى التاريخ، قليلاً ما تنجبُ الحياة رجلاً مثله ذا مشروع إنسانيٍّ هائل، عرف كيف يُحوّلهُ بمهارةٍ أسطوريّة إلى واقعٍ حيٍّ ملموس.

نسيتُ بفضل كتاب الرصافي أطلال ما ظلّ في ذاكرتي من كتاب «السيرة النبويّة لابن هشام" الذي درسناه في الصغر: كتابٌ عتيقٌ أُلِّفَ بعد حوالى قرنين من وفاة الرسول، دون أدنى استنادٍ

إلى مراجع تاريخيّة تستحقُّ الاعتماد. لم يمتلك مؤلِّفُه أدنى رغبة كما يبدو في احترام عقل القارئ، فضلاً عن أن الكتاب لم يُحلَّل أو يُنتقد بعدُ حتّى اليوم!

ثمّ عدتُ لقراءةِ كتاب ابن هشام مؤخّراً في ظلّ الجدلِ عن سيرة النبي محمد، الذي بدأ حديثاً في الغرب، وسيزداد بشدّة في الأيام القادمة، لأسبابٍ سأشرحُها بعد قليل.

لم أستطع أن أتقدّم في سيرة ابن هشام، بعد حوالى خمس عشرة صفحة، لأني واجهتُ، في ما واجهتُ، قصصاً كثيرة أتركُ اثنتين منها، كنموذج صغير، دون تعليق:

القصة الأولى:

((قال ابن اسحاق: وحدّثني ثور بن يزيد عن بعض أهل العِلم، ولا أحسبه إلا خالد بن معدان الكلاعي، أن نفراً من أصحاب رسول الله قالوا له: أخبرنا عن نفسك. قال: نعم، أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشرى أخي عيسى، ورأتْ أمي حين حملت بي أنه خرج منها نورٌ أضاء لها قصور الشام، واسترضعتُ في بني سعد بن بكر، فبينما أنا مع أخٍ لي خلف بيوتنا نرعى بهما لنا، إذ أتاني رجلان عليهما ثيابٌ بيض بِطستٍ من ذهب مملوءة ثلجاً، ثم أخذاني فشقّا بطني، واستخرجا قلبي فشقّاه، فاستخرجا منه علقةً سوداء فطرحاها، ثم غسلا قلبي وبطني بذلك الثلج فأنقياه، ثم قال أحدهما لصاحبه: زنه بعشرة من

أمّته، فوزنني بهم فوزنتهم، ثم قال: زنه بألفٍ من أمّته، فوزنني بهم فوزنتهم، ثم قال: دعهُ عنك، فوالله لو وزنته بأمّته لوزنها.))

القصة الثانية:

((قال ابن اسحاق: وحدّثني ابن حكيم مولى آل زبير أنه حدّث عن خديجة رضي الله عنها أنها قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أي ابن عم، أتستطيع أن تخبرني بصاحبك هذا الذي يأتيك إذا جاءك؟ قال: نعم. قالت: فإذا جاءك فأخبرني به.

فجاءه جبريل عليه السلام كما كان يصنع. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا خديجة، هذا جبريل قد جاءني. قالت: قم يا بن عم، فاجلس على فخذي اليسرى. فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس عليها. قالت: هل تراه؟ قال: نعم. قالت: فأتحول، فاجلس على فخذي اليمنى. فتحول رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس على فخذها اليمنى. قالت: هل تراه؟ قال: نعم. قالت: فأتحول، فاجلس في حجري. فتحول رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس في حجرها. قالت: هل تراه؟ قال: نعم. قال: فتحسرت وألقت خمارها ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس في حجرها. قالت: هل تراه؟ قال: لا. قالت: يا بن عم، اثبت وأبشر، فوالله إنه لملَكٌ وما هذا بشيطان.))

ثمّة إشكاليّةٌ جوهريّة وضررٌ كبير في أن ترتبط شخصيّة الرسول محمد بقصصٍ كهذه لم تخضع للقراءة النقديّة التاريخيّة والتحليل والتمحيص والرفض المنهجيّ.

فمن مجموعٍ مثل هذه القصص السيرياليّة أو الرديئة، التي تعجُّ بها أمهات كتب السيرة النبويّة التقليديّة ككتاب ابن هشام، استلهمَتْ مجموعةٌ من الرسّامين الكاريكاتوريين والمخرجين السينمائيين في الغرب مادتَها الخامّ الغنيّة.

أضافتْ إليها أحياناً توابل من السخريّة السوداء وجرعاتٍ من الكاريكاتورية الحامضة، قادت إلى ما حصل من إثارةٍ عنيفة لحساسيات بعض المسلمين، ومن حالات شغبٍ وتوتّرٍ واعتداءات ماديّة ودمويّة جسيمة.

من الملاحظ أن عدداً كبيراً من الغربيين لم يهتم بِبعض كتب تلك الرسومات الكاريكاتورية أو الأفلام الهزيلة، لِمسِّها المقدسَ بطريقةٍ متطرّفةٍ أحياناً، جارحةٍ لكثيرٍ من المسلمين في كلّ الأحوال.

بطبيعة الحال، ظلّ مسُّ المسيحيّة بنفس تلك الطريقة الكاريكاتورية أليفاً جدّاً في غربِ حريّةِ التعبير وتراثِ قرن التنوير، لا يُثير امتعاض أحدٍ هناك تقريباً.

حدث شيءٌ جديدٌ أخيراً: عادت قصص سيرة كتاب ابن هشام، وغيره من أمّهات كتب السيرة النبويّة، إلى الجدل العام في

فرنسا من منظورٍ آخر، لِتستقطب اهتمام الكثيرين هذه المرّة!.

إذ قامت مجلة «شارلي إبدو» الفرنسية (في سلسلةٍ خاصّة بعنوان: **حياة محمد**. ظهر عددها الأوّل لِشهر يناير- فبراير ٢٠١٣ بعنوان: **بداية النبوة**) بتحويلها إلى رسومات كاريكاتورية، دون إضافة أية سخريّةٍ جارحة أو تعليقٍ مشين، دون أية توابل، غير ما تنصّ عليه قصص كتبِنا التقليديّة.

انتشر العدد الأول بشكل ملحوظ في كل واجهات المكتبات الفرنسية، دون رفضٍ إسلاميٍّ يستحقُّ الذكر. ويُنتظَرُ أن تنتشر السلسلة بشكلٍ كبير يصعبُ مقاومتُه هذه المرة، أو تحجيمُ مفعولهِ وتأثيرهِ في القارئ الغربيّ الذي يرغب في التعرّفِ إلى شخصيّة الرسول محمد، والدين الإسلامي: ثاني ديانةٍ في فرنسا، وإن لم يعد للمسيحيّة في حياة المواطن الفرنسي موقعٌ محسوسٌ بسبب فصلِ الدّين عن الدولة.

النتيجة: رسوماتٌ كاريكاتوريّة لِشخصيّة الرسول محمد تصلُ لِمتناول الجميع في فرنسا، ومنها إلى الغرب لاحقاً، بِهدوءٍ مهنيٍّ هذه المرة، لِتنتشرَ في كل مكان.

رسوماتٌ كاريكاتوريّة «حلال»، مثلما تقول المجلة، لأنها تُترجِمُ بكلٍّ بساطة السيرةَ الرسميّة للرسول كما تسردُها كتبُنا ومراجعُنا التقليدية.

لعل الأوان قد آن لأن نرفض نحن أوّلاً كلَّ القصصِ الرديئة

التي اعتدنا طوال قرون قراءتها من أمّهات كتبِنا، وترديدَها دون نقدٍ أو تمحيص، دون استخدام العقل.

آن أوان أن نُقدِّمَ سِيَراً أكثر عقلانية مثل كتاب الرصافي (الذي يبدو أنه مُحَاربٌ أو ممنوعٌ أحياناً) أو رواية حياة محمد، لمحمد حسين هيكل (وهو للتوضيح غير محمد حسنين هيكل) أو غيرها من الدراسات المُحمديّة المستندةِ إلى المناهج العلمية والتاريخية الحديثة.

فقد صار جليّاً جدّاً، في عصر العولمةِ واختلاطِ الاقتصاد والثقافات، أنه «إذا لم تحلق شعركَ المملوء بالقمل، فثمّة من سيحلقهُ نيابةً عنك!».

المحور الثالث: تعليم

يُماهون بين الله وفوتوشوب!

لِغيابِ العقليّةِ العلميّة في مجتمعاتنا العربيّة تجليّاتٌ لا حصر لها. لِتوضيحِ نماذج من هذه التجليّات، يكفي على سبيل المثال (لمن يجيدُ استخدام برمجيّة فوتوشوب لإخراج الصور الرقميّة على الكمبيوتر) فَبْرَكةُ صورةِ رجُل بِرأسين، أو إلصاقُ صورتَي شخصين ظهراً بظهر، كما لو كانا ملتَصِقَين فيزيولوجيّاً، وتصميمُ رئتين مشتركتين لهما معاً تبدوان مكشوفتين في الصورة.

يكفي بعد ذلك وضعُ هذه الصورة على صفحة فايسبوك مفتوحة مع خبرٍ على غرار: «يعيشان هكذا بقدرة الله ملتَصِقَين جسديّاً، بنفس الرئتين، منذ ٤٨ عاماً!».

بدلاً من أن تسخر تعليقاتُ القراء من هذه الترّهات المثيرة؛ أو أن تتساءل على الأقل، بِحِيرةٍ مبارَكة، كيف يمكن أن يكون ذلك ممكناً؛ أو أن تقول، وذلك أضعف الإيمان، إنها تنتظرُ

تأكيداً وتفسيراً لهذه «الظاهرة» من جهةٍ علميّةٍ رسميّةٍ متخصّصة؛ سينهمرُ على صفحة الفايسبوك «٥٠٠ لايك في خمس دقائق»، ويتوالى رتلٌ من تعليقات دينيّة لعلّ أقلّها خشوعاً: «إن الله على كل شيء قدير»، «سبحان الخالق!».

يُماهون هكذا بغباءِ إيمانهم وفرطِ حماقتهم بين الله وفوتوشوب!

مثالٌ آخر: يكفي عند الحديث عن قطار اليوروستار (الذي يربط باريس بِلندن، ويمرُّ تحت بحر المانش) نقلُ الخبر التالي: هناك مشروعٌ عملاقٌ جديد سيبدأ قريباً لربط باريس بِنيويورك يمرُّ تحت المحيط الأطلسي!.

ستنهال حينها سريعاً من أكثر من مثقف خطبُ ندمٍ صادقةٍ صائبة على واقع بلداننا العربية التي تخلو بعضها، مثل اليمن، من أيةِ سكّةِ حديد فوق الأرض (وإن ردّد رئيسُها المخلوعُ طويلاً: «فاتكم القطار!» التي لعلّها تعني في الأساس: «فاتكم الحمار!»، لاسيّما بعد تنْحيتِه)، تليها خطبُ إعجابٍ هائل بالمستوى العلميّ والتكنولوجيّ في الغرب الذي صعد إلى القمر، فكيف سيصعبُ عليه عبور الأطلسي بالقطار!.

تتوالى مثل تلك الخطب في الوقت الذي يلزم التساؤل بشكلٍ هادئٍ رصين: إذا كان حفرُ نفقٍ تحت شارع يحتاج إلى عدّة أشهر فكم قرناً سيلزم لحفرُ نفق طوله عدّة آلاف من

الكيلومترات تحت محيطٍ أطلسيٍّ شديدِ العمق؟ هذا إذا كان هذا المشروع مجدياً أو معقولاً على الأقل، وإذا لم يكنِ الخبرُ عنهُ مجرّد مزحةٍ من العيار الثقيل!.

يمكن، في واقعنا العربي، معايشةُ أو إخراج عددٍ لا نهائي من مثل هذه الأمثلة المُسلِيّة، والمحزنةِ أيضاً لأنها تكشفُ عورات عقولِنا العربيّة التي يخدِّرُها سماعُ الخرافات، بل تحتاج غالباً إلى سماعها كما يحتاج المدمنُ إلى المخدرات.

من الملحوظ لمن يتنقّل زجزاجيّاً بين ثقافتين غربيّة وعربيّة أنه يستحيل أن يُعلّق طالبٌ صغيرٌ، درسَ وتربّى في مدرسة الغرب، على هذين الخبرَين بنفسِ طريقتنا الإيمانيّة الساذجة. لماذا؟

السبب: ترعرعتْ في دماغِه بفضلِ المدرسة، وبشكلٍ مبكّر، ثقافةُ الشكِّ والنقد والرفض، ثقافةُ العقل المبنيّة على التساؤل والتحليل المستقل عن أية مُسلّمةٍ غيبيّةٍ يلزم الإيمان بها مسبقاً، ثقافةُ الـ «لا» العبقريّة التي يلزم توجيهُها آليّاً، وبشكلٍ مسبق، قبل التحقّق من صحة الخبر، والتأكد من وجود برهان علميٍّ له... فيما ثقافتُنا عكسُ ذلك تماماً: ثقافة الـ «نعم» البليدة التي اعتدنا أن نُشهِّد ونُكبّر بها آليّاً دون تمحيصٍ أو برهان!.

الفرق بين الثقافتين شاسعٌ جدّاً: يكفي في ثقافة الـ «نعم» أن يمتلكَ المرءُ عقليّة الخروف ويزدرِدَ دون عسرِ هضم رتلاً من

المسلّمات الغيبيّةِ والمُحالةِ الجاهزة، ويؤمنَ بها دون نقاش، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته! لا يُكلِّفه ذلك أي مجهودٍ أو وقت!. بيد أن ثقافة الـ «لا» أصعبُ بكثير: يلزمُ فيها تبريرُ رفضِ كلِّ مقولة، دراسةُ كيف وُجِدت ولماذا، والبحثُ عن بديلٍ لها، والصمودُ أمام القوى الظلامية التي لا تقبل عدم الإيمان بمسلماتها، وتلجأُ حينها غالباً للتكفير والعنف.

في مدرسة الغرب (حيث لا يتدخّلُ الدِّينُ والغيبُ بشؤون التعليم لا من قريبٍ أو بعيد) يعودُ الطالب إلى البيت كلّ يوم بعد أن يكون قد تعلّم كيف يكون فضولياً جدّاً، شكّاكاً جدّا، وكيف يستخفُّ بأي تفسيرٍ أو إجابة تأتيه من خارج المختبرات العلمية، وعلى صحنٍ جاهز! أي بعد أن يكون قد تعلّمَ كيف يرفضُ ألفَ مسلّمة، وكيف يقول ألفَ لا.

في حين لا يعود الطالب كلّ يوم من مدرستنا العربية (التي لا فصل فيها بين الدّين والعلم) إلا بعد أن يكون قد استلم ألفَ تفسيرٍ لا علميٍّ عن الكون والحياة تصله بقبضةِ يد من ألفِ مشعوذٍ وفقيه، وقد عزّز من «خروفيّته» وإيمانه وقناعاته البدائية أكثر من البارحة، وأضاف ألفَ حبّةٍ «نَعَم» جديدة لمسبحةِ نَعَمَاته الثقافية اللامتناهية!. نموذجُه في ذلك من قال عنه الفرزدق مادحاً:

مـا قـال لا قـطُّ إلا فـي تـشـهُّـدِهِ
لـولا الـتـشـهّـدُ كـانـت «لاؤُهُ» «نَـعَـمُ»

لعلّ غيابَ عقليّةِ النقد والنفي والرفض في ثقافتنا يُفسّر إلى حدٍّ كبير لماذا كنّا في قمّة الحضارة في العصور الوسطى، عندما كان العِلم بدائيّاً لا يجيد ابتكار أكثر من البوصلة الصينية والاسطرلاب الإغريقي (الذي طوّرهُ العربُ ابتداءً من القرن الثامن) والسيف اليماني. أما في عصرِ العِلم الحديث الذي بدأ في القرن السابع عشر، عصر السفن الفضائية والكمبيوتر والإنترنت وسكانير الدماغ والطاقة الذريّة، فلسنا أكثر من مشاهدٍ مستهلكٍ، يلهث في المؤخرة مشلول الدماغ مكسورَ الركبة.

الأسوأ: نكتفي أكثر من اللازم بمدح ما قدّمناه للعِلم في تلك العصور الوسطى، رغم أن كلّ ما ساهمنا به طوال ذلك الزمن لا يستحقُّ الذّكر بالمقارنة بما يُنتِجهُ اليوم أصغر مختبرٍ غربيٍّ في أسابيع قليلة!.

ماذا حدث إذن أثناء تلك الثورة العلميّة الحديثة التي فصلتْ بين عهدين: عهدِ العلوم البدائية الذي كنّا خلاله في الطليعة، وعهدِ العلوم الحديثة الذي لم نستطع فيه أن نغادر القاع؟

حدث تغيّرٌ نوعِيٌّ جذريٌّ في طرائق صناعة المعارف: كانت المعارفُ قبْل العِلم الحديث تجريبيّةً مباشرة، تنسجمُ مع التوقّعات الحدسيّة للإنسان، لا تتطلبُ أكثر من مواهب الرصد والتمعّن والتنظير المباشر: كان يكفي للعِلمِ حينها تحديدُ علاقات زوايا وأضلاع الأشكال الهندسية التقليديّة ومساحات

وحجوم الأجسام النافعة البسيطة، ومراقبةُ حركة الكواكب والنجوم ورصدها بوسائل في غاية التواضع، والتمعّنُ في أعراض الأمراض وعلاجها بِطُرقٍ بدائيّةٍ تجريبيّة.

أي كانت معارف أوّلية انتجتْها ثقافةُ الـ «نعم» للحدس والطبيعة المرئيّة والواقع الملموس.

في عصر العِلم الحديث انقلب الأمر رأساً على عقب: أرست الثورة العلميّة ثقافة الـ «لا». لأن التوقّعات الحدسيّة للإنسان ومسلّماته الغيبيّة، كما صاغها تاريخهُ التطوريّ، تخالفُ غالباً الحقيقةَ العلميّة، ويلزم لذلك دحضُها واستبدالُها بمعارف أخرى تسمحُ للحضارة الإنسانيةِ بالتقدُّمَ إلى الأمام!.

كلُّ الاكتشافات العِلميّة الحديثة، من اكتشافات غاليليو الذي برهن، قبل ٤ قرون، خطأ المعتقدات الفلكية السائدة ذات الأساس الدينيّ، حتّى اكتشافات العِلم الحديث لِلَحظة نشوء الكون إثر الانفجار الكبير (البيغ بونغ) قبل ١٣,٧ مليار عام وتمدّدهِ الدائم مذّاك (مخالفاً كلَّ توقّعاتنا الحدسيّة عن ستاتيكية الكون، والخطابَ الغيبي حول خلقهِ في ستة أيّام)، وحتّى نتائج الفيزياء الكونتية، المربكةِ المذهلةِ بشكلٍ كليٍّ مدهش، مثل مبدأ هايزنبرغ الذي ينصُّ على استحالة معرفة سرعة الجسيمات الذريّة وتحديدِ موقعِها في الوقت نفسه؛ مروراً بنظرية داروين التي برهنت على نشوء الكائن الحيّ بطريقة تخرج تماماً عن كلِّ تصوراتنا البدائية أو الغيبية (مثل حكاية آدم

وحواء والحيّة والتفاحة)، ونظرية آينشتاين عن نسبية الزمن التي خالفت فيزياء نيوتن وأعادت صياغتها: مقياسُ الزمن الذي يفصل حدَثين ليس ثابتاً ولكنه يرتبط بسرعة من يقيسه. (أو ما يحلو غالباً شرحه مجازاً: إن كنت تطير خارج الأرض بسرعةٍ تقترب من سرعة الضوء، لمدة عام من عمرك، فستعود إلى الأرض وقد شاخ أهلها وعاشوا عمراً أكبر بكثير من تلك السنة التي قضّيتَها بعيداً عنهم). كل هذه الاكتشافات الجوهرية التي تأسّس عليها العِلمُ الحديث تُخالفُ كليّةً التوقعات الذهنية البديهية للإنسان والثوابت الغيبيّة التقليدية الأساسية، وتتطلب للوصول إليها عقولاً «لائيّةً» صارمة تمتلك روحاً نقديّةً خلّاقةً من طراز استثنائيٍّ شرسٍ صبورٍ عنود، يسمحُ لها بالتمرّد على تأثير وسلطة التوقّعات الحدسيّة والمسلمات الغيبية!.

يلزم القول هنا إن التركيز على تأسيس هذه الثقافة النقدية الصارمة في الإنسان، منذ طفولته وصباه، جوهريٌّ وحاسمٌ جداً، لأن عقلية الطفل، مثل عقلية الإنسان البدائي الأوّل، تولدُ، كما برهن علماء الذِّهن التطوّري، باستعدادٍ فطريٍّ لقبول التفسير الغيبي لبعض الظواهر.

كلّ الصراعات الروحية والفكرية الكبرى في الغرب خلال قرون كانت، في الحقيقة، من أجل خلق الروح النقدية والتعليم العقلاني منذ مدرسة الطفولة، لأن الظلاميين يعرفون كل المعرفة أنهم إذا لم يسيطروا على الطالب في سنٍّ مبكّر

ويحرموه من أسس العقلية النقدية، ومن القدرة على رفض أية مقولة دون برهان، فسيخسرونه إلى الأبد!.

ألم يقل أحد الظلاميين الغربيين (الذين يعرفون أفضل المعرفة، مثل الظلاميين العَرَب، أن من يسيطر على التعليم يسيطر على كل شيء)، مؤسسُ منظمة «التركيز على الأسرة»، الدكتور جيمس دوبسون الذي اتهم في ٢٠٠٦ أوباما بتحريف الإنجيل: «إن من يسيطر على تعليم أطفالنا وشبابنا وعلى طريقة تفكيرهم وعيشهم (ما يرونه ويسمعونه ويؤمنون به) يحدِّدُ مستقبل الأمة».

الردُّ الضمنيّ للعِلم الحديث على ذلك: «أعطني تعليماً عقلانياً أعطك شعباً يقود الحضارة!» تحريرٌ تنويريٌّ للعقلِ والإنسان من كل سيطرة ظلامية.

لم يصل العقلانيون الغربيون إلى تحقيق ذلك إلا بعد قرون من الصراعات ضد رجعيّة الكنيسة والثقافة السائدة. ألم يقل القائد المسيحي الشهير لوثر على سبيل المثال: «العقل أكبر أعداء العقيدة، لأنه يزعزع قناعات المؤمن»، أو: «كل من يريد أن يكون مسيحيّاً حقيقيّاً يلزمه أن ينتزع أعين عقله»؟.

باختصارٍ شديد، نحتاج نحن أيضاً إلى أن يتحوّل تعليمُنا العربي إلى تعليم عقلاني، منذ الطفولة، وإلا نظل نُحلِّق في فضاءات ثقافتنا السابقة، ثقافة العصور الوسطى.

سنظلُّ مثل فراشات الليل التي عندما تواجه شمعةً ترمي بنفسِها وسط شعلتِها مباشرة، كما لو كانت قد قرّرت الانتحار حرقاً!.

تستطيع هذه الفراشات، بطبيعة الحال، الطيرانَ في الليل تحت ضوء القمر (الذي تصل أشعّته في خطوطٍ متوازية، لأنها آتيةٌ من بعيد)، لاسيما أن عدسات أعين تلك الفراشات تكيّفت، خلال تطوّرها البيولوجي، مع ذلك التوازي وأخذت شكل أنابيب مستطيلة تشبه أشواك جلد القنفد. فلذلك تطير هذه الفراشات وكأن أشعة القمر تُوجِّهها كبوصلة. السبب: تطير الفراشة في خطٍّ مستقيم دائم. تَعبُر أشعةُ القمر أثناء ذلك واحدةً فقط من تلك الأنابيب القنفذية. تلعب هذه الأنبوبة حينها دور البوصلة: تطير الفراشة في خطٍّ مستقيمٍ دائم على نفس اتجاه خطّ تلك الأنبوبة التي تمرّ منها الأشعة.

غير أن الإشعاعات الآتية من مصدرٍ قريبٍ كالشمعة، حديثٍ زمنيّاً بالنسبةِ إلى التاريخ البيولوجي للفراشات، تصلُ إليها غير متوازية، فتشفطها بشكلٍ حلزوني إلى وسط النار، لأن أعين الفراشات تنقاد لهذه الأشعة كما تنقاد لأشعة القمر المتوازية!.

أما آن الأوان أن نُكيِّف عدسات أعيننا وجوهرَ تعليمِنا وطريقةَ تفكيرنا مع عقلية الألفية الثالثة، عقلية الروحِ النقدية، والتحليلِ العلمي المستقلِّ عن أية مسلَّمةٍ يلزم الإيمانَ بها بشكلٍ مسبق، وحريّةِ البحث والتفكير، حتّى لا نظلَّ نجيد الطيران فقط في فضاءات أزمنة الهوادج والسيوف اليمانية، لكننا نتساقط

كفراشات الليل في مشاعل عصر العِلم الحديث ذات الأنوار المرفرفة المتقاطعة الساطعة؟.

السؤال الجذريّ الآن هو: ما هي العوائق التي تمنعُ انتقالَنا من ثقافة الـ «نعم»، ثقافة العبودية والتقوقع والظلمات، إلى ثقافة الـ «لا»، ثقافة الحريّة والتقدّم والعقلية العلميّة الحديثة؟

تحتاجُ الإجابة عن هذا السؤال الجوهريّ جدّاً إلى فصلٍ لاحقٍ آخر.

هدهد سليمان عظمٌ في حنجرة التعليم

في نهاية فصل: «يماهون بين الله وفوتوشوب» تساءلنا عن العوائق التي تمنع اكتساب ملَكات الشكّ والتساؤل والنقد والنفي والبرهنة التي تتأسس عليها العقلية العلمية. سنحاول هنا إجلاء أحد أبرز هذه العوائق: القراءة الحَرفيّة لبعض القصص الدينية الميثولوجية واعتبارها حقائق تاريخية علميّة.

لنأخذ كأنموذجٍ هنا قصة الملك سليمان وملكة سبأ، التي أعاد القرآنُ صياغتها انطلاقاً من التوراة ومن نصوصٍ دينيّة يهودية: قصّةٌ في غاية الجمالِ والروعةِ والإثارة. بديعةٌ جدّاً إذا قُرِئت بشكلٍ مجازيّ، لكنها، كما سنوضّحُ هنا، متعدِّدةُ السلبيّات والأضرار إذا ما قُرِئت كحقيقةٍ تاريخية.

لِنُذكِّر أوّلاً بتفاصيل القصة، ثمّ لِنقرأها بمنهجٍ عِلميٍّ نقديٍّ لا يخلو من بعض الانزياحات الأدبية:

استعرضَ الملِكُ سليمان ذات يوم جنودَه ولم يرَ بينهم هدهدَه

الذي غاب عنهُ طويلاً دون خبر! . اشتعلَ غضباً، دمدمَ: «لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَو لأَذْبَحَنَّهُ» إذا لم يُبرِّرْ سببَ غيابِه! .

(لا تخلو هذه الكلمات الأربع من الساديّة، والبسيكوباتية! . تُرتِّلُها الأجيال منذ قرون دون تعليق، دون اشمئزاز، بكلِّ خشوعٍ وإعجاب. فيما يلزم أن لا تصلَ لِمسمعِ صبيٍّ دون إدانةٍ صارمة، إذا أردنا خلق أجيالٍ لا تُربّى على قِيَمِ التهديد والاستبدادِ والتعذيب والذبح وتمجيدِ الطاغية والعملِ في حاشيته كهداهد مُخبِرين لا أكثر! .)

عاد الهدهد، ارتجف وهو يرى علامات الغضب في قسمات الملك. مكث غير بعيد ليسردَ له «النبأَ اليقين» الذي يبرّرُ غيابه: رحلةٌ استقصائية قام بها أدّت لاكتشاف مملكة سبأ الباهرة وملِكتها التي «أوتِيت من كلِّ شيءٍ ولها عرشٌ عظيم»، والتي لم ولن توجد يوماً امرأةٌ بِجَمالِها.

أمر الملكُ هدهدَهُ بالتوجّهِ حالاً للملِكة وتسليمِها رسالةَ تهديدٍ وأمرٍ بخضوعها ومملكتها لسلطتِهِ دون نقاش!

(تهديدٌ عدوانيٌّ استعماريٌّ مرعب. لعلّ ثقافتنا علّمتنا الإعجاب به أيضاً بدلاً من إدانتهِ ورفضه. ليس غريباً أنّ من جُبِّلَ على ذلك يُصبحُ قابلاً لأن يُستعمرَ بسهولة، مستعدّاً للانقيادِ والخضوع بسعادة، كما اعتدنا ذلك طويلاً!).

عاد الهدهد من مملكة سبأ بتقريرٍ شهيرٍ مفاده: استشارت الملكة

حاشيتَها وأهلَ مملكتِها الميمونة حول موقفهم من تهديد سليمان. كان ردّ الجميع جليّاً: «نحن أولو بأسٍ شديد»، أقوياء جدّاً، نستطيعُ الدفاع عن مملكتنا بثقةٍ وبسالةٍ ونخوة، لكنّ القرار الأخير بيد جلالتك!.

رفضت الملكة. أمرتْ شعبَها المقدار الشجاع بالخضوعِ للملك، مبرّرةً ذلك (بخنوعٍ وركوعٍ أسطوريّين): «إن الملوكَ إذا دخلوا قريةً أفسدوها وجعلوا أعزّةَ أهلِها أذِلّة!».

(روحٌ استسلاميّةٌ قصوى، ديكتاتوريّة قاهرة! يصعبُ تعليمُ روحِ الذلِّ بأفسدِ من ذلك التبرير!)

ثمّ اختتم الهدهدُ تقريره: «الملكةُ قادمةٌ لتنحنيَ أمام جلالتك، على رأس قافلةٍ تاريخيّةٍ مدجّجة بأبهى لآلئ الأرض ومرجانها، أشذى عطورها وبخورها، هداياً لك!. فضلاً عن عطرِ العطر: جسدِها الأسطوريِّ الفريدِ ذي العبقِ الزكيِّ الأوحد!.)

هكذا، لم تكتفِ الآنسةُ بلقيس، كما تسمّيها الأساطير، بهذا الدرسِ المتوغّلِ في الانهزامية والجُبن، بل أرادت أن تذهب للملكِ هي نفسها لتُهديهِ جسدَها العطريّ الشهير!».

(درسٌ تاريخيٌّ آخر يخلو من العزّة والكرامة. لم يَصدُم أحداً مع ذلك رغم أننا تعوّدنا أن نلوك كثيراً الحديث عن الكبرياء والشرف!. عذرُ الملكةِ الحبيبةِ بلقيس على هذا الابتذال العاهر

هو أنها مجرّدُ شخصيّةٍ أسطورية، ليس لها أي وجودٍ تاريخيٍّ حقيقي!).

حالما سمع الملك سليمان تقريرَ هدهدِه أراد أن يُبهِر ضيفتَه القادمة: قرّر أن يُحمَلَ لهُ قصرُها جوّاً من مملكة سبأ إلى القدس لِتُفاجأ عند وصولِها بِرؤيةِ عرشِها الشهيرِ أمامها، عند أقدامِ الملك سليمان!.

سأل الملكُ «عفريتين من الجن» سجينين بِجواره: من منكما يستطيع أن يُحضِرَ لي قصرَها من بلاد سبأ أسرع من الآخر؟.

أجاب أحدُ العفريتين من داخل القمقم: أستطيعُ ذلك «قبل أن تقوم من مقامك!».

لم يناسب ذلك، بالطبع، الملِكَ سليمان الذي كان يتنقّلُ أيّامها ببغل، والذي كانت القدس في عصره قريةً صغيرة لا يوجد بها بعدُ ما سُمّي «هيكل سليمان» الذي تمّ بناؤه عدّة قرون بعد عصر الملك داود، كما برهنت الحفريات الإسرائيلية الحديثة (أنظر فصل: من كتب التوراة؟ وأسئلة قرآنية مجاورة).

حكَّ سليمان رأسَه، فكّر بضع دقائق، أيقن في نهايتها أن عفريته هذا بطيءٌ جدّاً، من فصيلةِ جِمال أو سلاحف العفاريت، يلزمهُ ردحٌ من الزّمن مقدارهُ ثانية كاملة لِيأتيَ بالقصر إلى حضرة سليمان العظيم الذي لا يريد إضاعةَ ثانيةٍ كاملة في إنجاز هذه المهمة «التافهة»!.

تمتم: «بووووف! مش ممكن!». خسر العفريتُ المسكينُ المناقصة!. باي باي!... لا مفرّ لهُ من القمقم حتّى نهاية الأبديّة!.

صرخ العفريتُ الثاني «الذي عنده عِلمٌ من الكتاب»: أستطيعُ ذلك «قبل أن يرتدَّ إليك طرفُك». (أي بسرعةٍ تقترب من سرعة الضوء!. ضارباً عرض الحائط بقانون آينشتاين الذي برهن أن المادّة التي تسير بسرعة الضوء تتبدّد وتتحوّل إلى طاقة!. آه، آينشتاين المسكين الذي كان عليه في هذه الحالة، ليكون قانونه «صحيحاً»، أن يستثني فيه بالحرف الواحد قصر ملكة سبأ الذي حملهُ العفريت الثاني للملك سليمان!).

﴿قالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلجِنِّ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ قَالَ ٱلَّذِي عِنْدَهُ مِّنَ ٱلْكِتَابِ أَنَا ءاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾

قبِلَ الملكُ المتبخترُ عرضَ العفريتِ الثاني الذي فاز بهذه المناقصة التي كسرت ركبة الفيزياء، أو بالأحرى لم يجد الملِكُ الوقتَ الكافي لِقبول العرض أو رفضِه، أو حتّى التفكير به، إذ حصل ما يلي:

خرجَ العفريتُ من القُمقم؛ طار حوالى ٣٠٠٠ كيلومتر نحو مملكة سبأ؛ أجتثَّ القصرَ من الأرض؛ طار به وبكلِّ من يسكنُهُ ٣٠٠٠ كيلومتر في الاتجاهِ المعاكس لِيتحوّل القصر حينها بسبب

قانون آينشتاين إلى إشعاعات لا غير؛ حفر حُفرةً كبيرةً مساحتها أكبر من كيلومترٍ مربّع؛ شفط الإشعاعات المتناثرة في أرجاء الكون (التي تحوّل إليها القصر جرّاء طيرانِه بهذه السرعة) وكثّفها من جديد، لِيُعِيدَ القصرَ إلى هيئتهِ المادّية الملموسة، بمن كان فيه من البشر، كما كانوا تماماً قبل تحوّلهِم إلى إشعاعات؛ ثبّتَ القصرَ في الحفرة قُربَ أقدام الملِك، وكأنّهُ شُيِّدَ هناك لأوّلِ مرة؛ واااااو! . . . كلُّ ذلك بأسرعِ من رمشة عين، أي في أقلِّ من كُسرٍ عشريٍّ زهيدٍ من الثانية!.

ذهل الملك وهو يرى قصراً جدرانهُ من اللآلئ المطحونة، وبلاطهُ من الذهب الخالص، تتفجّرُ الروائحُ العطريّةُ المُسكرةُ من كلِّ أرجائهِ على الدوام!.

لنكتفِ بهذا الجزء من هذه الأسطورة الخالدة، دون مواصلة تفاصيل ما حصل بعد ذلك: يأمر الملِكُ بأن يُمرَّدَ مدخلُ القصرِ (قبل وصولِ الملكة) بكريستالٍ صقيلٍ شفّافٍ جدّاً يسيلُ أسفلَهُ جدولُ ماء، لِخدعِ الملكة كي تضطرَّ أن ترفعَ قليلاً من فستانِها خوفاً من أن تتبلّلَ أطرافه، وتكشفَ هكذا عن مربط الفرس: ساقَيْها البديعَتين اللتين تردّدت الشائعات حينها بأنهما ساقا بقرة! . . . (بلطجيّةُ الملوكِ وتلصُّصهم كريستاليّةٌ جدّاً!) وما يلي ذلك من حوارٍ شهيرٍ في غاية الجمال، بين سليمان وبلقيس، حال وصول جلالتها لحضرته.

لنتأمل ونتساءل قليلاً: عجيبٌ هذا الملكُ الأسطوريّ الذي كان

يتكلّم لغة الطير والنمل والعفاريت والجدران والحجارة، وعجيبٌ زمنُهُ الذي كانت الطيور تقرضُ أثناءه الشِّعر. كانت النملُ تستخدمُ آخر صرخاتِ البلاغة والاستعارات المكنيّة وتَمتلِكُ لذلك هي الأخرى أدمغةً بِحجمِ دماغِ الإنسان ونوعيته، مشحونةً بمناطقِ اللغة. كانت العروشُ تطيرُ فوق رؤوس الناس بسرعةٍ خارقة.

أيمكن لمن يصدّق هذه القصة (لا سيّما إن كان قد درسها في المدرسة) أن يمتلك بعد ذلك عقليّةً علميّة؟ أيمكنهُ أن ينفي مقولةً ما؟ أيمكنهُ أن يرى خللاً في مشروع القطار الذي يربط باريس بنيويورك أسفل المحيط الأطلسي الذي يبدو كخرابيش أطفال بالمقارنة بهذه القصّة؟ (انظر فصل: يماهون بين الله وفوتوشوب).

لا يمكن، للأسف الشديد، دراسةُ الفيزياءِ والبيولوجيا في المدرسة بحق، واعتبار مثل هذه القصص حقائق، في الوقت نفسه!. لأن علوم الفيزياء والبيولوجيا تتحوّلُ حينها إلى وصيفةٍ للشعوَذة، راقصةٍ شرقيّةٍ في كاباريه الفقهاء، لا أكثر أو أقل: تاريخُ العِلم سلسلةٌ من اللاءات المقدّسة، وليس «نَعَمَاً» عاهرة في سوقٍ للنخّاسين!.

أليس مفهوم «علم الكتاب» اقتحاماً دينياً مضرّاً في شؤون العِلم لأنه يخلط بين العِلم والغيب، بين الفيزياء والميتافيزيقيا؟

أليس من الدلالة بمكان أن كلمة «علماء» تُستخدَم في اللغة العربية للحديث عن الفقهاء من جهة، والعلماء من جهة أخرى، في حين أن هاتين الكلمتين مختلفتان في اللغات الأخرى، تُطلقان على فئتين يفصلهما «برزخٌ لا يبغيان»؟

أليس من الغريبِ العجيبِ أن يتحوّل الملكُ سليمان من ملكٍ فقط في الديانة اليهودية إلى ملكٍ ونبيٍّ في الدِّين الإسلامي؟

باختصار شديد: الإيمانُ بهذه القصّة الغرائبية كحقيقةٍ تاريخيَّة عائقٌ يمنع اكتساب العقلية العملية، استخفافٌ بالتاريخ، بِعلومِ الأحياء، بِعلومِ الفيزياء، بالجغرافيا، بالمنطق، وبكلِّ شيءٍ يحترمُ العقلَ تقريباً... ليس ذلك فحسب، بل إن مضمونها شنيعٌ من وجهة نظرٍ أخلاقية: يصعبُ تعليم الذلّ وتمجيد العدوان والعبودية بطريقةٍ أكثر فاعلية من هذه القصّة.

ومع ذلك، هي قصّةٌ مثيرةٌ عجائبيةٌ ذات جمالٍ خالد، أسكرتْ وتسكرُ الأجيال على الدوام، شريطة قراءتها كنصٍّ سرديٍّ تخيّليّ عجائبي.

أما إذا لزم اعتبارها حقيقة تاريخية، فعلينا قراءةُ الفاتحة على العقليّة العلميّة لأن اكتسابها يبدأُ فقط عندما نفصلُ بين الواقع والأسطورة، وبين العِلمِ والدّين.

التعليم العربي:
بناءٌ تحتيٌّ تأسّسَ في عصر الانحطاط!

(١) لماذا لا يمكن للتعليم العربي الراهن غير إدارة التخلف؟

سأستهلُّ هذا الفصل بحكمةٍ صينية شهيرة: «لو وهبتكَ سمكةً لأعطيتك ما يكفي للعشاء هذه الليلة. لكن لو علّمتك الصيد لوَهبتكَ ما يكفي للعشاء طوال حياتك!». أحتاج إليها، في الحقيقة، لتوضيح أن ثمّة نوعين من المعارف: الأولى أشبه بالسمك في المثل الصيني، والثانية بتعلم صيدِ السمك وطبخِهِ!.

الأولى معارف منتَجة (بنصب التاء)، والثانية منتِجة (بكسر التاء) تسمى أحياناً «ما وراء المعارف»، أي المعارف التي تتّخذ المعارف موضوعاً لها: تصنعها، تبرهنها، تدرسها، تنتقدها، تعيد خلقها... الأولى تمثّلُ البناء الفوقي للمعرفة، أو ثمرَتها. والثانية بناءَها التحتي، أو أرضيّتَها وماءها وهواءها... مهمة

التعليم تدريس الأولى، بالطبع. لكن مهمته الأهم والأعمق هي تجذير ممارسة الثانية، أي تعليم الطالب اكتساب ما يسمى بالعقلية العلمية!.

المعارف المنتَجة (بنصب التاء) التي تُدرِّسها مدارسنا العربية هي تلك التي ترجمناها من الغرب (باستثناء دروس اللغة العربية والدين أساساً، التي لم يكتبها الغرب لنا، فأخذناها من كتبٍ سحيقة، عمرها عدة قرون!). ربما هناك تأخرٌ في ترجمةٍ ومتابعة جديد هذه المعارفِ الغربية غالباً، أو نقصٌ أكيدٌ في الإمكانات أثناء تدريسها، لكنها معارف حديثة، لم تسمح لنا مع ذلك بأن نصل لمستوى الغرب أو حتى بالخروج من تخلفنا الذي يزداد يوماً بعد يوم!. أفضل ما يمكنها أن تقدّم لنا هو كيف نستخدم هذا الجهاز الغربي أو ذاك، كيف نعالج بعض الأمراض، كيف نقرأ آثارنا القديمة!.

السؤال الجوهري هنا: لماذا لا يمكنها أن تسمح لنا بأكثر من استيراد سمك الغرب المطبوخ (الذي يصلنا غير طازجٍ غالباً)؟.

السبب الرئيس، الذي لا نتجرأ على الخوض فيه بعمق، يكمن في أن البناء التحتي للتعليم العربي وادٍ غير ذي زرع (ظلّ ظلاميّاً كما هو، منذ عصر الانحطاط الذي ساد فيه فكرٌ سلفيٌّ أحاديّ الاتجاه في الثقافة العربية الإسلامية، أطاح التراث العقليّ لِلعصر الذهبي، لاسيما الفكر المعتزلي). بناؤنا التحتي هو منبعُ تخلفنا لأنه يُعلّم الإنسان العربي بنجاح كيف لا يفكر،

كيف يكتفي باستيراد السمك وأكله. هو أرضيةٌ جرداء لا تسمح بإنتاج المعارف! ثمة خللٌ جوهري في علاقته بالبناء الفوقي الذي استوردناه من الغرب ومقرّرات مدارسه الحديثة!.

(٢) البناء التحتي للتعليم العربي معادٍ للعلم!.

لأوضّح ذلك يلزم التذكير بأن البناء التحتي للتعليم في الغرب تأسس في معمعان الصراع بين الكنيسة والعلم، منطلقاً من فكرةٍ جوهرية تفصل بين العلم والدين، تعودُ شرارتها الأولى لابن رشد الذي اعتبرهما، قبل ٨ قرون، كرتين لا تقاطع بينهما: الأولى تتمحور حول البرهان، والثانية حول العقيدة. الأولى «علوم صنعيّة»، والثانية «علوم شريفة»!.

استندت الحضارة في الغرب إلى هذه الفكرة التأسيسية فيما ابتعدت الحضارة العربية الإسلامية عنها، وتجمّدت في قرون انحطاطٍ لم تنته بعد! طوّر الغرب بعد ذلك تلك الفكرة أقصى تطوير، لتصبح اليوم بشكلها الراقي ميثاق العلاقة الحضارية بين التعليم الحديث والدين، الذي يقوم على الأساس التالي:

للعلم والدين وظيفتان مختلفتان. العلمُ مجالُ نشاطِ المدرسة، يتخصصُ بدراسة وتفسير الكون والحياة. والدين مجالُ نشاطِ الكنيسة أو دور العبادات الأخرى، يختصُّ بالعلاقة الروحية بين الإنسان وإلهه، وتعليم من يريد القيمَ الأخلاقية الدينية: حب الآخرين، التعاون إلخ. لا يحقُّ لِلعلم المسّ الإيديولوجي

بالدين أو التدخّل في شؤون معابده، ولا يحق للدين التدخل في شؤون العلم أو التسرب إلى المدرسة. الاحترامُ المتبادل بينهما ضرورةٌ اجتماعية جوهريّة يلتزم بها الجميع (وإن اعتبر بعض المفكرين، مثل دِريدا، أن الفكر الغربي أخطأ عندما رفض التدخل في الفكر الديني، وكأن هذا الفكر غير ناتج من الموروث الثقافي والحضاري. مما جعل نخباً عديدة من المفكرين في القرن العشرين يجهلون الفكر اللاهوتي وفلسفته ومكويناته، بسبب غلوهم ورفضهم لهذا الموروث)!.

هذا الفصل بين العلم والدين هو أساس البنية التحتية للمعرفة في الغرب. المدرسة الحكومية الفرنسية، على سبيل المثال، لا تعترف بأي دين كان، بما فيه المسيحية، منذ عام ١٩٠٥ الذي نُزِعت خلاله آخر صورة للمسيح من آخر جدار مدرسة! لا تقبل هذه المدرسة العلمانية الحقائق الموجودة في الكتب الدينية. تعتبرها «أحداثاً دينية» لا علاقة لها بالحقائق التاريخية والعلمية.

تتأسس العقلية العلمية في هذا الصرح الملائم، بشكلٍ طبيعيٍّ متين، يتعلّم الطالب فيه أن الفضاء المعرفيّ الإنساني ممتلئ، منذ الأزل، بالإجابات اللاعلمية عن كل الأسئلة، وأن حلول الإجابات العلمية محلّها صعبٌ جدّاً دوماً. مهمة العلم الكبرى هي تعليم منهجية القطيعة المعرفيّة معها، أي تعليم أنبل وأقدس الكلمات: «لا»، لغة العقل!. تاريخ العلم ليس أكثر من سلسلة لاءاتٍ لا غير!. تُعلِّم المدرسة الطالب كيف عليه أن يبرهن

صحّة «لائِهِ» من ناحية، وأن يخترع «نَعَماً» بديلاً من ناحية أخرى. تُعلِّمهُ أن كلَّ من صنعوا التاريخ من عظماء وعلماء وأنبياء لم يقولوا أكثر من «لا»، فيما العبد والعاهرة والسفّاح لا يردِّدون غير «نعم»!.

تُعلِّمه منهجية التساؤل الحر والنقد الدائم والرفض، كيف يحوّل دماغه إلى سياجٍ (أو «لجنة رقابة») يمنع تسلّلَ الأفكار اللاعلمية. مبدأها الرئيس في ذلك: كل ما يصلك من معلومات وأطروحات وتأكيدات هو افتراضيٌّ وغير صحيح ما لم يبرهن علمياً. تُعلِّمه ضرورة البرهان وطرائق صنعه!. هذه هي الأسس الجوهرية للبناء التحتي للتعليم في الغرب.

مدرستنا العربية تعتبر كل ما في الكتب الدينية حقائق علمية. أيُّ استنتاجٍ علميٍّ مخالفٌ لها مرفوضٌ بالضرورة. يتحول العلم فيها إلى مُطَبِّلٍ للدين، مُلزَم بأن يقبل كل مسلماته. العلم (كما تقدمه مدرستنا) موجودٌ في الكتب السماوية، وفقهاؤنا علماء رسميون، يتحدّثون كلّ يوم باسم العلم في الإذاعة والتلفزيون والمدرسة!.

تنشأ وتنمو عقلية الطالب في هذه البيئة بطريقةٍ لاعلمية: تفسِّرُ الأحداث بشكل غيبيّ. يمكنها بسهولة (وبِتلذّذٍ أيضاً!) أن تقبل كل ما يخالف العقلية العلمية من معجزات وخرافات، لأن الدماغ خالٍ من أيّ سياجٍ رقابيّ يمنع تسلّلها إليه. هو بابٌ مفتوح على مصراعيه لِملاحم «اللاأشياء الصغيرة»، حسب تعبير شكسبير. يتعلم الطالب في هذه البيئة أن يخضع، أن يقبل كل شيء دون

أدنى تمحيص أو شك، أن لا يقول غير لغة الخروف: «نعم». نموذجهُ في الحياة ذلك الإنسانُ الذي، كما قال الفرزدق:

مـا قـال «لا» قـطُّ إلا فـي تـشـهُّـدِهِ
لـولا الـتـشـهُّـدُ كـانـت لاؤهُ «نـعـمُ».

يتعلّم التلميذ في واقعنا العربي ثقافة «الثوابت»: العلم فيه يتحرّك في ظلِّ الدين، اللغة مجمّدةٌ من أجل الدين (في حين أحدث الإنكليز والفرنسيون واليونانيون والإسرائيليون، على سبيل المثال، ثورات وإصلاحات متتالية في لغاتهم، لأن الأمة التي لا تطوّر لغتها في ضوء حاجة العصر، تظلُّ متخلفةً أبداً)... فيما يحتاج هذا التلميذ إلى أن يتعلّم ثقافة «القطيعة»: كيف يتلو في كل لحظة ما تيسّر من سورة «القطيعة»، كيف يمارس يومياً قسطاً بسيطاً من القطيعة مع البارحة، مع ثقافة البارحة، مع مسلّمات البارحة، مع لغة البارحة.

يتعلم الطالب في المدرسة العربية كيف يتلقّن، كيف يسلِّم بالواقع ويكرّره، كيف يقبلُ رؤيةً ما للعالم كما هي. يتعلّم، باختصارٍ شديد، كيف يلغي الإرادة والعقل، ويعيش حياة الاستهلاك والتقوقع. فيما يلزم على المدرسة أن تُعلِّمه كيف يُكوّن رؤيته الخاصة للحياة دون أدنى فرضية مسبقة لا تقبل النقد والجدل والرفض، كيف يُفجّر إرادته وعقله وملكاته دون حدود، كيف يبني عالماً على أنقاض آخر!.

ذلك وحده ما يسمح للإنسان بأن لا يكتفي بتعلم نظريات صنعها الغير، بل يتعلّم في الجوهر كيف يصنَعُ النظريات، كيف يخلق المعارف، كيف يكسِّر القيود المعرفية، كيف «يصطاد السمك ويطبخه». باختصارٍ شديد، يتعلّم كيف يتعلّم!. كم هي شاسعة تلك المسافة التي تفصل بين نوعين من التعليم: أحدهما يعلمك كيف لا تدري أنك لا تدري، والآخر يعلِّمك كيف تتعلّم أن تتعلّم!.

(٣) نحو أسسٍ جديدة للبنية التحتية للتعليم العربي

لعل مدرستنا العربية صارت اليوم بِحاجةٍ مُخِّيّة عاجلة إلى إعادة بناء قاعدتها المعرفيّة التحتية على أساس الفصل بين «العلوم الشريفة» و«العلوم الصنعيّة». سأضرب مثلاً بسيطاً على ذلك من ردِّ «قارئ محايد» على تعليق أحد قرّاء مقالي في موقع صحيفة «القدس العربي» على أنترنت: «نظرية داروين: فرضيةٌ غبراء أم حقيقة ساطعة؟».

قال المعلّق: (حتى نفِي العلمَ حقه يجب الرجوع بكل هدوء وسكينة إلى مرجع المسلمين الأوحد وهو بدون نزاع القرآن الكريم كتاب الله وبرهانه في ميادين المعرفة الإنسانية. وأنا على يقين أن من يقرأ: «إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج...» سيعرف كل شيء). ردّ عليه «قارئ محايد» أتفّقُ معه في الجوهر، قائلاً: (القرآن الكريم الذي نحبه جميعاً ليس كتاب بيولوجيا. لماذا تحشره في قضايا ليست من اختصاصه؟ هذا

الخلط بين الدين والعلم هو مشكلتنا الكبرى وسبب تخلفنا. الإنسان يعرف، من قَبْل القرآن بآلاف السنين، أن الطفل يأتي من نطفة وجنين (بعد مجامعة بين رجل وامرأة). لماذا نحمّل هذه العبارة أكبر من طاقتها ونطلب منها أن تكون درساً في البيولوجيا؟).

لعلّ في هذا الرد أحد الأسس الجوهرية لبناءٍ تحتيٍّ جديد تحتاج إليه مدرستُنا، لأن إقحام «العلوم الشريفة» في مجالات «العلوم الصنعيّة» يسيء للأولى ويمنع الثانية من النشوء والتطور!.

أختتم فصلي بلفت نظر القارئ إلى تجربة اليابان التي أدركت في القرن التاسع عشر أنه كي تلحق بالغرب يلزمها استلهام تجربة تعليمهِ في بنائها الفوقي والتحتي معاً. ترجمَتْ كل مراجعه التعليمية، وأعطت لِبناء العقلية العلمية في ميزانيتها واهتماماتها نصيباً رئيساً. كانت قبل ذلك أكثر تخلفاً من مصر، لتصل اليوم إلى ذروة الحضارة الإنسانية وأعلى درجات التنمية البشرية، رغم أنها لا تمتلك أي موارد طبيعية إطلاقاً. فيما قبعتْ مصر العظمى في الحضيض!.

ألا نحتاج نحن أيضاً إلى الاستفادة من تجربة اليابان؟ أليس من حقّنا أن تعود إلينا بضاعة ابن رشدنا الذي استوردها الغرب منا ليبني حضارته؟.

سماؤهم وسماؤنا

(١)

سماؤنا سقفٌ هائلٌ أزرق مرفوعٌ فوق كوكب الأرض («والسماء رفعناها بأيدٍ»، «وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً»، يقول القرآن الكريم).

سماؤهم ليست كذلك: هي كلُّ النجوم والكواكب المتناثرة التي تحيطك، حيثما تكون، من فوقك وتحتك، على يسارك ويمينك... جزء من السماء يعلوك، والجزء الآخر أسفلك لا يشاهده إلا من كان في النصف الآخر المواجه لك من الكرة الأرضية.

يُعلّمون طلابَهم بكل بساطة أن «الأرض تقع في السماء» عندما تكون أنت في المريخ أو القمر، مثلما يقع المريخ أو القمر في السماء عندما تشاهدهما وأنت في الأرض.

سماواتنا سبع، وسماؤهم واحدة: هي كلُّ الكون بما فيه كوكبنا الضئيل الضائع، الأرض.

سماؤهم ليست زرقاء أيضاً: يتعلّمون في مدارسهم أن اللون الأزرق الذي يحيط بالأرض ينتج من مرور أشعة الشمس في غلافها الجوي الذي لا يتجاوز سمكه عدداً صغيراً من الكيلومترات. بعد ذلك الغلاف، يختفي هذا اللون الأزرق تماماً.

(٢)

سماؤهم تعجُّ بتلسكوبات وسفنٍ ومحطات ومختبرات فضائية، بِروبوتات (رجال آليّة) تحوم في قفار الكواكب وجبالها. وسماؤنا تعجُّ بالشهب التي ترميها الملائكة على الجن عندما «يسترقون السمع» للملائكة، كما يقول القرآن الكريم. سماؤنا حربٌ تلصصيّة دائمة بين الملائكة والجن!.

لِعبور سمائهم يحتاجون إلى قوانين الفيزياء والرياضيات التي يدرسونها في المدارس والجامعات. يحتاجون إلى مختبرات ودراسات وفرقٍ من آلاف العلماء والباحثين، لأجهزةٍ إلكترونية أكثر فأكثر تعقيداً ودقّة.

يعبرون سماءهم بـــ«بطء» مذهل: السفينة الفضائية التي حطّتْ بالروبوت «كيروزيتي» ذات صيف قريب في المريخ احتاجت إلى ثمانية أشهر لتعبر مسافة تزيد على ٥٥ مليون كيلومتر تفصل الأرض عن المريخ.

أما نحن فنعبر سماءنا دوماً من الطرف إلى الطرف بلمحة بصر، ولا نحتاج لعبورها إلى شيءٍ آخر غير أجنحة الجن والملائكة، أو الحصان المجنّح «بُراق».

سماؤنا لا تعترف إلا بقوانين فيزياء الجن والعفاريت: عبر عفريت النبي سليمان السماء حاملاً قصر ملكة سبأ من مملكتها في جنوب جزيرة العرب نحو القدس «قبل أن يرتد طرْف» الملك سليمان، كما يقول القرآن الكريم[1]. أي في أقل من ثانية. أُسْرِي بأنبيائنا من الأرض إلى «السماء السابعة» في أقل من لمحة بصر.

لمعرفة سمائنا لا نحتاج إلى عالِم أو باحث. لدينا ألوفٌ مؤلّفة (تفوق عدد كل علمائهم وباحثيهم) من الفقهاء يشرحون لنا ليل نهار خرائط جنّتها وجهنمها ومنطقة «الأعراف» التي تفصلهما، أصناف نعيمها وعذاباتها، عدد حوريّاتها العذراوات اللواتي ينتظرننا كل ليلة؛ يذكرون لنا بالاسم سكّان سماواتها السبع، سماءً بعد سماء، من أنبياء ورُسُل وحَسُنَ أولئك رفيقاً.

(٣)

دراسة السماء وتصوير كلّ مجرّاتها وكواكبها وفحص كل صغيرة وكبيرة فيها تقع ضمن «استراتيجياتهم الوطنية».

يزداد عدد تلسكوباتهم العملاقة التي ترصد كلّ حركة وسكنة في أطراف هذا الكون، بما فيها المجرة UDFj-39546284،

شيخة المجرات، التي صوّرها تلسكوب هوبل في أيار/ مايو ٢٠٠٩: أبعد المجرات وأقدمها (عمرها ١٣,٢ مليار عام)، تقع في أطراف هذا الكون الذي لا يتوقف عن التمدد منذ «البيغ بونغ» (الانفجار الكوني الكبير) قبل ١٣,٧ مليار عام.

يتسلمون من سمائهم كل يوم أشعةَ أضواء عجوزة عمرها مليارات السنين، وسيلاً من الصور والفيديوهات الآتية من أطراف الكون، وعدداً زاخراً من التحليلات المخبرية التي تقوم بها روبوتاتهم في أغوار هذا الكوكب أو ذاك.

الروبوت «كيروزيتي» مثلاً، الذي وصل المريخ هذا الصيف مدجَّجاً بأحدث المختبرات الإلكترونية، يحفرُ ليل نهار في أرجاء صخور أصقاع وبقاع المريخ، ينتزعُ عيّنات من حجارها وأديمها، يُفتّتُها بأجهزةٍ إلكترونية تُفكّكها إلى عناصر أوليّة، يبعث حول كل ذلك يوميّاً مئات الصور والأفلام والتقارير التي يتفرّغُ لِتحليلها اليوميّ فريقٌ علميٌّ من ٦٠٠ باحث في أميركا وأوروبا.

يدرسونها معاً ويُوجّهون في ضوء اجتماعاتهم اليومية برنامج حركة الروبوت وتنقلاته الجغرافية في أرجاء المريخ في اليوم التالي.

هدف مُهمّتهم: دراسةُ المريخ «حِتّة حِتّة»، «زنقة زنقة» حسب تعبير القذافي، لكشف النقاب عمّا حدث فيه قبل ٤,٢ مليارات عام، وللتأكد من احتمالات تشكّل الحياة فيه آنذاك.

أما نحن فلا تقع السماء أو المريخ أو الغلاف الجوّي في استراتيجياتنا الوطنية.

ليس ضمن أهداف أحد مجتمعاتنا صناعة طائرة صغيرة أو مروحة هيليوكبتر، وليس لمجتمعاتنا أساساً «استراتيجياتٌ وطنيّةٌ» ما تصبو إلى تحقيقها، غير البقاء على «قيد» الحياة حتّى «يطمَّ اللهُ الأرضَ ومن عليها».

(٤)

كانت سماؤهم تشبه سماءنا تماماً قبل غاليليو في بداية القرن السابع عشر.

كان، رحمه الله، أوّلَ من نسف علميّاً سماءَ ما قبل العِلم الحديث بعد ما صوّب باتجاهها ناظوره الشهير. ثمّ تواصلت بعده الثورات والاكتشافات العلمية لِتدمِّر تلك السماء تماماً، رغم مقاومة الظلاميين العنيفة طوال قرون.

قبل حوالى عشرة قرون كان لنا أديبٌ عبقريّ، اسمه أبو العلاء المعرّي، نسف أدبيّاً، بدهاءٍ ساخرٍ عميق، خريطة سماء فقهائنا، في كتابٍ عبقريٍّ هجرناه أو عاديناه: «رسالة الغفران»[٢]، [٣] مصحوبٍ برواية خالدة: «رواية الغفران».

في لقاء تلفزيونيٍّ معي فلتَتْ منّي هذه العبارة:

«أعطني تعليماً يجعلني أستطيع أن أُدرِّس الطالبَ في المدرسة

الإعدادية مسرحيةَ بريشت الرائعة: «حياة غاليليو»، وأدرِّسَه في المدرسة الثانوية: «رواية الغفران»، أعطِكَ طالباً مؤهلاً بجدارة لمواكبة عصر الحداثة!».

أي مؤهَّلاً للحياة تحت سماء العِلم.

سماؤهم.

وسماؤنا أيضاً كما أحلم أن تصير.

الهوامش

(١) راجع فصل: هدهد سليمان عظم في حنجرة التعليم.

(٢) راجع فصل: الجنّة والجحيم في ملكوت «رسالة الغفران».

(٣) راجع فصل: العلاقة بين التخييل والتأمل الفلسفي: «رسالة الغفران» نموذجاً.

المحور الرابع: اللغة العربية والإنترنت

اللغة العربية في الزمن الرقميّ:
ستُّ فجائع وثلاثةُ مقترحات!

(١) مدخل:
نحو جَدَلٍ حول مأساة واقع اللغة العربية في الزمن الرقميّ!

يستخدم العرب، بأعداد أكثر فأكثر لحسن الحظ، البريدَ الإلكتروني وتصفّحَ مواقع وصُحُف الإنترنت، وتنزيلَ المواد الإلكترونية من مقالاتٍ وأغان إلخ. إذا اعتبر القارئُ هذا الحضورَ العربيَّ انتماءً للعصر الرقميّ، فمن الأفضل ألّا يواصل قراءة هذا الفصل، لأن هذا القارئ الأريب أشبه تماماً بمن يُعرِّف الإنسان بـ«كائنٍ حيّ يتنفّس ويأكل ويشرب فقط»!.

هدف هذا الفصل: ١) رسم الخارطة المأساوية لخواء حضور اللغة العربية في الزمن الرقمي، ٢) لفت نظر الجميع إلى تأخّرِها المرعب في البدءِ ببناءِ قاعدةٍ تحتيّة لحضورها على الإنترنت، في حين أكملَ معظمُ الدول بناء هذه القاعدة التي

أخذَتْ عدّة عقود، قبل أن تَبدأ عصرَ الرقمنةِ ومشاريعَه المعرفيّة العملاقة، ٣) إثـارة جـدلٍ عربيٍّ واسـع حـول هـذا التأخـر، ٤) ضمّ أكبر مجموعة من عشّاق اللغة العربية من كتّاب وباحثين ومـدرّسـين وطـلّاب، وأصـحـاب قـرار أيـضـاً (أيـاً كـان ضـعـف إدراكهـم للأهمية القصوى لإنقاذ اللغة العربية، أو رغبتهـم الحقيقية في دخولها غرفة الإنعاش) للعمل على تحقيق أهداف محدّدةٍ متكاملة لإنقاذِ لغتنا التي نعشقها أيّما عشق! .

قبل سرد الفجائع الستّ التي ستوضح للقارئ أن العربية في العصر الرقميّ عملاقٌ من قش، يلزمني إعطاء تعريفين! .

(٢) النص الورقيّ والنص الرقميّ: تعريفان لا بدّ منهما، قبل سرد الفجائع!

إذا كـان تعـريـف الـنصّ الـورقـي سـهـلاً («هـو نـصٌّ مـكـتـوبٌ أو مطبوعٌ على عدد من الأوراق. . .») فتعريف النص الرقمي أصعبُ وأوسعُ بكثير: هو نصٌّ يصلُ من شبكة كمبيوترات (تتكون من كمبيوتر واحدٍ على الأقل، أو تضمّ كلَّ كمبيوترات الكون إذا لزم الأمر) ويُقرأُ على شاشة. غير أن له خصوصيات عدّة، شديدة الأهمية والثراء، لا توجد في النصّ الورقيّ، سأسرد أبرزها الآن:

أ) هو نصٌّ فائق، Hypertext: تتعانق فيه كل الوسائط معاً، من صوتٍ وصورةٍ وفيديو، في وعاءٍ تفاعليٍّ جميلِ الإخراج، متعدِّدِ الأبعاد، عبقريِّ المحتوى! لذلك هو أرقى وأثرى

الوسائط الثقافية التي عرفها الإنسان منذ فجر التاريخ! . (لعلّ عبارة: «نصّ تشعبّي»، التي تُستخدم غالباً لترجمة Hypertext ليست مناسبة جدّاً!).

ب) هو نصٌّ مفتوح (وليس مغلقاً مثل النص الورقيّ الذي يبدأ بالصفحة الأولى وينتهي بالأخيرة) بفضل «صلات النصوص الفائقة»، Hypertex Links، المشار لها عادةً بخطوط أسفل أية كلمة، والتي تسمح (عند نقرِها) بالانتقال إلى موضع آخر في النص نفسه أو إلى أيِّ نصٍّ آخر في أي كمبيوتر في أطراف الكرة الأرضية. تستطيع هذه الصلات أيضاً الانتقالَ الآلي إلى قواميس لشرح مدلولات كلمات النص، أو تقديمَ أية معلومات عنها.

ج) هو نصٌّ هوائي، يمكن الوصول إليه من أي جهاز (كمبيوتر، تلفون نقال، جهاز ألعاب الكترونية، جهاز القارئ الإلكتروني الجديد) ومن أي مكان: المكتب، الشارع، الشاطئ، سرير النوم، المرحاض... ثمة استعارة تقليدية أنيقة تُصوِّر هذه الخصوصية بشكلٍ صائب: Cloud Computing، أو «الحوسبة السحابيّة» إذا جاز القول!.

د) هو نصٌّ ذَرِّيُّ الفهرسة (نُفهرس جميع كلماته، وليس فصوله فقط مثل الكتاب الورقيّ) بفضل ما تسمى: «موتورات البحث» الكونية (مثل غوغل الذي يحوي حالياً أكثر من ٢٥ مليار نص، ومليار صورة، موزعة على نصف مليون كمبيوتر، في ٣٢ موقعاً جغرافياً أميناً، كثيرٌ منها تتخندقُ قرب المفاعلات

النووية)... بفضلها يمكن الوصول إلى النص الرقميّ بطريقة عبقرية لم تخطر ببال قبل سنوات قلائل: يكفي أن تُقدَّمَ لموتورات البحث كلمةٌ أو بضع كلمات من النصِّ أو من عنوانه، أو كلمات قليلة تتعلّق به، كي تضع هذه الموتورات النصَّ أمام القارئ (مثل خاتم سليمان السحريّ) وتعرضهُ على الشاشة في بضع ثوان! ليس ذلك فحسب، بل تقدِّم رهن إشارة القارئ في الوقت نفسه أيضاً، جميع النصوص والوثائق والكتب الموجودة على الإنترنت التي تحتوي على تلك الكلمات المقدمة لموتورات البحث!... ألا تبدو الحقيقة هنا أشدَّ إعجازاً من الخيال؟.

هـ) هو نصٌّ سهلُ التحديث (يتطلب ذلك ثواني فقط أحياناً، بعكس النص الورقيّ الذي يلزم إعادة طبعه!)، سهلُ النسخ والنقل والإرسال (يتمّ ذلك في هنيهات!)، سهلُ الحمل (لا وزن له أو أعباء لوجيستيكية!)، ليس له أية مضار بيئيّة مثل النصّ الورقيّ!، فضلاً عن أنه أرخص من النص الورقيّ بكثير لاختفاء الحاجة إلى الورق والحبر والمطابع ومكتبات التوزيع!.

(٣) الفجيعة الأولى: لغةٌ بلا بناءٍ تحتيٍّ معرفيّ!

توالت على العالم منذ بدء التسعينيات من القرن المنصرم، لاسيما الغرب والشرق الأقصى، مشاريع عملاقة تدعمها الدول والجامعات والمؤسسات العامة، لِرقمنة البناء التحتي للمعارف والحياة العمليّة من نصوص علمية وتقنية وثقافية متنوعة،

ودراسات ومحاضرات ودروس للطلاب من المدرسة الابتدائية حتى الجامعة (أقود شخصيّاً مشروعاً قوميّاً فرنسيّاً تساهم فيه بعض الجامعات ومراكز الأبحاث، يرتبط برقمنة بعض مواد «الحاسوبيات اللغوية»)، وقواميس وموسوعات وخرائط جغرافية حيّة ترسلها الأقمار الصناعية مباشرة. لكن العالم العربي يعيش في كوكبٍ آخر بعيدٍ كليّةً عن منملة هذه النشاطات والمشاريع شديدة الجوهرية!.

النتيجة اليوم تفقأ العين: بوابات إنترنت للبناء التحتي المعرفي لكل تلك الدول (بوابات المشاريع القومية الرسمية والمكتبات الرقمية المجانية المتخصصة في شتى المجالات، مواقع المؤسسات التربوية العامة أو الخاصة، الجامعات ومراكز الأبحاث، الأساتذة أو الطلاب...) زاخرةٌ بملايين الصفحات الرقمية التي تشكّلُ الصرح الجديد لمجتمعات المعارف!.

يجد القارئ اليوم في مواقع إنترنت تلك الدول ملايين النصوص والكتب الرقمية العلمية والثقافية!. جميعها مدجّجة بـ«صلات النصوص الفائقة» التي تسمح بالانتقال اللحظيّ المباشر إلى جميع المراجع الرقمية المذكورة في تلك النصوص والكتب الموجودة على الإنترنت. معظمها غنيّةٌ بكل الوسائط من صوت وفيديو وصور ذات ثلاثة أبعاد، مُترعةٌ بتمثلات التجارب المختبرية ونصوص المحاضرات بالصوت والصورة، متجدّدةٌ ومتطوّرةٌ في كل لحظة!.

ثمّة ملايين المحاضرات والمقالات العلمية والتمارين المحلولة والتجارب العلمية والدراسات والأبحاث المقدّمة بطرق تربوية تفاعلية ثريّة طازجة، في كل اللغات... إلا العربية!

ثمّة أيضاً مكوّنات جديدة لِلبناء التحتي للمعارف الرقمية لم توجد قبل الإنترنت، صارت أحد أهم مناهل المعرفة على الصعيد الكوني: الموسوعات التي يجري تطويرُها ورفدُها يومياً، بشكل تفاعليٍّ تعاضديٍّ كونيّ، مما جعل الموسوعات الورقية تبدو بالمقارنة بها شديدةَ الفقر والتخلف!.

يلزم الإشارة هنا إلى موسوعة «ويكيبيديا» على سبيل المثال، التي يمكن لأي إنسان متطوِّع إغناؤها بأية لغة، والتي أضحت مرجع الملايين من البشر يوميّاً!. يصعب هنا عدم التنويه إلى أن معظم طوبات هذه الموسوعة، لاسيما في أغلب المجالات العلمية والثقافية، تخلو من الترجمة إلى العربية، في حين تُترجم غالباً إلى لغاتٍ أقل تداولاً من العربية بكثير!. يكفي فتح هذه الموسوعة على الإنترنت وتقديم أي كلمة، بلغة غير العربية، لموتور بحث الموسوعة، لرؤية النص الموسوعيّ المتعلق بهذه الكلمة مترجماً لِعديد من اللغات الأكثر أو الأقل تداولاً على السواء، إلا العربية! (الكارثة أصمُّ وأطمّ: في أحيان كثيرة لا يوجد حتّى رديفٌ عربيٌّ لتلك الكلمة!). عدد المواضيع المكتوبة في «ويكيبيديا» باللغة البولندية، على سبيل المثال، يساوي عشرة أضعاف ما هو مكتوبٌ بالعربية تقريباً!.

باختصار شديد: في كل المجالات العلمية والتقنية، وفي معظم الحقول الثقافية والعمليّة، تمتلك اللغات (عدا العربية) اليوم قاعدةً تحتيةً معرفيّةً رقميةً متعدّدةَ الوسائط (أقصت النصّ الورقي وحلّت محله تماماً، ليبدو، في هذه المجالات على الأقل، وكأنه من مخلفات العصر الحجري!). صناعة المعارف فيها دخلت سباقاً يوميّاً! أما القاعدة التحتية المعرفية بالعربية فهي غائبةٌ كلياً: لا توجد أيّة مشاريع عربية تستحق حتى الذكر، في هذا الجانب!.

لعلّ اللغة العربية تحتضرُ اليوم بهدوء جراء عدم مواكبتها الزمن الرقميّ: لا يجد فيها الطالب أو المدرّس ضالّته! لذلك، على سبيل المثال، أضحت المواد العلمية تُدرَّسُ باللغات الأجنبية في كل المدارس الخاصة في العالم العربي، وفي كثير من المدارس الحكومية أيضاً. فضلاً عن غياب العربية شبه الكليّ في تدريس المواد العلمية والتقنية والطبية في جميع الجامعات العربية تقريباً، بسبب عدم استخدامها لكتابة المعارف الحديثة!. ربما لذلك يُقال اليوم أكثر فأكثر إنّها «لغةٌ لا تصلح للحداثة، بلا مصطلحات»!.

(٤) الفجيعة الثانية: لغةٌ تعاني من أنيميا الترجمة!

من المعروف أن حملة الترجمة الواسعة من مختلف اللغات الإغريقية والسريانية والفارسية والسنسكريتية والحبشية، في العصر العباسي، للكتب الأجنبية في شتى المجالات من فلسفة

ومنطق وطب وفلك ورياضيات وأدب، أغنت العربية براوفد فكرية وكلمات ومصطلحات كثيرة، لتصبح بفضل ذلك لغة الحضارة الكونيّة في القرون الوسطى (مثل الإغريقية قبل الميلاد، والإنكليزية والفرنسية والإسبانية اليوم).

ومن المعروف أيضاً أن اليابان لم تتحوّل من دولة متخلفة في بدء القرن التاسع عشر إلى إحدى أكثر دول العالم تقدّماً اليوم، إلا بفضل حملة ترجمة واسعة لكل معارف الغرب وإنجازاته وسياسته التعليمية، انطلاقاً من أن ترجمة إبداعات الآخر الأكثر تطوراً، واستلهام نهجه، هو مفتاح اللحاق به!.

وفي العقود الأخيرة شنّت الصين أيضاً حملةً واسعةً شرسةً لترجمة المعارف الكونية، لاسيما الغربية، انطلاقاً من المبدأ نفسه. استخدمت في ذلك الوسائل الثقنية الحديثة، لاسيما الإنترنت. قدّمت عروضاً ومكآفات للمترجمين من متخصصين أو طلاب، داخل الصين أو خارجها. فتحت معاهد وأقساماً جامعية ونظّمتْ مسابقات عديدة للترجمة!.

ثمة اليوم (بفضل الحاسوب، وعلوم الكمبيوتر الجديدة، لاسيما علوم «الحاسوبيات اللغوية») طرائق آلية جديدة، تسمح للكمبيوتر بترجمة النص من دون مترجم، وبشكل فوريّ! البرمجيات التي أنتجتها هذه التطورات العلمية والتقنية تستطيع اليوم ترجمة كتاب، أو موقع إنترنت، بدقائق. ربما مازالت نتيجة ترجمتها غير دقيقة أو غير جيّدة أحياناً، لاسيما عند

ترجمة النصوص الأدبية واللغوية المعقدة، لكنها تساعد على الحصول على نصٍّ أوليٍّ خامٍ سريع جدّاً، يكفي تصحيحه وتحسينه يدوياً للحصول على الترجمة النهائية! . مازال استخدام هذه التقنية عربياً ضعيفاً جدّاً رغم إمكانية استثمارها بقوّة، لاسيما لِردمِ هوّة الترجمة العلمية والتقنيّة والثقافية! .

أنيميا الترجمة العربية صارخةٌ اليوم: كثير من عيون الكتب العالمية لم تر النور بعد بالعربية! معظم أمهات الكتب الحديثة التي تشكّل نبراس الحضارة المعاصرة غير معروفة بالعربية! يكفي لاستيعاب حجم الكارثة ملاحظة أن ما ترجمته إسرائيل في السنوات العشر التي تلت تأسيسها يفوق كل ما ترجمه العرب منذ بدء القرن التاسع عشر إلى اليوم! .

(٥) الفجيعة الثالثة: لغةٌ بلا مُدوّنة!

مدوّنةُ أية لغة، (Corpus)، هي مجموعةٌ هائلة (تعدُّ كلماتها بالمليارات) من عيّنات النصوص المكتوبة أو المنطوقة، الآتيةِ من قطاع متنوع عريض محايد من المصادر (الصحف والمجلات المكتوبة والمسموعة والمرئية، الكتب المتنوعة، النقاشات، التقارير، مواقع إنترنت. . .) والتي تعطي صورةً دقيقةً كاملةً عن اللغة في مختلف أشكالها واستعمالاتها اليومية والعلمية والعمليّة والأدبية، خلال مرحلةٍ زمنية معيّنة! .

تمتلك اللغات اليوم مدوّناتِها، المسماة أحياناً «بنوك اللغة». ثمة بوّابات على الإنترنت تسمح بالوصول إلى «قواعدها البيانية»

الضخمة والبحث المحدّد في طيّاتها، أو معالجتها أوتوماتيكياً بشكلٍ إجمالي! من كنوزها (التي يجري رفدها كل يوم) تُستخلَصُ القواميس والمعاجم المتخصصة في المجالات اللغوية والعلمية والتقنية والعملية. هي المختبر الذي تخرج منه الدراسات اللغوية المتنوعة لِبُنيَة اللغة وظواهرها وشتى دلالات كلماتها، لنواقصها واحتياجاتها المتجدّدة، لمعاجم تاريخ وأصول الكلمات وعلاقتها باللغات الأخرى (المعاجم الإيثومولوجية التي لا توجد حتى الآن في اللغة العربية)!.

المفارقة المثيرة والمؤلمة أن اللغة العربية التي كانت أول من أسس القواميس والمعاجم اللغوية (منذ الخليل بن أحمد الفراهيدي صاحب قاموس «العين»، وربما الأصمعي قبل ذلك)، والتي قامت في عصرها الذهبي بِدورٍ طليعيٍّ في تأسيسِ دراسات النحو والصرف العبقرية، وتصنيفِ المفردات وترتيب جذورها واشتقاقاتها، وتأليفِ كل المعاجم (بما فيها معاجم الجنّ والشياطين!)، والتي انفتحت بشكلٍ مبكّرٍ على لغات العالم منذ العصر العباسي وحملة ترجماته الزاخرة، لا تمتلك حتى الآن مدوّنتها اللغوية، أو أي معجم إيثومولوجي!.

(٦) الفجيعة الرابعة: لغةٌ بلا «مُتعرِّفٍ ضوئيٍّ لِلأحرف»!

المتعرِّف الضوئي لِلأحرف، Recogonizer Optical Character، OCR، (أو القارئ الضوئي الآلي) برنامجٌ قاعديٌّ ضروريٌّ تمتلكه كل لغة، يسمح بتحويل النص المصوّر بكاميرا

أو ماسح ضوئي (سكانير) إلى نصٍّ رقميّ يمكن فتحه بناشر إلكتروني (مثل «ورد»)، وأرشفته كملف على الكمبيوتر! . لا يوجد حتّى اليوم قارئٌ ضوئيٌّ آليٌّ عربيٌّ يستحق أن يحمل هذا الاسم! (بيعت في الأسواق العربية برامج غير جيدة لهذا الغرض، رمى بها بعض من اشتراها في سلّة المهملات، رغم سعرها الباهظ!).

يمثّلُ عدم تصميم برمجيةِ قارىءِ ضوئيٍّ آليٍّ لأحرف اللغة العربية حتى الآن عائقاً كبيراً يمنع دخولها عصر الرقمنة، لأنه وحده ما يسمح بتحويل صور صفحات الكتاب إلى نصوصٍ رقميّة! . من دونه يلزم من جديد إعادة طباعة كل ما كُتِب بالعربية على الكمبيوتر! . تستخدم اليوم كلُّ اللغات، التي تمتلكُ قارئاً ضوئياً آلياً، أجهزةً إلكترونية ذات «روبوتات» تستطيع بدقائق، وبشكل آليٍّ كامل، فتح الكتاب وتصويره صفحةً صفحة، وتمرير القارئ الضوئي الآلي عليه لِتحويلهِ إلى نصٍّ رقميّ، قبل أرشفتهِ وزجِّهِ في فضاء الأنترنت الكوني ليصل إلى أرجاء العالم في لمحة بصر! .

بعض هذه الأجهزة، الذي يكلّف الواحد منها اليوم حوالى ربع مليون دولار، تشتغل في هذه اللحظة التي أكتب فيها هذا الفصل، لرقمنة مئات الكتب يوميّاً، بلغاتٍ غير العربية! . في ٢٠٠٧ فقط رَقْمَنَ مشروع غوغل مليون كتاب بفضل هذه التكنولوجيا! .

انتقال النص من مرحلته الورقية إلى نصٍّ رقميٍّ يهيم في شبكة كمبيوترات إنترنت الكونية، يمثِّلُ عبوراً من مرحلة حضارية سحيقة إلى أخرى أرقى بكثير (أشبه، دون مبالغة، بالانتقال من عصر الشموع إلى عصر الكهرباء) لما يتمتع به النص الرقمي من مواصفات سردتُها أعلاه!

يمثّل غياب قارىءٍ ضوئيٍّ آليٍّ لِصُور النصوص بالعربية معضلةً قوميّة يصعب تصوّر إمكانية وجودها اليوم، في أي بلد، فضلاً عن عالم تمتلك بعض دولهِ ثروات وإمكانات ماديّة هائلة، كالعالم العربي!.

(٧) الفجيعة الخامسة: لغةٌ بدون تقنيات تصحيحٍ وموتورات بحثٍ ملائمة!

أتاحت ديموقراطية الإنترنت وسهولة النشر الإلكتروني الكتابةَ المباشرة والنشر السهل للجميع، وليس للنخبة فقط كما كان الحال قبل الإنترنت!. إذا كانت تلك نعمةً للشعوب التي حدثت فيها ثورات وتحديثات وإصلاحات في لغاتها، والتي صمَّمتْ برمجيات كمبيوترية لتصحيح نصوصها قبل وضعها على الإنترنت، فإنها نقمةٌ وبليّةٌ حقيقية في العالم العربي الذي لم تتطوّر لغته منذ قرون، والذي يكتظُّ بالأميين، والذي لا نبالغ إذا قلنا إن كثيراً من متخرجي مدارسهِ (وجامعاته أحياناً) أنصاف أميين أثناء الكتابة!.

الموضوع خطيرٌ في الحقيقة لأن صفحات الإنترنت بالعربية

(لاسيما منتديات الدردشة والحوارات، وصفحات الأخبار والتعليقات العامة على الأحداث اليومية والكتابات. . .) ملطّخةٌ بأدغال من الأخطاء اللغوية والإملائية التي لا تخطر ببال!. المذهل أن عدد بعض الكلمات المكتوبة بغلطات إملائية على الإنترنت قد يفوق يوماً عددَ الكلمات المكتوبة بدون أخطاء! مما ينذر بأنها ستحلُّ محلها، بحكم مبدأ سيادة الأغلبية الإحصائية، عند أية معالجة أوتوماتيكية للّغة العربية تمرُّ على كلِّ ما كتب بها على الإنترنت!. من يدري، قد تحلُّ محلها أيضاً في أعين القراء العرب، لا سيما قراء الأجيال القادمة، بحكم مبدأ «الانتقاء الطبيعي» الداروينى الشهير، لأن هذه الأخطاء هي الأكثر حضوراً ومرجعية!.

سأضرب مثلاً على ما يعني افتقار موتورات البحث، كغوغل، لمصحّح لغوي عربي: يكفي أن تُقدِّم لغوغل كلمةً مكتوبة خطأً: «يصوموون»، أو «مريظ»! لِتصلك آلاف من صفحات الإنترنت تحمل هذه الكلمة المكتوبة خطأً، بسبب عدم وجود مصحح لغويّ بالعربية مرفق بموتورات البحث! فيما لو تكتب الكلمة بخطإٍ إملائيٍّ بِلغة أخرى، مثل الفرنسية: «Mangeoons» فسيصحِّحها موتور غوغل أوتوماتيكياً لِتصبح: «Mangeons» قبل أن يعطيك صفحات الإنترنت التي تحوي هذه الكلمة المصحّحة!. موتورات البحث نفسها، كغوغل، ليست ملائمة للعربية، لأنها لا تأخذ خصوصيات تصريفاتها ومرادفاتها في الاعتبار أثناء البحث!.

المريع أن ملايين الصفحات العربية الموبوءة بأعدادٍ فلكيّة من الأخطاء الإملائية مؤرشفةٌ اليوم في شبكة إنترنت شأنها شأن غيرها. تشكّلُ جميعها، دون تمييز، ترسانة النصوص العربية على الشبكة الكونية!. ما أشبه هذه الترسانة أحياناً بشيخٍ عجوزٍ خائر القوى، تلتهمه الفيروسات!.

(٨) الفجيعة السادسة: لغةٌ لم تدخل عصر الرقمنة بعد!

دخلت كثيرٌ من الدّول في السنوات الأخيرة، بعد إكمالها بناء القواعد التحتيّة الرقمية (قارىءٍ ضوئيّ آليّ للأحرف، مدوّنة لغوية، ترجمة كثيفة يدويّة وآليّة، برامج تصحيح لغويّ وموتورات أبحاث ملائمة...) عصر مشاريع الرقمنة العملاقة. أذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: مشروع غوغل وبعض كبار المكتبات القوميّة في عام ٢٠٠٤ برقمنة ١٥ مليون كتاب، مشروع مايكروسوفت الموازي، مشروع المكتبة القومية الفرنسية برقمنة ٦ ملايين كتاب، مشروع دول الشمال الأوروبي.

اللغة العربية لا تفتقر بشكلٍ مفجع لنظائر هذه المشاريع فقط، بل لم تبدأ بعد بناء قاعدتها التحتية!. الأرقام العربية التي سأقولها الآن تشرح وحدها ضراوة المأساة: مجمع اللغة العربية في الجزائر الذي تدعمه الجامعة العربية بميزانية خاصة منذ ١٩٧٥، والمكلف بتأسيس «الذخيرة العربية»، رقمَنَ حتّى الآن بضع مئات فقط من الكتب العربية، بسبب غياب هذه البنية التحتية! تنوي مشاريع قُطْريّة عربية رقمنة عدد ضئيلٍ للغاية من

الكتب العربية، أشعر بالخجل من ذكره! . هذا كلّ ما في الوفاض العربي! .

لا شكّ أن ثمة مواقع عربية تستحقُّ كلَّ تشجيع وتطوير كـ«المسبار»، «الورّاق» «المصطفى»، «مكتبة الإسكندرية»، «المعرفة»، «صخر» وغيرها مما أجهله من المواقع المخلصة التي تبذل جهوداً متفانيةً لتعزيزِ حضور العربية وتفاعلها مع اللغات، ورقمنةِ المعارف والكتب فيها، لكنها ستظلُّ ضعيفة التأثير إذا لم يحتضنها مشروعٌ قوميٌّ جبّار، بأهداف عمليّة متكاملة محدّدة! .

(٩) ثلاثة مقترحات

في اتجاه هذا المشروع، أودُّ تقديم ثلاثة مقترحات مترابطة للمؤسسات الثقافية والتعليمية العربية، وللحكومات العربية ولِجامعة الدول العربية (وإن كان أملي باهتاً جدّاً في أن تلاقي آذاناً صاغية!):

(١) الاستفادة من التجربةِ الصينية في الترجمة، المستندة إلى تقنيات العصر الرقمي: فتحُ مسابقات ترجمة للجميع (مترجمين تقليديين، طلاباً ومتخصصين، كتّاب، معاهد وأقسام ترجمة)، وتقديمُ مكافآت تُعطَى حسب مقاييس تختارها لجانُ تحكيمٍ خبيرة، في ضوء خطّة ترجمة عربية لترجمة ما يعادل العشرة آلاف كتاب سنويّاً! . يمكن وضع هذه الكتب المترجمة في

بوّابات الإنترنت لتصل للجميع، دون الحاجة إلى طباعة معظمها بالضرورة!.

(٢) فتح باب مسابقات للمدرّسين الجامعيين داخل العالم العربي أو خارجه، تضع مقاييسها وتختار عروضها الناجحة لجان تحكيم متخصّصة، هدفُها بناء بوّابات دروسٍ رقمية عربية نموذجية على الإنترنت للطلاب العرب في مختلف المواد العلمية والتقنية، تستخدم تقنيات متعددة الوسائط حديثة!.

(٣) إكمال البناء التحتي للغة العربية على الإنترنت (قارئٌ ضوئيٌّ آليٌّ للأحرف، مدوّنةٌ للغة العربية، موتورات بحث وبرمجيات تصحيح ملائمة، تقنيات ترجمة آلية...) خلال ٣ سنوات!.

خاتمة

من المعروف أن هناك علاقةً فيزيولوجيةً عميقة بين التفكير واللغة. تجمُّدُ العربية (التي لم تعرف الإصلاحات الجذرية لمواكبة حاجة العصر، مثل سائر اللغات) هو المرساةُ التي تشدُّ سفينةَ العقل العربي وتبركُه منذ قرون!. تأخّرُها اليوم بالبدءِ ببناء قاعدتِها التحتيّة التي ستؤهّلها لخوض مشاريع الرقمنة الكبرى، يوسّعُ الهوَّة الشاسعة التي تفصل العرب عن سائر العالم المتقدّم!.

لعلّ استعارة «السلحفاة والأرنب» لم تعد اليوم مناسبةً لمقارنةِ

سرعةِ تطوُّرِ العالم العربي بالقياس إلى الغرب والشرق الأقصى اللذين صارا، بفضل مشاريع الرقمنة الكبرى، أشبه بأرنبٍ مُجنَّح! في حين أمست سلحفاتنا العربية العزيزة عرجاء، تلتهمها الفيروسات!.

ثمّة مع ذلك مقترحاتٌ عمليّة متكاملة قدّمها هذا الفصل، قد تساهم في تغييرِ شيءٍ ما، إذا وَجَدت من يلتفتُ إليها ويلتفُّ حولها ويناقشها ويطوّرها ويحوّلها إلى واقعٍ عملي!. لعلها بحق مفتاح مجتمع المعرفة، الذي لا تنميةَ أو تطوّرَ بِدونه!.

شكر

أشكر من الأعماق الأستاذ العزيز عدنان عيدان، صاحب المترجم الآلي: المسبار، والأستاذة إنعام بيوض، مديرة المعهد العالي العربي للترجمة في الجزائر، على سلسلة النقاشات معهما التي أفادتني كثيراً. أدين لهما بشدٍّ اهتمامي إلى كثير من القضايا التي تعرَّض لها هذا الفصل الذي ما كان لِتحليلاته ومقترحاته أن ترى النور أحياناً، لولا التفاعل والنقاش معهما!.

اللغةُ العربية في مهبِّ العولمة: مشروع إنهاض!

مقدّمة

إذا كانت الاكتشافات الجغرافية، التي سمحت للغرب بولوجِ القارتين الأميركيتين والانقضاض عليهما في عصر النهضة، إنجازاً للحضارة الغربية تناغمَ ومستواها الحضاري آنذاك، فإن العولمة، هي الأخرى، إنتاجٌ متميّزٌ لنفس هذه الحضارة، يتَّسقُ مع تطوّرها العلمي والتقني ويلبي احتياجاتها الكونية المعاصرة!.

غير أنها، على الأقل، تتميزُ بِخلقِها فضاءً معرفيّاً كونيّاً شاسعَ الثراء والإمكانات، مفتوحاً لجميع الشعوب، بإمكانه أن يكون مفتاح انطلاقٍ ونهضةٍ وازدهار لمن يجيد التفاعل معه!. فـ«النص الرقمي» (مقال، محاضرة بالصوت والصورة، برمجية كمبيوتر، كتاب، مكتبة هائلة...) الذي يعبر اليوم

القارات بلمحة البرق عبر شبكة إنترنت، ليُقرأ على أية شاشة في أي مكان في الكون، إنجازٌ حضاريٌّ عبقريٌّ مدهش يفوق كل إنجاز!. بإمكان أي إنسان اليوم مثلاً، في أية قرية ضائعة في الكون، أن يُنزل مجاناً على كمبيوتره برمجيات تشغيل لغةٍ «جافا» وكُتُب تعلّمِها، وأن يستخدمها وهو في قريته، مثل أحدث مؤسسة تكنولوجية في العالم، لصنع أعقد البرمجيات أو حلّ أصعب المعضلات العلمية!.

لا يختلف حظّ الثقافة العربية في فضاء العولمة المعرفي عن غيرها من الثقافات. فالتقدمُ التكنولوجي الذي ترتكزُ العولمة على صرحه قوّةٌ خلاّقةٌ خصبة بإمكانها إما أن تسمح للشعوب العربية (لو امتلكت مشروعاً حضارياً لتطوير لغتها وتعليمها في إطاره) بالنهوض السريع واستعادة مجدٍ أفل، وإما أن تهدّدها بالاحتضار السريع والتسوّل المهين في ضواحي الحضارة الإنسانية!.

العولمة، مثل أية بيئةٍ حيويّةٍ جديدة، تهَبُ البقاء والازدهار لمن يتكيف معها بشكل سريع خلاّق. فقد تمكّنَت الصين، التي ترجمت معارف الغرب العلمية والتقنية والثقافية في فترةٍ وجيزة واستلهمت تجاربه وعرفت كيف تكثف حضورها وإشعاعها المعرفي، أن تنمو وتتفوق وتتجاوز أهم دول الغرب أحياناً!. يكفي مثلاً ملاحظة أن اللغة الصينية، رغم صعوبتها، صارت اليوم بؤرة إقبالٍ شديد في معاهد التجارة العليا الفرنسية، وكليات الهندسة والجامعات. ووصل الإقبالُ على اكتشاف

الثقافة الصينية في فرنسا ذروته اليوم أيضاً! يلاحظُ ذلك، على سبيل المثال، من يتابعُ الندوات والبرامج الثقافية والكتب الفرنسية الحديثة حول كتاب سان تزو: «فن الحرب»، الذي ظهر في القرن السادس قبل الميلاد، والذي أمسى اليوم «كتابَ مخْدعٍ» كبار المثقفين والسياسيين الفرنسيين معاً! . أليس ذلك دليلاً على أن نهوضَ أية حضارة يعني نهوضَ لغتها وثقافتها بالضرورة، بغضِّ النظر عن موقع اللغة الإنكليزية في صالون الحضارات، وعن موقع الغرب في قيادة الأوركسترا الإنسانية منذ عصر النهضة؟ .

برهنت تجربة الصين وغيرها من الدول الناهضة الحديثة أن جدار العولمة ليس أصمّ أو مزاجيّاً مثل جدار الشاعر اليمني المعروف الذي قال:

سنظلُّ نحفرُ في الجدار/ إما فتحنا ثغرةً للنورِ / أو مُتنا على وجهِ الجدار!

فهو جدارٌ ينثال منه النور لمن يحفر فيه بعزمٍ وذكاء! لكن الموت في أحضانه الباردة قدَرٌ حتميٌّ لمن يتكاسَل ويتأخر عن ذلك، كما يبدو! لأن «الفناء للأبطأ» هو الوجه الآخر لمبدأ «البقاء للأنسب»، كما تمارسه «عدالة» العولمة التي لا ترحم! فهي لا تسمح لمن يتأخر عن مواجهة تحدياتها (كما هو حال واقعنا العربي اليوم) إلا بالانهيار والهرولة بسرعةٍ قصوى نحو الحضيض! .

ازمة تطوّر اللغة والفكر العربي، قبل عصر العولمة!

قبل الحديث عن تحديات عصر العولمة التي تواجه اللغة العربية (مثل غيرها من اللغات) يلزم التذكير بأن اللغة والتعليم العربي لم يَحُلاّ بعد تحديات مرحلة ما قبل العولمة التي تجاوزها الغرب والشرق الأقصى قبل عصر العولمة بِزمن.

فلم تعرف اللغة العربية، التي كانت لغة الحضارة الكونية في القرون الوسطى (مثل الإغريقية قبل الميلاد، ثمّ اللاتينية بعد ذلك، والإنكليزية اليوم)، مثلها مثل التعليم العربي، أي إصلاحات أو ثورات حقيقية تُحرِّرها من تشبثها العنيف بقيود الماضي، وتجعلها تواكب حاجة العصر!.

ظلّت جامدةً كما يروق لأمزجة بعض المتحجرين الذين يحاصرونها بخطوطٍ حمراء إذ لم تنضو في ترسيمات لغةِ القرون الأولى من الهجرة!. لذلك لم تعرف أي تحديثات في بنيتها أو تغيّرات في قواميسها تعكس تطوّرات علاقتها بالعصر. وازداد البون بين قواميسها ولغتها يوماً بعد يوم: اندثرت معظم كلمات قواميسها اليوم كتابةً ونُطقاً، وأصبحت معظم كلماتها واستخداماتها الجديدة غائبةً عن القواميس!. لم تعرف أي إصلاحات أو تسهيلات في كتابتها تواكب متطلبات الحداثة، شأن معظم اللغات. ولا تمتلك حتى اليوم أي قواميس «إيثيمولوجية» لأصول الكلمات وتاريخها، (لأن ذلك يعني أن لكلماتها تاريخاً وبدايات، مما لا يميل له بعض المتعصبين

لأزليتها المطلقة)، رغم أنها قامت في عصرها الذهبي بِدورٍ طليعيٍّ في تأسيسِ دراسات النحو والصرف العبقرية، وتصنيفِ المفردات وترتيب جذورها واشتقاقاتها، وتأليفِ المعاجم (بما فيها معاجم الجنّ والشياطين!)، ورغم أنها كانت أول من أسس القواميس والمعاجم اللغوية، منذ الخليل بن أحمد الفراهيدي صاحب قاموس «العين»، وربما الأصمعي قبل ذلك!.

إضافة إلى ما ذكر ـ يا للمأساة! ـ لا تمتلك اليوم ردائف لمعظم المصطلحات الحديثة، لتضحي، كما يُشارُ لها بالبنان، «لغةً لا تصلح للحداثة، بلا مصطلحات»!.

لعلّ اللغةَ العربية أفلست اليوم فعلاً جراء عدم مواكبتها للزمن الرقميّ: لا يجد فيها الطالب أو المدرّس ضالّته، وأصبحت المحاضرة أو الكتاب العلمي العربي على إنترنت أندر من دموع العنقاء! لذلك، على سبيل المثال، أضحت المواد العلمية تُدرَّسُ باللغات الأجنبية في كل المدارس الخاصة في العالم العربي، وفي كثير من المدارس الحكومية أيضاً. فضلاً عن غياب العربية شبه الكليّ في تدريس المواد العلمية والتقنية والطبية في جميع الجامعات العربية تقريباً، بسبب عدم استخدامها لكتابة المعارف الحديثة!.

لماذا لا يتحدّث الواعظون عن مأساة ضمورها وذبولها واضمحلالها، بدلاً من أن يكتفوا بالإسهاب عبر الفضائيات في شرح أنها لغةُ أسئلةِ مُنكِر ونكير، واللغة الوحيدة للتخاطب في

الجنّة (عولمةُ الدنيا، في الجانب الثقافي، تبدو هكذا أكثر تعدّديةً من عولمة الآخرة!)؟.. أين المسؤولون النافذون ليدعموا بشدّة مشاريع إنهاض العربية وإدماجها بحركة العصر؟.

والتعليم العربي اليوم، هو الآخر، وادٍ غير ذي زرع (ظلّ بناؤه التحتيّ ظلاميّاً كما هو، منذ عصر الانحطاط الذي ساد فيه فكرٌ سلفيٌّ أحاديّ الاتجاه في الثقافة العربية الإسلامية، أطاح التراث العقليّ لِلعصر الذهبي، لاسيما الفكر المعتزلي). لا يُعلّم الطالب النقد والرفض والتساؤل ومبادئ السببية والبرهنة. لا يُنمّي فيه العقلية العلمية الصارمة المنتِجة. بالعكس من ذلك، يُعلّمه بامتياز كيف لا يفكر، كيف يلغي الإرادة والعقل، ويعيش حياة الاستهلاك والتقوقع!.

أبرز ما يميزه من التعليم الحديث في الغرب والشرق الأقصى أنه لم يتطوّر منطلقاً من مبدأ الفصل بين «العلوم الشريفة» و«العلوم الصنعية» الذي صار اليوم، في صيغته الحديثة الراقية التي انطلقت من فكرة ابن رشد، المبدأَ الرئيس للتعليم الحديث في الغرب: لا يحق لِلعلم المسّ الإيديولوجي بالدين أو التدخّل في شؤون معابده، ولا يحقُّ للدين التدخل في شؤون العلم والمدرسة!.

تنشأ وتنمو عقلية الإنسان العربي في هذه البيئة (التي تعزله فكراً ولغةً عن الحياة والحداثة) بطريقةٍ لا تسمح له بمواكبة العصر، أو دخول عصر العولمة من أوسع أبوابه!. تسقطُ تحديات

العولمة على رأسه كجلمود صخرٍ حطّ من «خارج النص»، يراها عبئاً ثقيلاً مرعباً آتياً من زمنٍ مستقبليٍّ بعيد! لا يمتلك العقلية العلمية القادرة على مواجهتها أو حتى استيعابها. تزداد حيرته وعزلته وغيبوبته وشعوره بالضياع والعجز والفشل والاندحار! يبدو العالَمُ في عينيهِ أدغالاً مثخنةً بالمخاطر والوحوش. يهرب منه، بقلقٍ بسيكولوجيٍّ طبيعي، نحو كهفِ هويّةٍ غامضةِ الملامح، تنتمي لقرون ذهبيّةٍ سحيقة!.

النص الرقمي وتحديات عصر العولمة

لا شك في أن الحساسيات والمواقف تختلف إزاء العولمة من فردٍ لآخر. لكنها تتماثل جميعاً في دهشتها وذهولها أمام «النص الرقمي»، أعظم الإنجازات الحضارية المعاصرة!. إذ لهذا النص خصوصيات عدّة، شديدة الأهمية والثراء، لم تخطر ببال الإنسانية قبل ذلك، أذكر هنا بعضاً منها فقط:

أ) هو نصٌّ فائق: تتعانق فيه كل الوسائط معاً، من صوتٍ وصورةٍ وفيديو، في وعاءٍ تفاعليٍّ جميلِ الإخراج، متعدِّدِ الأبعاد! لذلك هو أرقى وأثرى الوسائط الثقافية التي عرفها الإنسان منذ فجر التاريخ!.

ب) هو نصٌّ مفتوح (وليس مغلقاً مثل النص الورقيّ الذي يبدأ بالصفحة الأولى وينتهي بالأخيرة) بفضل «صلات النصوص الفائقة» المشار إليها عادةً بخطوط أسفل أية كلمة، والتي تسمح

(عند نقرِها) بالانتقال إلى موضعٍ آخر في النص نفسه أو إلى أيِّ نصٍّ آخر في أي كمبيوتر في أطراف الكرة الأرضية.

ج) هو نصٌّ ذَرِّيُّ الفهرسة (تُفهرس جميع كلماته، وليس فصوله فقط مثل الكتاب الورقيّ) بفضل ما تسمى: «موتورات البحث» الكونية (مثل غوغل الذي يحوي حالياً أكثر من ٢٥ مليار نص، وملیار صورة، موزعة على نصف مليون كمبيوتر)... بفضلها يمكن الوصول إلى النص الرقميّ بطريقة سحرية مدهشة: يكفي أن تُقدَّمَ لموتورات البحث كلمةٌ نموذجية أو بضعةُ كلمات من النصِّ أو من عنوانه، أو كلمات قليلة تتعلّق به، كي تضع هذه الموتورات النصَّ أمام القارئ وتعرضهُ على الشاشة في بضع ثوان! ليس ذلك فحسب، بل تقدِّم في الوقت نفسه أيضاً، جميع النصوص والوثائق والكتب الموجودة على الإنترنت التي تحتوي على تلك الكلمات النموذجيّة!.

خلقت عولمةُ النص الرقمي ثلاثة تحديات رئيسة تتنافس معظم الثقافات والأمم اليوم في مواجهتها:

التحدي الأول: إنتاج النص الرقمي المعرفي

تحوّل إنتاج النص الرقمي المعرفي، منذ بدء عصر الإنترنت، إلى أحد أهم التحديات التي تواجه ثقافات العالم. توالت على الغرب والشرق الأقصى منذ بدء التسعينيات من القرن المنصرم مشاريع عملاقة تدعمها الدول والجامعات والمؤسسات العامة،

لِرقمنة البناء التحتي للمعارف والحياة العمليّة من نصوص علمية وتقنية وثقافية متنوعة، ودراسات ومحاضرات ودروس للطلاب من المدرسة الابتدائية حتى الجامعة وقواميس وموسوعات وخرائط جغرافية حيّة ترسلها الأقمار الصناعية مباشرة.

النتيجة اليوم تفقأ العين: بوابات إنترنت للبناء التحتي المعرفي لكل تلك الدول (بوابات المشاريع القومية الرسمية والمكتبات الرقمية المجانية المتخصصة في شتى المجالات، مواقع المؤسسات التربوية العامة أو الخاصة، الجامعات ومراكز الأبحاث، الأساتذة أو الطلاب...) زاخرةٌ بملايين الصفحات والكتب الرقمية العلمية والثقافية التي تشكّلُ الصرح الجديد لمجتمعات المعارف!. جميعها مدجّجة بـ«صلات النصوص الفائقة» التي تسمح بالانتقال اللحظيّ المباشر إلى جميع المراجع الرقمية المذكورة في تلك النصوص. معظمها غنيّةٌ بكل الوسائط من صوت وفيديو وصور ذات ثلاثة أبعاد، مُترعةٌ بتمثلات التجارب المختبرية ونصوص المحاضرات بالصوت والصورة، متجدّدةٌ ومتطوِّرةٌ في كل لحظة!.

ثمّة أيضاً مكوّنات جديدة لِلبناء التحتي للمعارف الرقمية الإنسانية لم توجد قبل إنترنت، صارت من أهم مناهل المعرفة على الصعيد الكوني: الموسوعات التي يجري تطويرُها ورفدُها يومياً، بشكل تفاعليٍّ تعاضديٍّ كونيّ من متطوعين كلٌ بلغته، لإضافة معارف جديدة أو لترجمة معارف الآخرين!. يلزم

الإشارة هنا إلى موسوعة «ويكيبيديا» على سبيل المثال، التي يمكن لأي إنسان متطوّعٍ إغناؤها بأية لغة، والتي أضحت مرجع الملايين من البشر يوميّاً!.

التحدي الثاني: تكثيف ترجمة المعارف باستخدام أساليب حديثة

أذكت العولمة الحاجة الملحّة الدائمة إلى ترجمة معارف اللغات الأخرى والحصول عليها بشكلٍ سريعٍ فوري!. ثمة اليوم (بفضل الحاسوب، وعلوم الكمبيوتر الجديدة، لاسيما علوم «الحاسوبيات اللغوية») طرائق آلية جديدة، تسمح للكمبيوتر بترجمة النص من دون مترجم، وبشكل فوريّ! البرمجيات التي أنتجتها هذه التطورات العلمية والتقنية تستطيع اليوم ترجمة كتاب، أو موقع إنترنت، بدقائق. ربما مازالت نتيجة ترجمتها غير دقيقة أو غير جيّدة أحياناً، لاسيما عند ترجمة النصوص الأدبية واللغوية المعقدة، لكنها تساعد على الحصول على نصٍّ أوليٍّ خامٍ سريع جدّاً، يكفي تصحيحه وتحسينه يدويّاً للحصول على الترجمة النهائية!.

التحدي الثالث: استكمال البناء التحتي الرقميّ للغة، وبدء مشاريع الرقمنة العملاقة

لعلّ أهم مكوّنات القاعدة التحتية الرقمية لأي لغة هي:

١) قارىء ضوئيٌّ آليٌّ للأحرف، ٢) مدوّنة لغوية، ٣) أدوات

ترجمة كثيفة يدويّة وآليّة، ٤) برامج تصحيح لغويّ وموتورات أبحاث ملائمة.

يُعد القارئ الضوئي الآلي برنامجاً قاعدياً ضرورياً لِكل لغة، يسمح بتحويل النص المصوّر بكاميرا أو ماسح ضوئي (سكانير) إلى نصٍّ رقميّ يمكن فتحه بناشر إلكتروني (مثل «ورد»)، وأرشفته كملف على الكمبيوتر!. يمثّل انتقال النص من مرحلته الورقية إلى نصٍّ رقميٍّ يهيم في شبكة كمبيوترات إنترنت الكونية، دون مبالغة، عبوراً من مرحلة حضارية سحيقة إلى أخرى أرقى بكثير!.

مدوّنةُ أية لغة مجموعةٌ هائلة (تعدُّ كلماتها بالمليارات) من عيّنات النصوص المكتوبة أو المنطوقة، الآتيةِ من قطاع متنوع عريض محايد من المصادر (الصحف والمجلات المكتوبة والمسموعة والمرئية، الكتب المتنوعة، النقاشات، التقارير، مواقع إنترنت...) والتي تعطي صورةً دقيقةً كاملةً عن اللغة في مختلف أشكالها واستعمالاتها اليومية والعلمية والعمليّة والأدبية، خلال مرحلةٍ زمنية معيّنة!.

تمتلك معظم اللغات اليوم مدوّناتها، المسماة أحياناً «بنوك اللغة». ثمة بوّابات على الإنترنت تسمح بالوصول لـ«قواعدها البيانية» الضخمة والبحث المحدّد في طيّاتها، أو معالجتها أوتوماتيكياً بشكلٍ إجمالي! تستخلص من كنوزها (التي يجري رفدها كل يوم) القواميس والمعاجم المتخصصة في المجالات

اللغوية والعلمية والتقنية والعملية. هي المختبر الذي تخرج منه الدراسات اللغوية المتنوعة لِبُنيَة اللغة وظواهرها وشتى دلالات كلماتها، لنواقصها واحتياجاتها المتجدّدة، لمعاجم تاريخ وأصول الكلمات وعلاقتها باللغات الأخرى (المعاجم الإيثيمولوجية)!.

دخلت كثيرٌ من الدّول في السنوات الأخيرة، بعد إكمالها بناء القواعد التحتيّة الرقمية الأربع، عصر مشاريع الرقمنة العملاقة: أذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: مشروع غوغل وبعض كبار المكتبات القوميّة في عام ٢٠٠٤ برقمنة ١٥ مليون كتاب، مشروع ميكروسوفت الموازي، مشروع المكتبة القومية الفرنسية برقمنة ٦ مليون كتاب، مشروع دول الشمال الأوروبي، مشروع المكتبة الرقمية لليونسكو.

حال العربية أمام هذه التحديات الثلاثة

تكمن مشكلة الإنسان العربي المعاصر في أنه لا يستطيع أن يستورد (كعادته في كلّ شيء) حلولاً للتغلب على هذه التحديات: لن يُترجِم له العالم الخارجي المعارفَ إلى العربية، ولن يقترح له برامجَ إصلاح لُغتِه، أو وسائلَ صنع المعارف بها!. فالعالم المتطوِّر قد يتمنى بإخلاصٍ فعلاً كلّ الخير للعرب لكنه لا يشعر بالأسى لِهشاشة تعليمهم وعجزه عن صنع المعارف! يعي جيّداً (لا يوجد من يعي ذلك أفضل منه!) أن في ذلك نهضتهم السريعة، وفقدان بعض مصالحه الحيوية التي

لا يميل كثيراً للتفريط بها! . ما يزيد الطينَ بلّةً والألمَ استفحالاً هو عدم وجود مشروعٍ عربيٍّ فاعل يعتبر هذه التحديات أولويةً قومية تُعدّ لها الخطط وتُكرّس لها الجهود الخلّاقة! .

التحدي الأول: لغةٌ بلا ذخيرة معرفيّة!

يعيش العالم العربي في كوكبٍ آخر بعيدٍ كليّةً عن منملة مشاريع بناء الذخائر الرقمية المعرفية التي أضحت مركز العلم والمعرفة في عالم اليوم! . في كل المجالات العلمية والتقنية، وفي معظم الحقول الثقافية والعمليّة، تمتلك اللغات (عدا العربية) اليوم قاعدةً تحتيةً معرفيّةً رقميةً متعدّدةَ الوسائط، دخلت صناعة المعارف فيها سباقاً يوميّاً! أما القاعدة التحتية المعرفية الرقميّة بالعربية فهي غائبةٌ كليّاً: لا توجد أيّة مشاريع عربية تستحق حتى الذكر، في هذا الجانب! .

يصعب هنا عدم التنويه إلى أن معظم طوبات موسوعة «ويكيبيديا» على سبيل المثال، لاسيما في أغلب المجالات العلمية والثقافية، تخلو من الترجمة إلى العربية، في حين تُترجم غالباً إلى لغاتٍ أقل تداولاً من العربية بكثير! . عدد المواضيع المكتوبة في «ويكيبيديا» باللغة البولندية، على سبيل المثال، يساوي عشرة أضعاف ما هو مكتوبٌ بالعربية تقريباً! .

التحدي الثاني: لغةٌ تعاني من أنيميا الترجمة!

أنيميا الترجمة إلى العربية صارخةٌ اليوم: كثير من عيون الكتب

العالمية لم تر النور بعد بالعربية! معظم أمهات الكتب الحديثة التي تشكّل نبراس الحضارة المعاصرة غير معروفة بالعربية التي كانت، في العصر العباسي، لغة الحضارة الكونية بفضل حملة الترجمة الواسعة إليها للكتب الأجنبية في شتى المجالات من فلسفة ومنطق وطب وفلك ورياضيات وأدب، من مختلف اللغات الإغريقية والسريانية والفارسية والسنسكريتية والحبشية إلخ. التي أغنتها بروافد فكرية وكلمات ومصطلحات كثيرة.

ومازال استخدام تقنية الترجمة الآلية عربياً ضعيفاً جدّاً رغم إمكانية استثمارها بقوّة، لاسيما لِردمِ هوّة الترجمة العلمية والتقنيّة والثقافية!.

التحدي الثالث: لغةٌ لم تكمل بعد بناءها التحتي الرقمي!

لا يوجد حتّى اليوم قارئ ضوئيٌّ آليٌّ لأحرف اللغة العربية يستحق أن يحمل هذا الاسم، رغم امتلاك اللغة الفارسية ذات الأحرف الشبيهة ذلك! يُمثّلُ عدم تصميم برمجيةِ قارئٍ ضوئيٍّ عربيٍّ حتى الآن عائقاً كبيراً يمنع دخولها عصر الرقمنة، لأنه وحده ما يسمح بتحويل صور صفحات الكتاب إلى نصوصٍ رقميّة! دونه يلزم من جديد إعادة طباعة كل ما كُتِب بالعربية على الكمبيوتر!. يمثّل هذا الغياب معضلةً قوميّة يصعب تصوّر إمكانية وجودها اليوم، في أي بلد، فضلاً عن عالمٍ تمتلك بعض دولهِ ثروات وإمكانات ماديّة هائلة، كالعالم العربي!.

كذلك وضع المدوّنة: لا تمتلك العربية حتى الآن مدوّنتها اللغوية، أو أي معجم إيثيمولوجي!. المفارقة المثيرة والمؤلمة أن اللغة العربية كانت أول من أسس القواميس والمعاجم ونواة المدوّنات اللغوية!.

وتفتقر العربية أيضاً إلى برمجيات كمبيوترية مناسبة لتصحيح نصوصها قبل وضعها على الإنترنت وللبحث عنها فيه. الموضوع خطيرٌ في الحقيقة لأن صفحات الإنترنت بالعربية (لاسيما منتديات الدردشة والحوارات، وصفحات الأخبار والتعليقات العامة على الأحداث اليومية والكتابات إلخ.) ملطّخةٌ بأدغال وأعداد فلكية من الأخطاء اللغوية والإملائية التي لا تخطر ببال، هي اليوم جزءٌ هامٌ فعّالٌ مؤثر من ترسانة العربية على الإنترنت وأدوات تكوينها الآلي!.

بديهي أن اللغة العربية لم تبدأ بعد نظائر مشاريع الرقمنة الكبرى، لأنها لم تستكمل بعد بناء قاعدتها التحتية!. يكفي معرفة أن عدد الكتب التي رقمنها مشروع غوغل، في عام ٢٠٠٧ فقط، مليون كتاب، في حين أن «مشروع الذخيرة العربية»، الذي تدعمه الجامعة العربية بميزانية خاصة منذ ١٩٧٥، لم يُرقمن حتى الآن إلا ٢٣٠ كتاباً!.

وسائل إنهاض اللغة العربية في الزمن الرقمي

أودُّ أن أضع هنا مقترحات مترابطة للمؤسسات الثقافية والتعليمية العربية، وللحكومات العربية ولِجامعة الدول العربية تشكل

مشروعاً لإنهاض اللغة العربية في العالم الرقمي. الهدف الاستراتيجي للمشروع تأسيسُ **قاعدة تحتية رقميّة ثلاثية الأبعاد للثقافة والتعليم العربي**، بطرائق حديثة فعّالة مُلهِمة، تضعُ في مركزها الطالبَ والأستاذَ والمثقفَ مُنتِجاً ومُستخدِماً للمعارف في الآن نفسه، تردمُ الهوّة التي فصلت العالم العربي عن العالم المتطوّر، وتسمحُ له بمجاراته ومنافسته لاحقاً!.

تتشكّل هذه القاعدة من ثلاث بوابات على إنترنت، متكاملةٍ ومتفاعلةٍ مع بعضها البعض، تمثّلُ الدعائم الأساسية الثلاث للمعرفة والتعليم العربي، وقاعدة نهضته المتينة:

أ) بوابة التعليم الرقمي العربي:

بناء بوابة إنترنت تحوي موارد تربوية تعليمية عربية متنوعة (دروس، تجارب وتمثّلات مختبرية حيّة متعدّدة الوسائط، تمارين محلولة، أمثلة إلخ.) في كل المجالات (علوم وتكنولوجيا، هندسة، اقتصاد وإدارة، صحة وطب، بيئة وموارد طبيعية...) بأنواع تربوية شتى (دروس مباشرة، دروس عن بُعد... موجّهة للطلاب أو للمدرسين أنفسهم بالعربية) معدّة بأرقى الوسائل التقنيّة الحديثة.

يلزم التأكيد أن هذه البوابة لن تصمّم لتكون بديلاً للمدرسين والجامعات، لكنها تسعى لأن تصبح مرجع الطالب والمدرس الأول، كتابهما الدائم، ووسيلتهما اليومية الجديدة للتطور السريع في عالم يتقدم بسرعةِ البرق!.

يلزم لإنشائها فتح باب مسابقات للمدرّسين الجامعيين داخل العالم العربي أو خارجه، تضع مقاييسها وتختار عروضها الناجحة لجان تحكيم متخصّصة، هدفُها بناء بوّابات دروس رقمية عربية نموذجية على الإنترنت للطلاب العرب في مختلف المواد العلمية والتقنية، تستخدم تقنيات متعددة الوسائط حديثة!.

ب) بوابة حملة الترجمة العربية الحديثة:

بناء بوابة غنيّة ومتطوّرة لكتب ودراسات ومعارف شتى (نصوص مجانية، معارف آتية من موسوعات مجانية مثل «ويكيبيديا»، كتبٌ فَقَدت حقوق النشر، كتب ذات حقوق نشر...) مترجمة من اللغات الأخرى إلى اللغة العربية، تستخدمُ التكنولوجيا الحديثة وتفجِّرُ طاقات المختصين والطلاب لردم الهوّة الهائلة في هذا المضمار.

لتحقيق هذا الهدف يلزم الاستفادة من التجربةِ الصينية في الترجمة، المستندةِ إلى تقنيات العصر الرقمي: فتحُ مسابقات ترجمة للجميع (مترجمين تقليديين، طلاب ومتخصصين، كتّاب، معاهد وأقسام ترجمة)، وتقديمُ مكافآت تُعطَى حسب مقاييس تختارها لجانُ تحكيم خبيرة، في ضوء خطّة ترجمة عربية لترجمة ما يعادل العشرة آلاف كتاب سنويّاً!... يمكن وضع هذه الكتب المترجمة في بوّابات الإنترنت لتصل إلى الجميع، دون الحاجة إلى طباعة معظمها بالضرورة!.

ج) بوابة البنية التحتية الرقمية للعربية ومكتبتها الرقمية الكبرى:

استكمال بناء قاعدة تحتية رقمية متينة وكاملة للغة العربية، وبناء مكتبتها الرقمية الكبرى عبر مشاريع ترقيم مجموعةٍ هائلةٍ (تعدُّ بالملايين) من كتبها ومطبوعاتها الأساسية توضع في البوابة على الإنترنت لكل قراء العربية في جميع أنحاء العالم.

لتحقيق هذا الهدف يلزم أوّلاً الدراسة الدقيقة لوضع أدوات البناء التحتي الرقمي المتوفرة، وإكمال بنائها سريعاً، قبل البدء بوضع خطة عربية لمشاريع الرقمنة العملاقة.

المحور الخامس: قــراءات

الجنّة والجحيم في ملكوتِ «رسالة الغفران»

ابن القارح شيخٌ حلبيٌّ من أهل الأدب، بعث رسالةً لأبي العلاء المعرّي يسرد آراءه حول عددٍ من الشخصيات الأدبية والفكرية، ويشكو فيها حاله!.

ردّ عليه أبو العلاء المعرّي بكتابٍ شهير: «رسالة الغفران»، يتضمّن رسالةَ رد تناقش تلك الآراء وتختلف معها، يرافقها نصٌّ سرديٌّ بديعٌ مدهش: «رواية الغفران»!.

في روايته هذه يتصوّرُ أبو العلاء أن ابن القارح قد مات ودخل الجنة. يستهلّ روايته بسرد يوميّات «نعيم» ابن القارح و«لياليه الساهرة» فيها، قبل أن يعود إلى الخلف لِيُفصِّل تجربة ابن القارح المضنية في عبور موقف الحشر، ثمّ دخوله الجنة بالوساطات.

يستأنف أبو العلاء من جديد سرد يوميّات ابن القارح في الجنّة وحواراته مع عدد من أدباء الجاهلية والإسلام. تليها رحلة إلى جهنم لمقابلة وحوار عددٍ آخر منهم، للقاء الشيطان أيضاً.

يعود من جديد إلى الجنة، يلتقي بآدم، يزور أحياء غريبةً فيها. خلال كلّ هذه اللقاءات يصف ابن القارح جغرافية الجنّة والنار وعوالمهما، جنّات الجنّ والحيوانات، جنّات شعراء الرجز.

تاملات ابي العلاء الفلسفية التي يتاسس عليها تخييل روايته

يلزم قبل تقديم نصّ أبي العلاء استعراضُ بعضِ أفكاره الكبرى التي أخرَجها وبلورَها في مختبرِ تخييلهِ السردي، لتنساب في شرايين روايةٍ فريدةٍ خالدة تثير دهشة القارئ، تربكهُ، تنيرهُ، تجعله يتساءل ويستخدم عقلَه لِتحليل الميثولوجيا الإسلامية والمفاهيم الوجودية والأخلاقية الكبرى!.

لأبي العلاء، صاحبِ مشروعِ «لا إمام سوى العقل» الذي قال:

يَـرْتَـجـي الـنـاسُ أن يـقـومَ إمـامٌ
نـاطـقٌ فـي الـكـتـيـبـةِ الـخـرسـاءِ

كـذب الـظـنُّ لا إمـام سـوى الـعـقـلِ
مـشـيـراً فـي صـبـحـهِ والـمـسـاءِ

لأبي العلاء آراؤه المعروفة حول الأديان والرسل. لعلّ أهمّها:

ولا تـحـسـبْ مـقـال الـرُسـلِ حـقـاً
ولـكـن قـولُ زُورٍ سـطَّـروهُ

وكـان الـنـاسُ فـي عـيـشٍ رغـيـدٍ
فـجـاؤوا بـالـمـحـالِ فـكـدَّروهُ

كان مؤمناً بالله مع ذلك، لكن إلهه يختلف عن الإله الذي تُقدّمهُ الأديان!.

مارس أبو العلاء علاقتَهُ بإلهه بطريقتهِ الخاصةِ المتجرِّدةِ من تأثير كلِّ أكذوبات المنجِّمين من البشر، المتخصِّصين في الحديث باسمه. نسفَ أطروحاتهم بِشطْرِ بيتِ شعرٍ كثيفٍ رادع: «وما درى بشؤونِ اللهِ إنسانُ» يتردّدُ صداهُ أيضاً في بيتهِ:

أمـا الإلـهُ فـأمـرٌ لـسـتُ مـدرِكَـهُ

فاحذرْ لِجيلِكَ، فوق الأرضِ، إسخاطا

اختار أبو العلاء الإيمان بهذا الإله الحكيم في رِهانٍ شخصيٍّ حرّ:

أثـبِـتُ لـي خـالـقـاً حـكـيـمـاً

ولـسـتُ مـن مـعـشـرٍ نُـفـاةِ

عبادتُهُ لإلهِهِ هذا عبادةُ إنسانٍ حرٍّ، لا ينحني أو يُقدّسُ إنساناً. يرفضُ أبو العلاء أيّ تشريعٍ للعبادة، ينادي بالتحرّرِ من سلطةِ الشريعة، وباستخدام العقلِ والقياس (مشروعٌ عصريٌّ باكر لِحضارةٍ مدنيَّة، لم يصغِ لهُ أحدٌ في بلاد العرب منذ عشرة قرون!)... يقول:

كـنْ عـابـداً لـلـهِ دون عـبـيـدِهِ

فـالـشـرعُ يُـعـبَـدُ والـقـيـاسُ يُـحـرَّرُ!

يقولُ «فيلسوفُ الشعراء وشاعرُ الفلاسفة» إن الفضيلةَ غايةٌ بحدِّ ذاتها، تُمارَسُ لِجَمالِها وليس بحثاً عن جزاءٍ وثواب:

تـوَخَّـيَ جـمـيـلاً، وافـعـلـيـهِ لِـحُـسـنِـهِ
ولا تـحـكـمـي إنّ الـمـلـيـكَ بـه يـجـزي

كان ضدَّ ثقافة «الإبل الجُرب» التي تلتقي في صلاة الجمعة في سوق تجارة الحسناتِ الجماعي:

يـقـولـون: هـل تـشـهـدُ الـجُـمَـعَ الـتـي
رجـونـا بـهـا عـفـواً مـن الـلـه أو قُـربـا؟

وهـل لـي خـيـرٌ فـي الـحـضـور، وإنـمـا
أزاحـمُ مـن أخـيـارهـم إبـلاً جُـربـا!

يعتبر الكهنةَ غواةً كاذبين (لعلّهُ لذلك لم يُتعِبْ ساردَهُ في رواية «الغفران» بمقابلةِ أيٍّ من مشاهير الفقهاء، في الجنة أو النار):

طـلـب الـخـسـائـسَ وارتـقـى فـي مـنـبـرٍ
يـصـفُ الـحـسـابَ لأمّـةٍ لـيـهـولـهـا

ويـكـونُ غـيـرَ مـصـدِّقٍ بـقـيـامـةٍ
أمـسـى يُـمـثِّـل فـي الـنـفـوسِ ذهـولَـهـا

فـخُـذِ الـذي قـال الـلـبـيـبُ وعِـشْ بـه
ودعِ الـغـواةَ كـذوبَـهـا وجـهـولَـهـا!

لم يكن أبو العلاء يرفض الخمر لِواعزٍ شرعيّ، بل لكونِهِ يمنع

الرؤيةَ المجرّدة، يؤذي العقل ويهزّ البصيرة:

يـقـول الـنـاس أن الـخـمـر تـؤذي
بـمـا فـي الـصـدر مـن هـمٍّ قـديـم
ولـولا أنـهـا بـالـلـبِّ تـؤذي
لـكـنـتُ أخـا الـمـدامـة والـنـديـم

الجنة: عالَم الملذّات ونهاية العقل!

يصوِّر أبو العلاء الجنّةَ مجالسَ أكلٍ وشربٍ وغناءٍ ومَلاَهٍ لا تتوقّف، عالَمَ لذّاتٍ حسيّة متواصلة تثير الغرائز الدنيا للعامّة بامتياز!.

((ويمرّ رفٌّ من أوز الجنّة، فلا يلبث ابن القارح أن ينزل على تلك الروضة ويقف وقوف منتظرٍ لأمر، ومن شأن طير الجنة أن يتكلم، يقول: «ما شأنكن؟»، فيقلن: ألهمنا أن نسقط في هذه الروضة فنغنّي لمن فيها من شرب، يقول: على بركة الله القدير. فينتفضن، فيصرن جواري كواعب يرفلن في وشي الجنة، وبأيديهن المزاهر وأنواع ما يلتمس به الملاهي، فيعجب، وحق له أن يعجب، وليس ذلك ببديع من قدرة الله جلّت عظمته...))

ها هو ابن القارح، قرب شجرة الحور في الجنة، يفاوض الباري عزّ وجل، بين سجدتين، على حجم مؤخرةِ الحوريّة عندما رآها هزيلةَ الدّبْر، في نصٍّ سرديٍّ بديعٍ مدهش:

((ويمرُّ ملَكٌ من الملائكة فيقول ابن القارح: يا عبد الله! أخبرني عن الحور العين، أليس في الكتاب الكريم: «إنا أنشأناهنّ إنشاءً، فجعلناهنّ أبكاراً، عُرُباً أتراباً، لأصحاب اليمين» فيقول الملَك: هنّ على ضرْبين: ضرْبٌ خلقهُ الله في الجنّة لم يعرف غيرها، وضرْبٌ نقلهُ الله من الدار العاجلة لمّا عمل الأعمال الصالحة.

فيقول، وقد هكِرَ عجباً مما سمع: فأين اللواتي لم يكنّ في الدار الفانية؟ وكيف يتميّزن عن غيرهن؟ فيقول الملَك: اقفُ أثري لترى البديءَ من قدرة الله. فيتبعه، فيجيء به إلى حدائق لا يعرف كنهَها إلا الله، فيقول الملَك: خذ ثمرةً من هذا الثمر فاكسرها فإن هذا الشجر يُعرف بشجر الحور!

فيأخذ سفرجلةً أو رمّانةً أو تفاحةً أو ما شاءَ الله من الثمار، فيكسرها، فتخرج منها جاريةٌ حوراء عيناء تبرق لحُسنِها حوريات الجنان، فتقول: من أنت يا عبدالله؟ فيقول: أنا فلان بن فلان. فتقول: إني أُمْنى بلقائك قبل أن يخلق الله الدنيا بأربعة ألف سنة!.

فعند ذلك يسجدُ إعظاماً لله القدير ويقول: هذا كما جاء في الحديث: أعدَدتُ لعبادي المؤمنين ما لا عينٌ رأتْ، ولا أذنٌ سمِعتْ!.

ويخطر في نفسه، وهو ساجدٌ، أن تلك الجاريةَ على حسنها

ضاويةٌ، فيرفع رأسه من السجود وقد صار من ورائها ردفٌ يضاهي كثبان عالج (رمالٌ على الطريق إلى مكّة) فيهال من قدرة الله اللطيف الخبير، ويقول: يا رازق المشرقة سناها، ومبلغ السائلة مناها، والذي فعل ما أعجز وهال، أسألك أن تقصِّر بوص هذه الحورية على ميلٍ في ميل، فيقال له: أنت مخيّرٌ في تكوين هذا الجارية كما تشاء. فيقتصر ذلك على الإرادة!...))

يلتقي ابن القارح في الجنّة بعددٍ من أدباء الجاهلية والإسلام. يتقمّصهُ غالباً أبو العلاء لِيتحاورَ عبرهُ معهم، ليُفنِّد شعرَهم، ليوجّه لهم أسئلةً محددة، ليعرض أمامهم آراءه النقدية والجمالية بدقّةٍ وفنيّةٍ عالية.

يبدأ بالأعشى (الذي مدح الرسولَ، فشفع له. يدخل لذلك الجنّة على أن لا يشرب خمراً فيها، كعقوبةٍ على شربِهِ الخمرَ في الدنيا!). وينتهي بتميم بن أبي، مروراً بحسّان ابن ثابت والخليل وغيرهم.

يلاحظ ابن القارح أن معظمَ شعراء الجنة نسوا ما قالوه من شعرٍ في الأرض من فرط انغماسهم في ملذات الجنّة!.

ها هو مثلاً يسأل الشمّاخ بن ضرار: «لقد كان في نفسي أشياء من قصيدتك التي على الزاي، وكلِمتكَ التي على الجيم...» فيقول الشمّاخ: «لقد شغلني عنهما النعيم الدائم، فما أذكر منهما بيتاً واحداً»!

يقول ابن القارح (أو بالأحرى أبو العلاء الذي يتقمّصه): «لقد غفلت أيها المؤمن وأضعت! أما علمتَ أن كلمتيك أنفع لك من ابنتيك؟ وأن القصيدة من قصائد النابغة لأنفع له من ابنته عقرب»!.

يقول مثل ذلك للنابغة بني جعدة: (أي أبا ليلى، لقد طال عهدك بألفاظ الفصحاء، وشغلكَ شرابٌ ما جاءت بمثلهِ بابل، وثنتكَ لحومُ الطير الراتعة في رياض الجنة، فنسيتَ ما عرفتَ ولا ملامة إذا نسيت ذلك، «إن أصحاب الجنة في شغلٍ فاكهون، هم وأزواجهم في ظلالٍ على الأرائك متكئون، لهم فاكهةٌ ولهم ما يدّعون!»...)

يقول مثل ذلك أيضاً للخليل أثناء حفلةٍ لرقص الحور كنّ يغنين فيها أبياتاً «تهتزُّ لها أرجاء الجنّة» نسيَ الخليلُ أنه قائلها. يقول ابن القارح: «أفنسيتَ يا أبا عبد الرحمن وأنت أذكى العرب في عصرك؟» فيقول الخليل: «إن عبور الصراط ينفض الخلدَ مما استودع!».

تملأ الحواراتُ الأدبية البديعة روايةَ «الغفران»، تتخلّلُ أحداثَها بشكلٍ مثيرٍ مفاجئ. تندلعُ هذه الحوارات أحياناً من مدخلٍ بسيطٍ جدّاً، تتفجّرُ بعده في كل الاتجاهات:

(وتمرّ أوزة مثل البختيّة، فيتمناها بعض القوم شواءً، فتتمثّل على خوانٍ من الزمرد، فإذا قضيت منه الحاجة، عادت بإذن

الله إلى هيئة ذوات الجناح. ويختارها بعض الحاضرين كردناجاً، وبعضهم معمولة بسماق، وبعضهم بلبنٍ وخل، وغير ذلك، وهي تكون على ما يريدون. فإذا تكرّرت بينهم قال أبو مازن العثماني لعبد الملك بن قريب الأصمعي: أي أبا سعيد، ما وزن أوزة؟ فيقول الأصمعي: «إليّ تُعرِّض بهذا يا فصعل، وطالما جئت مجلسي في البصرة وأنت لا يرفعُ بك رأس؟!»).

قد يصل تفجُّرُ هذه الحوارات أحياناً إلى نزاعٍ وعراكٍ جسدي، كما حصل بين النابغة والأعشى عندما وثب النابغة على الأعشى وضربه بِكوزٍ من ذهب.

وصف دخول ابن القارح الجنّة!

تاب ابن القارح في نهاية عمره: لعلّ هذا مخرجه من أهوال جهنم، من وجهة نظر قِيَم الأخلاق الدينية (التي يختلفُ معها أبو العلاء بشكلٍ جذريّ) لاسيّما أن حسناته طوال حياته الأرضية قليلة، كما يقدِّمهُ صاحب رواية «الغفران»!.

ابن القارح، الذي قضّى حياته يتقرّب للحكّامِ والنافذين ويمدحهم شعراً (كان أبو العلاء يمقتُ شعر المديح والتقرّب من الحكّام!)، خاض غمار رحلةٍ طويلة للدخولِ إلى الجنّة. بدأها بِنظمِ شعرٍ يمدحُ به رضوان، خازن الجنّة، للتقرّب منه. لسوء حظّ ابن القارح: يجهل رضوان ماذا يعني مفهوم الشعر!.

مدح ابن القارح خازناً آخر للجنّة، يقال له زفر، بديوانٍ كامل نشده أمامه. إلا أنه كان كمن «يخاطب ركوداً صماء»!.

إذا به بِرَجُلٍ «عليه نورٌ يتلألأ»: حمزة بن عبد المطلب! قال لنفسه: «الشِّعرُ عند هذا أنفق منه عند خازن الجنان لأنه شاعر، وإخوته شعراء!»... مدحه شعراً ليُسهِّل له دخول الجنّة! ردّ عليه حمزة: «إني لا أقدر على ما تطلب لكني أنفِّذُ معك رسولاً إلى ابن أخي علي ابن أبي طالب، ليخاطب النبي في أمرك».

«فلما قصّ الرسول قصّتي على علي، سألني عن صحيفة حسناتي!. فشرحتُ له إنها ضاعت مني في المحشر، وأظهرتُ له الولَه والجزع... فقال أمير المؤمنين: لا عليك! ألكَ شاهدٌ بالتوبة؟...»

بعدما وجد شاهدَهُ، قاضٍ حلبيّ، انتقل من هناك إلى «حوض النبي محمد الذي يسقي منه أمتّه يوم القيامة»، فقال للعترة المختارين فيه: «إني كنتُ في الدار الذاهبة إذا كتبتُ كتاباً وفرغتُ منه، قلت في آخره: «وصلّى الله على سيّدنا محمد خاتم النبيين، وعلى عترتهِ الأخيار الطيبين»... فقالوا له: «ما نصنع بك؟». فقال لهم: «إن مولاتنا فاطمة، عليها السلام، دخلت الجنة منذ دهر». ثمّ طلبهم أن يتوسّطوا له عندها، حال خروجها من دارها لزيارة والدها، لتتوسّط له عند أبيها!. بعد وساطتهم قالت لأخيها إبراهيم: «دونك الرجل!».

ثمّ وساطةٌ جديدة، قبل أن يمنحه النبي محمد الشفاعة، ويتعلّق ابن القارح بعد ذلك بركاب إبراهيم، ليعبر الصراط... تتعقّد الأمور من جديد عند عودته لرضوان في باب الجنّة، لأنه لا يمتلك بعد جوازاً لدخولِها!.

لم تنفعه في الأخير إلا عودة إبراهيم بحثاً عنه بعدما تأخر عنه، وجذبَهُ جذبة رمت به في الجنّة!.

الجحيم وطن المبدعين!

ثمّ يذهب ابن القارح في رحلة إلى الجحيم لزيارتها. يقابل «أبا مرّة»، إبليس، ثمّ بشّار بن بُرد. ينظر ما نزل بهذا الشاعر من نكال لقوله حول إبليس:

النار عنصرهُ، وآدم طينةٌ
والطين لا يسمو سموّ النارِ

يقولُ ابن القارح لِبشّار هذه العبارة العميقة: «لقد أحسنتَ في مقالك، وأسأتَ في معتقدك!» التي لا يمكن ترجمتها إلا بـ: «العقيدة تخالف الصواب»!. يقدّمُ له بعد ذلك قراءات نقدية لبعض أعماله.

يقابل بعد ذلك أمرئ القيس، يدخل معه في حوارٍ أدبي ونقديّ وثقافي متنوعٍ طويل (٨ صفحات) شديد الثراء. يسرّبُ أمرؤ القيس في أحد ردوده سرّ المهنة: «أما أنا وطبقتي من الشعراء

فكنّا نمرُّ في بيت الشعر حتى نأتي إلى آخره، فإذا فني أو قارب تبيّن أمره للسامع!».

يليه حوارٌ رفيعٌ مع فحلٍ آخر من كبار فحول الشعراء آنذاك وأشجعهم، عنترة العبسي، الذي دخل النار لبيتين وصف بهما الخمر!.

يتذكّرُ جميعُ شعراءِ الجحيم أشعارَهم خلال حياة الأرض، بعكس شعراء الجنة. يناقشون ابن القارح، يتفاعلون معه، ويردّون على أسئلته وآرائه بإسهاب رائع.

كذلك علقمة، وعمرو بن كلثوم، والحارث اليشكري... حوارات فنيّة، استفسارات وانتقادات يتفاعلون معها بتمكُّنٍ وشغف!. يليهم أيضاً طرفة بن العبد الذي يختتم حواره مع ابن القارح بهذه العبارة المدهشة:

«وددتُ أني لم أنطق مصراعاً، وعُدمتُ في الدار الزائلة إمراعاً، ودخلتُ الجنّة مع الهمج والطغام... وكيف لي بهدوء وسكون، أركنُ إليه بعض الركون؟ (وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً)...».

يليه أوس بن حجر الذي تتسلّل منه هذه العبارة: «ولقد دخل الجنة من هو أشرُّ مني، ولكن المغفرة أرزاق، كأنها النشب (المال) في الدار العاجلة...».

يواصل ابن القارح حواره مع هذه الكوكبة، لِيصلَ إلى الأخطل التغلبي، الذي يلومه ابن القارح لمعاشرته يزيد بن معاوية!.

يتذكّرُ الأخطل بشوقٍ ووفاء أيامه مع يزيد، يدافع عنه: «آهٍ على أيّام يزيد!». يشتمهُ ابن القارح إثر ذلك! يثير بذلك غضبَ أبي مرّة (إبليس) الذي يتدخّل ويقول للزبانية: «ما رأيت أعجز منكم إخوان مالك! لو أن فيكم صاحب نحيزة قويّة لوثبَ وثبةً حتى يلحق به (بابن القارح) فيجذبه إلى سقر!». يردّون: «ليس لنا على أهل الجنّة سبيل!».

يواصل ابن القارح زيارة الكوكبة: المهلهل (الذي كانت عينا أبي العلاء تغرورقان من الحزن عند قراءة إحدى قصائده عن أخته)، المرقش الأكبر، المرقش الأصغر، الشنفرى (الذي قال بيت شعرٍ في الأرض يتأدبُ بسببِهِ في النار مدة الدّهر!)، تأبطّ شرّاً.

يختتم لقاءه بهم بهذه العبارة المضادّة (التي تعني عكسها تماماً): «فإذا رأى قلّةَ الفوائد لديهم، تركَهم في الشقاء السرمد، وعمد لِمحلِّهِ في الجنان»!.

يطوف بعد عودته للجنّة بأرجاء جديدة من عوالمها. يستهلّ هذه العودة بلقاء آدم على طريقه!.

في حواره مع آدم يجيد كاتبُ رواية «الغفران» كعادتهِ استخدامَ أدواتِه التقليدية: المنطق، التفكيك والتحليل اللغوي، ضرب الميتافيزيقيا بالميتافيزيقيا... لكشف المنحولات والأكذوبات:

((فيلقى ابن القارح آدمَ، عليه السلام، في الطريق فيقول: يا أبانا، صلّى الله عليك، قد رويَ عنك شِعرٌ منه قولك:

نحن بنو الأرضِ وسكّانُها
منها خُلِقنا وإليها نعُودْ

والسّعدُ لا يبقى لأصحابِهِ
والنحسُ تمحوهُ ليالي السُّعود

فيقول: إن هذا القول حق، وما نطقهُ إلا بعضُ الحكماء، ولكني لم أسمع بهِ حتّى الساعة!.

فيقول: لعلّك يا أبانا قلتَهُ ثمّ نسيت! فقد علمتُ أن النسيان متسرِّعٌ إليك، وحسبكَ شهيداً على ذلك الآية المتلوّة في فرقانِ محمّد، صلى اللهُ عليه: «ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي، ولم نجد له عزماً!».

يقول آدم، صلّى اللهُ عليه وسلّم: «أبيتم إلا عقوقاً وأذيّة، إنما كنتُ أتكلّمُ العربية وأنا في الجنّة، فلّما هبطتُ إلى الأرض نُقِلَ لِساني إلى السريانية، فلم أنطق بغيرِها إلى أن هلكتُ، فلمّا ردّني الله، سبحانه وتعالى، إلى الجنّة عادت عليّ العربية!... فأي حينٍ نظمتُ هذا الشِّعر: في العاجلة أو الآجلة؟... والذي قال ذلك يجبُ أن يكون قاله في الدّار الماكرة، ألا ترى قوله: «منها خُلِقنا وإليها نعود»؟ فكيف أقول ذلك ولساني سرياني؟.

وأما الجنّة، قبل أن أخرجَ منها، لم أكن أدري بالموت فيها. وأما بعد رجوعي إليها فلا معنى لقولي: «وإليها نعود» لأنه كذبٌ لا محالة، ونحن معشر أهلِ الجنّة خالدون مخلّدون!...))

خاتمة

تكمنُ عبقريةُ أبي العلاء في روايةِ «الغفران» في أنه استطاعَ برهنةَ بيتهِ الشهير:

اثنانُ أهلُ الأرضِ: ذو عَقلٍ بلا
دِينٍ، وآخرُ دينٌ لا عقلَ له

فالصورة الكاريكاتورية التي قدّمها عن الجنة والنار نجتْ منذ عشرة قرون من مقاصل كهنة «الكتيبة الخرساء» (لأنه دلّلها بآياتٍ قرآنية حول الجنة والنار، والقدرة الإلهية)، إن لم تُسِلْ لعاب جنودِ هذه الكتيبة شوقاً لِنعيمِ تلك الجنّة!.

ومن جانبٍ آخر تُربِكُ ذوي العقل، تثير تساؤلاتهم وتفكيرهم دون توقّف! يكفي تصوّر ابن القارح في الجنة، وأمرئ القيس وعنترة العبسي في النار، للشعور بأن هناك خللاً جوهريّاً ما في أدمغة الآلهة!.

مفهوما «الغفران» و«القدرة» يسيطران على الرواية. ينتمي الأوّل لِقِيَمِ «أخلاقِ البقّالين»، وللثاني رائحةُ ما بعد التخييل الغرائبي: المحال!.

لعله بسبب مفعولِ رواية «الغفران»، المنعشِ للعقل والمثيرِ للتأمل والجدل، تُحاط هذه الرواية منذ عشرة قرون بسياجٍ يمنع عرضها للعامة، أو تعليمها في المدارس، رغم أنها، بجانب ديوان اللزوميات، من أجلِّ وأهمِّ وأثرى ما في تراثنا العربي المضيء الخالد!.

مدرستُنا العربية، التي تُعلِّمُ الطالبَ كيف لا يفكّر، كيف ينتمي إلى «الكتيبة الخرساء»، هي دون شك آخر من بإمكانهِ تدريسَ كتابٍ كهذا في مناهجها!.

كتابٌ حاكاه دانتي بشكلٍ مباشرٍ أو غير مباشر، واعٍ أو غير واع، عندما كتب «الكوميديا الإلهية» (أحد أهم تراث الغرب، الذي يُدرَّسُ في مدارسه) وهو يصفُ رحلتَهُ إلى الجنة والنار مع الشاعر اللاتيني فيرجيل، التي رأى خلالها وحاور شخصيّات ميثولوجية وتاريخية شهيرة!.

العلاقة بين التخييل والتأمل الفلسفي: «رسـالة الغفران» أنموذجاً

١) مدخل

ثمّة أعمالٌ أدبيّةٌ عديدة يتقاطعُ فيها السرّدُ الروائي بالتأملات الفلسفية ([٣]، ص ٢٣، ٦٥). تقاطعُهما طبيعيٌّ في الحقيقة، وإن يمكن أن تواجهه فخاخٌ تمدُّها الفلسفةُ للرواية ([٣]، ص ٢٤): لغةُ الفلسفة تنتهكُ بطبيعتِها التجريدية، وسعيِها إلى إثبات والبرهنة، حُرمةَ الشكل الفني الروائي. . .

كيف يلزم أن يكتب الفيلسوف روايته؟ أي بنيةٍ وشكلٍ يحتاج إليهما؟ أسئلةٌ مفتوحة ([٤]، ص ٨٥) ليس لها ردٌّ محدّد.

في كتابهِ الحديث: «أنا وعفريتي: الفلسفة كتخييل» [٢] يدرسُ الفيلسوفُ بيير كاسونوجيس علاقة الرواية بالفلسفة.

يلاحظ الكاتب أن التخييل هو «العنصر الحيويّ في الطرح

الفلسفي»: التخييل الفلسفي هو الوعاء الذي يصوغ فيه الفيلسوف إشكالياته، ويواجه فيه الواقعَ بالممكنِ بالمحال، ويُقدّمُ فيه مفاهيمه وتأملاته وأطروحاته.

يقول: «اللجوء للتخييل اتجاهٌ ملازمٌ للفيلسوف»، كما يجلي ذلك في عددٍ كبيرٍ من النصوص التخييلية الفلسفية، مثل «تأملات ميتافيزيقية» لِديكارت التي يقدّمها كرواية تخييل علمي، وبعض روايات سارتر.

هدفُ الفيلسوفِ في تخييله السردي بطبيعة الحال إجلاءُ جوهرِ الحقيقة الفلسفية Essence. يقود ذلك إلى إشكاليةٍ رئيسة: تسرُّبُ الخطابِ الفلسفيّ في التخييل السردي وعلاقته به، أو ما يسمى «ما وراء التخييل»!.

يلاحظ الكاتبُ أن ثمّة خطابين ملتصقين في نصوص التخييل الفلسفي: خطاب الفيلسوف ـ المؤلف، وخطاب واجهتِهِ «البلاستيكية» التي تسرد تحوّلاتها طوال النص: الـ«زومبي» («الروح التي تخدم الساحر») الخاصّ بالفيلسوف ـ المؤلف، كما يطلق عليه الكاتب. لِنُسمّهِ هنا: عفريته!. يُشبِّهُ الأوّلَ بالرأس والثاني باليد!.

يلاحظُ الكاتب أن هذه الثنائية تختلط أحياناً وتجعل الاثنين يرتبطان بشكلٍ وثيق مما يؤدي لِصعوبةِ الفصل بينهما!.

يضعُ الكاتبُ ثلاثة أسئلة تواجهُ الفيلسوفَ ـ المؤلف وتُفضي إلى ثلاثة اتجاهات سرديّةٍ مختلفة:

١) ألا يمكنُ اعتبارُ الفيلسوف ـ المؤلف شخصاً في النص، في حوارٍ دائم مع عفريته؟

٢) ألا يمكن اعتبارُ خطابِ الفيلسوف ـ المؤلف في النص تخييلاً موازياً لتخييل عفريته، يشرحُ تحوّلات هذا التوأم (بدلاً من اعتباره خطاباً يقع خارج دائرة التخييل)؟

٣) ألا يلزم بدل كلِّ ذلك أن يلتزمَ الفيلسوفُ ـ المؤلف بالصمت، أي أن يظلّ قابعاً في دولاب، مكتفياً بتنظيم تحوّلات عفريته؟.

سنحاول في دراستنا هذه تطبيقَ هذه «المحاولة» النظرية (التي لا يقدِّمها كاسونوجيس كـ«منهج» مكتمل، بل كرؤية مفتوحة) على نصِّ أبي العلاء المعرّي: «رسالة الغفران» الذي يسردُ فيه الفيلسوفُ أبو العلاء المعرّي زيارةَ ابن القارح للجنّة والنار، ولقاءه بكوكبةٍ من شعراء الجاهلية والإسلام!.

سنتعرّضُ في دراستنا للعلاقة بين أبي العلاء وعفريتهِ (ابن القارح)، والأوجه المتنوّعة التي صنعها له الفيلسوف ـ المؤلف، والطُّرق التي أتّخذها الفيلسوف ـ المؤلف أبو العلاء لتقديم آرائه الفلسفية عِبر سارِديه، في ضوء الاتجاهات الثلاثة في ترسيمات مبحث بيير كاسونوجيس.

هدفنا الرئيس هو إجلاء منهج «البرهان عبر المحال» الذي استخدمه أبو العلاء في تخييله، لإبراز إشكالياته الفلسفية، ولِدعمِ آرائه حول الميثولوجيا الإسلامية، كما صاغها في ديوانه الخالد «لزوم ما لا يلزم».

٢) ابن القارح «زومبي» أبي العلاء في «رواية الغفران»

في كتابه [٢] يتحدّث كاسونوجيس عن لجوء المؤلف ـ الفيلسوف في نصوص التخييل الفلسفي إلى واجهةٍ «بلاستيكية» يستخدمها لإبراز اشكالايته الفلسفية. يرسم أيضاً معالمَ بنيةِ نصوص التخييل الفلسفي ([٢]، ص ٨٧): التخييل الفلسفي لا ينتجُ قصةً سرديّةً خطيّةً تقليدية، وبل سرداً تتعاقب شذراته لملامسة الإشكاليّة الفلسفية، وتقديمِها وتطويرِها.

ينطبق هذا الهيكل النظري في الحقيقة تماماً على «رواية الغفران»: لأبي العلاء واجهةٌ بلاستيكية تسرد تحوّلاتها طوال روايته: ابن القارح، شيخٌ حلبيٌّ من أهل الأدب كان قد بعث رسالةً لأبي العلاء المعرّي يسرد فيها آراءه حول عددٍ من الشخصيات الأدبية والفكرية، ويشكو فيها حاله. ردّ عليه أبو العلاء بكتابِ خالد: «رسالة الغفران» يتضمّن رسالةَ ردٍّ تناقش تلك الآراء وتختلف معها، وروايةً فريدةً مدهشة: «رواية الغفران».

في روايته هذه يتصوّرُ أبو العلاء أن ابن القارح قد مات ودخل

الجنة. يستهلّ روايته بسرد يوميّات «نعيم» ابن القارح و«لياليه الساهرة» فيها، قبل أن يعود إلى الخلف لِيُفصِّل تجربة ابن القارح المضنية في عبور موقف الحشر، ثمّ دخوله الجنة بالوساطات.

يستأنف أبو العلاء من جديد سرد يوميّات ابن القارح في الجنّة وحواراته مع عدد من شعراء الجاهلية والإسلام، وأهل الأدب. تليها رحلة إلى جهنم لمقابلة وحوار عددٍ آخر منهم، للقاء أبي مرّة: الشيطان، أيضاً.

يتقمّص أبو العلاء شخصيّةَ عفريته ابن القارح في حواراته الأدبية، المهنيّة جدّاً، وفي دحضه للمنحولات الأدبية، في حين يُصمِّمه لِيكونَ عكسَهُ النموذجيّ في الجوانب الأخرى لاسيّما في قصائد مديحه للنافذين (كان أبو العلاء يمقتُ ذلك)، في نفاقهِ وشتمه، في لهثهِ بحثاً عن المتعة الحسيّة الدانية: يفاوض الباري عز وجل بين سجدتين حول حجم دبر الحورية. يأتيه الرد: يكفي أن يرغب بما يريد لتتحقق رغبته حالاً لأن «الله على كلّ شيءٍ قدير»!.

ثمّ يعود ابن القارح من جديد إلى الجنة، يلتقي بآدم ويحاوره، يزور أحياء غريبةً فيها. خلال كلّ النصوص الشذراتية لحوارات ابن القارح وتنقلاته في أفياء الآخرة يصف أبو العلاء جغرافية الجنّة والنار وعوالمهما، جنّات الجنّ والحيوانات، جنّات شعراء الرجز إلخ.

٣) كيف تجسّدت تأملات أبي العلاء في تخييل روايته؟

لعل نقد الفكر الظلامي الديني أحدُ أهمِّ الإشكاليات الكبرى التي تدور حولها تأملات أبي العلاء الفلسفية. يعرف «فيلسوف الشعراء وشاعر الفلاسفة» جيّداً أن هذا الفكر يسيطر على أدمغة العامة أساساً من خلال سيطرته على الإجابة عن سؤالين مُرعِبين: من أين جئنا؟ وأين سنذهب بعد الموت؟، هما في الحقيقة وجهان لسؤال واحد!.

تتموضع رسالة الغفران في جبهة السؤال الثاني: أين سنذهب؟

(حول السؤال الأوّل، كان أبو العلاء قد «لخّص»، إذا جاز القول، «أصلَ الأنواع»، قبل ثمانيةِ قرونٍ ونصف قرن من داروين، بهذه الثلاثة أبيات ذات البصيرةِ الثاقبة في رؤيتها المادية المنسجمة مع العلم الحديث:

١) والذي حارتِ البريّةُ فيهِ حيوانٌ مستحدَثٌ من جمادِ

٢) أرى الحيَّ جنساً ظلّ يشملُ عالمي بأنواعهِ، لا بورِكَ النوعُ والجِنس!

٣) جائزٌ أن يكونَ آدمُ هذا قبلَهُ آدمٌ على إثرِ آدم!

أطلق في ثالثهما صيغة «آدم ابن آدم» التي يرفع العِلمُ الحديث رايتَها اليوم، في مواجهة صيغة النظرية الدينية: «آدم ابن النفخة في الصلصال»!...)

تدور أحداث رواية الغفران في فضاء حياةِ الآخرة: عذاب القبر، المحشر، الصراط، الجنة، الجحيم... كما تصوِّرها الميثولوجيا الإسلامية. يصوغ أبو العلاء أو يُسرِّبُ في روايته أسئلةً مربكة حول بعض الإشكاليات الفلسفية: القدرة الإلهية، الغفران، نمط حياة الجنّة والنار... هدفُهُ كعادته إيقاظُ العقلِ أثناء قراءة النظرية الدينية ونقدُ ظلاميةِ كهنتها الذي قال عنهم في لزوميّاتِه [٥]:

طلب الخسائسَ وارتقى في منبرٍ
يصفُ الحسابَ لأمّةٍ ليهولها

ويكونُ غيرَ مصدِّقٍ بقيامةٍ
أمسى يُمثِّل في النفوسِ ذهولَها

فخُذِ الذي قال اللبيبُ وعشْ به
ودعِ الغواةَ كذوبَها وجهولَها!

منهجهُ المنطقي الذي يلجأ له غالباً في هذه الرواية هو «البرهان عبر المحال»، La preuve par l'absurde، الذي يُستخدَمُ في الرياضيات لبرهنةِ صحةِ نظريةٍ ما: يكفي افتراضُ صحةِ عكسِ تلك النظرية والوصولُ إلى تناقضٍ في البرهان، لإثبات صحّةِ النظرية الأصليّة!.

كذلك عمل أبو العلاء إزاء المفاهيم التي أراد أن يُجلي عدمَ صوابِها للقارئ: افترض أنها صحيحة (دفعها إلى أقصى مداها،

مدلِّلاً على ذلك بنصوصٍ من المصحف الكريم) ليصل إلى مبتغاه: إعطاء صورةٍ متكاملةٍ لعوالم الجنة والجحيم وميكانيكا الحياة فيهما، تتفجّرُ فيها المفارقات والتناقضات المنطقية من كلِّ حدبٍ وصوب!.

٣,١) إشكاليّة القدرة الإلهية:

يُحدِّدُ كاسونوجيس دائرةَ «الممكنِ التخيّلي» بأنّها دائرةُ السرد الذي يتفاعل القارئُ معه وينقادُ إليه أثناء قراءته. تتجاوزُ وتضمُّ تلك الدائرةُ بالطبع دائرةَ «الممكنِ العلميّ»، التي تتجاوز بدورِها وتضمّ دائرةَ «الممكن في أرض الواقع» ([٢]، ص ٥٢).

الممكن التخييلي، الذي يتجاوز الممكنَ العلمي وينقادُ إليه القارئ مع ذلك، هو ما يمكن تخيله في واقعٍ فيزيائيٍّ آخر غير واقعِ كونِنا، له قوانين وخصائص أخرى. مثال على ذلك: السفرُ إلى الماضي في روايات التخييل العلمي ([٢]، ص ٥٣) مستحيلُ الحدوث علميّاً في كوننا بسبب كثافة كتلته، لكنه ممكنٌ في كونٍ فيزيائي افتراضيٍّ آخر (كما برهن عالم الرياضيات غودل). مثال آخر: الرجلُ اللامرئي في رواية ويلز ([٢]، ص ٣٩) بفضل مسحوقٍ كيماوي اخترعهُ من موادٍ نادرة، تلاه التعرّضُ لإشعاعات كهرومغناطيسية، غيرُ ممكن علميّاً لكنه مقبولٌ أيضاً كتخييل: مجرّد اللجوء إلى هذه الوصفات الكيماويّة النادرة والكهرومغناطيسية المعقّدة تؤدّي

لاستقطاب القارئ للنص، لأنه يتناغم في ذهنه مع مبدأ السببية في تفسير ظواهر الكون، المتجذّر في بنية منظومة الدماغ، في حين أن التحوّل إلى إنسانٍ لا مرئيٍّ لِمجرّد فركِ خاتمٍ سحريٍّ لا غير (كما تسردهُ بعض الأساطير الإغريقية والشرقيّة السحيقة) طريقةٌ عتيقة لا ينقاد لها القارئ الحديث عموماً!.

أمّا «غير الممكن» أو المستحيل فهو، بالنسبة للكاتب، السردُ الذي لا ينسجم مع القوانين الرياضية ([٢]، ص ٥٦)، لأنها قوانين مجرّدة عن التجربة والسياق الفيزيائي.

سأضرب مثلاً يوضِّحُ مفهومَي الممكن التخييليّ والمستحيل: يمكن للقارئ أن ينقاد بسهولة لسردٍ في رواية الخيال العلمي يتحدّث عن «سوبرمان» الشهير (الذي يمتلك قوة خارقة، شأنه شأن أي إنسان جاء من كوكب كريبتون وتعرّضَ لإشعاعات شمس الأرض!) وهو يطير باتجاه مكانٍ بعيد يحمل سيارةً بِغرضِ إخفائها عن نظر قوةٍ شريرةٍ تريد تدميرها!.

لكن القارئ سيعتبرُ من السخافة بمكان السردَ الذي يقول إن سوبرمان ابتلع السيارة ليخفيها في جوفه عن تلك القوة الشريرة، كما اختفى يونس في بطن الحوت، لأن الحجم الرياضي للسيارة يفوق بكل بساطة حجم بلعوم سوبرمان!.

مفهوم «القدرة الآلهية» في الآخرة يتجلّى هنا كإشكالية فلسفية جوهريّة: هو أَلِفُ الروايةِ وياؤها، قانونُ فيزيائها الأوحد الذي يفسِّرُ ميكانيكا كلِّ حركةٍ وسكنةٍ في ملكوتِ الآخرة!.

إذ لا يكتفي هذا المفهوم بهندسة الممكن التخييليّ في «رواية الغفران» (بالشكلِ المعتادِ عليه في الرواية الغرائبية ورواية الخيال العلمي) مثل: أشجار الجنة عملاقةٌ تذهبُ جذوعُها من شرق الجنة لغربها، الحيوانات تتكلم في الجنة، يستطيع الإنسان في الجنة أن يرى ما يبعد عنه عدّة «سنوات ضوئية» (استخدمت الرواية هذا المفهوم العلمي! ([١]، ص ١١٨)...)

لكن مفهوم القدرة الإلهية يتجاوز في الرواية مستوى هذا الممكن التخييلي التقليدي بإلغائه كل القوانين الفيزيائية والبيولوجية بضربةٍ واحدة، لِيكون لهُ مفعول «الخاتم السحري» العتيق نفسه الذي يكفي فركُهُ لتتحقق حالاً أية رغبة أو حلم: الثمار والطيور تتحوّل في الجنة، بمجرد رغبة أهلِها، إلى حور عينٍ كواعب أتراب، تناقش في الأدب وتستشهدُ بأشعار العرب!. يمكن أيضاً، حسب رغبة ساكن الجنة، تغييرُ مقاييسِ أعضاء جسدها حسب هواه (كما فعل ابن القارح بين سجدتين). يكفي، كمثلٍ آخر، أن يخطر ببال ساكن الجنّة ذكر الفقاع (البيرة) لتتفجّر أمام أقدامه أنهارٌ من البيرة، «الجرعة منها أفضل من كلِّ ملذات الدنيا!».

بل يصل مفهوم هذه القدرة أيضاً، في ما يشبه الاستخفاف الكاريكاتوري من هذا المفهوم، إلى المحال الذي يتجاوز القوانين الرياضية المجرّدةِ عن أي سياقٍ وتجربة: تنهار «نظرية

الأرقام» في الجنّة رأساً على عقب: يكفي مثلاً أن يرى المحتفلون في مآدب الجنة طاووساً، أو إوزّةً يحلمون بأكلها، كلّ واحدٍ على طريقته، لِتصلَ مطبوخةً إثر ذلك مباشرةً، في نُسخٍ مكرّرة في اللحظة نفسها، لكلِّ صحنٍ كما حلم بها صاحبه، ثمّ لتتجمّعَ عظامُها من جديد وتعودَ لِنسختها الأصلية الأولى!.

كذلك حال قصّة الإوزة التي تقول لابن القارح: «إني أمنى بذبحك لي من قبل أن يخلق الله الدنيا بأربعة ألف عام!». ما أمتع رياضيّات إوزّ الجنة وهي تنطُّ هكذا فوق المجاز لِتغتالَ المنطقَ الرياضي وتُرديهِ قتيلاً!.

ما يؤكد أن أبا العلاء استخدم منهج «البرهان عبر المحال» في تقديم القدرة الإلهية في روايته بهذه المواصفات العجيبة الخارقة التي تتجاوز مبدأ السببيّة أو حتّى شروط التخييل الغرائبي، هو كون صاحب صيغة «آدم ابن آدم» فيلسوفاً عقلانيّاً استخدم دوماً مبدأ السببية في تفسير الظواهر، بِحدَسٍ علميّ ينسجم مع نتائج العلم الحديث، كما أوردناه في آرائه ما قبل الداروينية حول نظرية الخلق!.

يكفي قراءة آخر فقرات «رواية الغفران» عندما يعود ابن القارح من رحلته، إلى قصرهِ في دار الخلود، ويسمعُ نداء الثمرات له: «هل لك يا أبا الحسن، هل لك!»، لاستيعاب سخرية أبي العلاء من نهاية العقل في الجنة:

((ويتكئ ابن القارح على مفرشٍ من السندس، ويأمر الحور العين أن يحملن المفرش فيضعنه على سرير من سرر أهل الجنة، وإنما هو زبرجدٌ أو عسجد. ويكوِّنُ البارئ فيه حلقاً من الذهب تطيف به من كل الأشراء، حتى يأخذ كل واحدٍ من الغلمان المخلدين، وكل واحدةٍ من الجواري المشبّهة بالجمان، واحدةً من تلك الحلق.

فيُحمَلُ على تلك الحال إلى محله المشيّد بدار الخلود، فكلما مرّ بشجرة نضحتهُ أغصانها بماء الورد قد خلط بماء الكافور، وبمسكٍ ما جُني من دماء الفور، بل هو بتقدير الله الكريم.

وتناديه الثمرات من كل أوبٍ وهو مستلقٍ على الظهر: «هل لك يا أبا الحسن، هل لك!»... فإذا أراد عنقوداً من العنب أو غيره انقضب من الشجرة بمشيئة الله، وحملته القدرة إلى فيه، وأهل الجنّة يلقونه بأصناف التحية... لا يزال كذلك أبداً سرمداً، ناعماً في الوقتِ المتطاولِ منعمّاً، لا تجدُ الغِيَرُ فيه مزعماً...))

٣,٢) إشكالية الغفران ودخول الجنة:

الغفران هو المفهوم الآخر الرئيس الذي تتجلّى إشكاليته في «رواية الغفران». لعل دخول ابن القارح الجنة، بعدما غُفِر له، يقدِّمُ ذلك أفضل تقديم:

تاب ابن القارح في نهاية عمرهِ في الدّنيا، كما تُقدِّمه الرواية:

كان ذلك مخرجه من أهوال جهنم، من وجهة نظر القِيَم الدينية (التي يختلفُ معها أبو العلاء) لاسيّما أن حسناته طوال حياته الأرضية قليلة، كما يقدِّمهُ صاحب «رواية الغفران»!.

ابن القارح، الذي قضّى حياته يتقرّبُ من الحكّام والنافذين ويمدحهم شعراً (بعكس أبي العلاء الذي كان يمقتُ ذلك!)، خاض غمار رحلةٍ طويلة للدخولِ إلى الجنّة. بدأها بِنظمِ شِعرٍ يمدحُ به رضوان، خازن الجنّة، للتقرّب منه. لسوء حظّ ابن القارح: يجهل رضوان ماذا يعني مفهوم الشِّعر!.

بعقليّة ماسحِ أحذيةٍ في الدّنيا والآخرة، مدح ابن القارح طويلاً خازناً آخر للجنّة، يقال له زفر. إلا أنه كان كمن «يخاطب ركوداً صماء»!.

إذا به بِرَجُلٍ «عليه نورٌ يتلألأ»: حمزة بن عبد المطلب! قال لنفسه: «الشِّعرُ عند هذا أنفق منه عند خازن الجنان لأنه شاعر، وإخوته شعراء!». مدحه شعراً ليُسهِّل له دخول الجنّة! ردّ عليه حمزة: «إني لا أقدر على ما تطلب لكني أنفِّذُ معك رسولاً إلى ابن أخي علي ابن أبي طالب، ليخاطب النبي في أمرك».

يصلُ لِعلي الذي يسألهُ عن صحيفة حسناته!. يردُّ عليه إنها ضاعت منه في المحشر، ثم يضيف «وأظهرتُ له الولَه والجزع!». نجح التمثيل المسرحي كما يبدو لأن أمير المؤمنين ردّ عليهِ ببراءتِهِ الشهيرة: «لا عليك! ألكَ شاهدٌ بالتوبة؟...»

بعدما عثر على شاهدِه، انتقل إلى «حوض النبي محمد الذي

يسقي منه أُمَّتَه يوم القيامة»، فقال للعترة المختارين فيه هذه العبارة، بعقليّة بقّالٍ في سوق الحسنات: «إني كنتُ في الدار الذاهبة إذا كتبتُ كتاباً وفرغتُ منه، قلت في آخره: «وصلّى الله على سيّدنا محمد خاتم النبيين، وعلى عترتهِ الأخيار الطيبين». فقالوا له: «ما نصنع بك؟» وكأن عليهم تسديد ثمن ذكرهِ لهم في صلواتِه!.

فقال لهم: «إن مولاتنا فاطمة، عليها السلام، دخلت الجنة منذ دهر». ثمّ طلبهم أن يتوسّطوا له عندها، حال خروجها من دارها لزيارة والدها، لتتوسّط له عند أبيها!. لا تنتهي هذه القصة الطويلة إلا عندما يأتي إبراهيم، ابن الرسول، بحثاً عن ابن القارح بعدما تأخر عنه، وجذبَهُ جذبةً رمت به في الجنّة!. دخلها هكذا لكزاً، «بالدهفة»، من قِبَل إبراهيم، ابن النبي محمد صلى الله عليه وسلّم!.

يزدادُ جلاء إشكالية الغفران في الرواية عندما نلاحظ أن شخصية هزيلةً كابن القارح دخل الجنة، في حين أن أمرأ القيس وعنترة العبسي (بسبب بيتين من الشعر قالاهما في وصف الخمر) يصطليان في سعير جهنم. فضلاً عن أن أبا العلاء لم يكن يرفض الخمر لِوازعٍ شرعيّ، بل لكونِهِ يمنع الرؤيةَ المجرّدة، يؤذي العقل ويهزّ البصيرة، كما يقولُ في لزوميّاته:

يقول الناس أن الخمر تؤذي

بما في الصدر من همٍّ قديم

ولـــولا أنـــهـــا بـــالـــلـــبِّ تـــؤذي
لـكـنـتُ أخـا الـمـدامـة والـنـديـم

تتعمّق هذه الإشكالية أثناء تقديم بشار ابن برد في جهنم، عندما رآه ابن القارح وشاهد ما نزل بهذا الشاعر من نكال لقوله حول إبليس:

الـنـار عـنـصـرهُ، وآدم طـيـنـةٌ
والـطـيـن لا يـسـمـو سـمـوَ الـنـارِ

يقولُ ابن القارح لِبشّار هذه العبارة العميقة: «لقد أحسنتَ في مقالك، وأسأتَ في معتقدك!» التي لا تعني بكلِّ صراحة: «العقيدة في عالَم، والصواب في عالَمٍ آخر»!.

تتفاقم الإشكالية مع طرفة بن العبد الذي يختتم حواره مع ابن القارح بهذه العبارة المدهشة: «وددتُ أني لم أنطق مصراعاً، وعُدمتُ في الدار الزائلة إمراعاً، ودخلتُ الجنّة مع الهمج والطغام... وكيف لي بهدوء وسكون، أركنُ إليه بعض الركون؟ (وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً)...»

كذلك حال الشنفرى الذي قال بيتاً في الدار الخادعة «يتأدب به في جهنم مدى الّدهر!». أو حال «المصطبحِ بصحن الغانية»، عمرو بن كلثوم، الذي قال:

ألا هـبّـي بـصـحـنـكِ فـاصـبـحـيـنـا
ولا تُـبـقـي خـمـور الأنـدريـنـا

والذي يلومه ابن القارح أثناء حواره لأنه «ساندَ» في قولِه:

كـأن مـتـونـهـنَّ مُـتـون غُـدرٍ
تُـصـفِّـقُـهـا الـريـاحُ إذا جـرَيْـنـا

في الجانب الآخر من الصراط ينال الأعشى شفاعةَ الرسول لأنه مدحه بقصيدة! يدخلُ الجنةَ، بفضلِ ما يُشبه «غفران البقالين»، شريطة أن لا يشرب خمراً فيها، كعقوبةٍ على شربِهِ الخمرَ في الدنيا!.

يثير كلُّ هذا التخييل الشذراتي إشكاليةَ مفهوم الغفرانِ وأخلاقِ الثواب والعقاب، في سردٍ بديعٍ يُربكُ دماغ القارئ بشكلٍ يُحمَدُ عليه. لعلّ القارئ يودُّ أحياناً في أغلب الظنّ أن يقول: «الجحيم وطن الأحرار والمبدعين الذين لا يميلون إلى النفاق وقصائد المديح!»، أو أن يبدي استنكاراً مخلِصاً صغيراً: «شعراء الجحيم هم الأولى بأن يكونوا في الجنة!».

هكذا يفجّرُ أبو العلاء، بذات منهج «البرهان عبر المحال»، أسئلةً عميقة حول مفهومَي الغفران والشفاعة، لاسيما أن أبا العلاء يعتبر في لزوميّاته أن الفضيلةَ يلزم أن تُمارَسَ لِجَمالِها، وليس بحثاً عن جزاءٍ وثواب:

تـوَخَّـيْ جـمـيـلاً، وافـعـلـيـهِ لِـحُـسـنِـهِ
ولا تـحـكـمـي إنّ الـمـلـيـكَ بـه يـجـزي

يتلخَّصُ الدِّينُ المثالي، أو الفضيلة، في فكرِه، بكلمتين: إنصافُ الجميعِ دون تمييز، الالتزامُ بالحقِّ والقانون:

الـدِّيـنُ إنـصـافُـكَ الأقـوامَ كـلِّـهـمُ

وأيُّ دِيـنٍ لآبـي الـحـقِّ إن وجـبـا؟

كلُّ ما عدا ذلك زمزمةُ ذباب وطلفسات..

٣,٣) الحياة الثقافية في الجنّة والجحيم

تبدو الجنّة في رواية «الغفران»، انطلاقاً من صورتِها في المصحف الكريم، عالَم ملذات ومآدب وملاهٍ أبديّة! شعارها السرمدي: «إن أصحاب الجنة في شغلٍ فاكهون، هم وأزواجهم في ظلالٍ على الأرائك متكئون، لهم فاكهةٌ ولهم ما يدّعون!». سكّانُها «مطنطنون» في بحبوحةٍ ونعيم سرمديّ، متكئون كملوك يكفي أن يساورهم حلمٌ ما لِيتحقّق حالاً! يمتلكون ما لا عينٌ رأتْ، ولا أذنٌ سمعِتْ: «إنا أنشأناهنّ إنشاءً، فجعلناهنّ أبكاراً، عُرُباً أتراباً، لأصحاب اليمين».

يكفي، على سبيل المثال، أن يخطر ببالِ ساكنِها بيتُ شعرٍ غراميٍّ لأمرئ القيس (الذي يصطلي في الجحيم في اللحظة نفسها!) لِيجدَ الساكنُ نفسه وسط باقةٍ من الحور العين يتماقلن حوله، ولِيتنقّلَ بينهنّ بعد ذلك من ثَغرٍ لِثَغر، كما وجدَ ابن القارح نفسه أحياناً يُضاجعُ أكثر من حوريّة في آن واحد!

لذلك نسي شعراء الجنة، عندما كان ابن القارح يتحاور معهم، ما قالوه من شِعْرٍ في «الفانية»، فيما كان الحوار مع شعراء الجحيم تفاعليّاً وغنيّاً جدّاً [٦].

هكذا تبدو الجنة في الرواية: مقبرة العقل والذاكرة. لا توجد فيها مكتبةٌ واحدة، رقميّةٌ أو ورقيّة، لا كتابٌ أو متحف!. فيما تبدو الجحيمُ وطنَ الأحرار والمبدعين، مأوى الذاكرة!.

٣,٤) جنّة الجن وجنّة الحيوانات

لم ينس أبو العلاء، انطلاقاً من أسس الميثولوجيا الإسلامية، أن يصفَ جنّةَ الجن الذين أسلموا! جعلهم ينظمون الشعر في روايته، شأنهم شأن البشر!. حوار ابن القارح مع الشيخ الخيثعور من بني الشيصبان، المكنّى أبا هدرش، وقصيدة هذا الجنيّ الطويلة (التي كتبها أبو العلاء بالطبع) عن «رجم الجن لأنهم استرقوا السمع للملائكة»، كما يقول المصحف الكريم، مثيرةٌ للغاية!.

من جانبٍ آخر، صمّم أبو العلاء، بيد فنّانٍ معماريٍّ مدهش، للحيوانات جنّتَها الخاصة، وفاءً لرؤيته الفلسفية التي تعتبرها «أنواعاً» في شجرة «الجنس الحيّ» ذاتها، شأنها شأن الإنسان (كان أبو العلاء نباتياً، شديد العطف بالحيوان!) وجعلها تتحاور أيضاً في قضايا الأدب مع ابن القارح!.

حواره مع حيّات الفردوس في «روضاتها المؤنّقة التي تلعب فيها

الحيّات ويتماقلن، يتخافقن ويتثاقلن»، ونقاشاته معها شديدة الإثارة!.

إحداهنّ مثلاً كانت تسكنُ دار حسن البصري، ثمّ بيت ابن عمرو بن العلاء ثم انتقلت إلى الكوفة لتحيى في جوار حمزة بن الحبيب. ناقشَتْ ابن القارح في أمورٍ أدبيّةٍ ونحويّةٍ مختلفة، شرحتْ له قراءات بعض آيات القرآن التي سمعتها ممن سكنت في بيوتهم، وانتقدت بعض مزاعم النحويين!.

أذهلَتْ بمعارفها ومواهبها الأدبية ابن القارح!. غير أنها عندما خلعت جلدها كحيّة، وتحوّلت حوريّةً «من أحسن غواني الجنّة، ذات رضابٍ أفضل من خمر الدرياقة»، هرب ابن القارح مهرولاً في الجنة وهو يقول لنفسه: «كيف يُركنُ إلى حيّة شرفها السمّ؟»!. ثمّة طباعٌ لا تتغيّر حتّى في الجنّة: لا يثق ابن القارح (بِرُوحٍ بَدويٍّ شديدِ التشكّكِ والحذرِ والارتياب) حتى بالله، وكأنه سيمنحهُ حوريّات برضابٍ ختامهُ سمّ، فيما وعدَهُ برضابٍ ختامهُ مسك!.

٣,٥) جنّة الرجز

إذا كان أبو العلاء قد صبّ تأملاته الفلسفية في وعاء رواية «الغفران»، فهو قد صبّ فيها، قبل هذا وذاك، تأملاته وآراءه وذوقهُ الأدبي.

لم ينس مثلاً أن يُصمِّم «جنّة شعراء الرجز»: «جنّةٌ صغيرة ليس

لبيوتها سموق بيوت الجنّة» لأن «الله يحبّ معالي الأمور ويكره سفاسفها، وإن الرجز من سفساف القريض»!.

٣,٦) آخِرة الكلمات!

مجموع حوارات الرواية وقراءاتها المهنيّة لمئات أبيات الشعر، أجْلَت أن أبا العلاء سيّد لغة العرب بدون منازع، بطريرك كلماتها الذي قيل عنه: «ما قالت العرب كلمةً لا يعرفها أبو العلاء»!.

لذلك عندما قال الشمّاخ بن ضرار لابن القارح في الجنّة إنه نسي ما قاله في حياة الدنيا من شِعر: «لقد شغلني عنه النعيم الدائم، فما أذكر منه بيتاً واحداً»، ردّ عليه ابن القارح، الناطق الأدبي باسم أبي العلاء: «لقد غفلت أيها المؤمن وأضعت! أما علمتَ أن كلمتيك أنفع لك من ابنتيك؟ وإن القصيدة من قصائد النابغة لأنفع له من ابنته عقرب»!.

الكلمات، كما يراها أبو العلاء في «لزوميّاته»، رحالةٌ تعبرُ الزمن، خيولٌ جائلةٌ تسافرُ بِنعالِ الريح نحو المستقبل، تخترقُ القرون. يهوي جسدُ الفارس ويذوي، «ينقلهُ الحتفُ عن عاداتِه»، فيما تواصلُ خيول الكلماتِ، مشرئبةَ الأعناق، رحلتَها الأبديّة في دنيا الخلود، كما يقول أبو العلاء:

لا خيلَ مثل قوافي الشعرِ جائلةً
أبقى على الدّهرِ أعناقاً وآطالا

إن ينقُلِ الحتفُ عن عاداتهِ بطلاً
ما تزالُ معانيهنّ أبطالا

«في البدء كانت الكلمة»، تقول فاتحة التوراة! لا أعرف! ربما كان ذلك حقّاً، من يدري!.

لكن «في الأخير لا تبقى إلا الكلمة»، «لا آخرة إلا للكلمات»، كما يقول ضمنيّاً حكيمُ العربِ الأمجد!.

٤) رواية الغفران والاتجاهات الثلاثة في علاقة المؤلف بعفريته

يتحدّث أبو العلاء في بداية الرواية كشخصٍ في النص، بشكلٍ موازٍ لِعفريته، بما يتوافق والاتجاه الأول من الاتجاهات الثلاثة لعلاقة المؤلف بعفريته التي أشرنا لها في مدخل هذه الدراسة. يستخدم ضميرَ المتكلم، في بعض الصفحات الأولى من الرواية ([١]، ص ٢٦، ٤١). يختفي المؤلفُ كشخصٍ في الرواية بعد ذلك، لِتراوح الرواية بين الاتجاهين الثاني والثالث.

في كل حوارات عفريته مع أهل الأدب من بشرٍ وجنٍّ وحيوانات، يلتزم سردُ أبي العلاء بالاتجاه الثالث: يقبعُ المؤلف في دولاب مكتفياً بتنظيم تحوّلات عفريته الذي يمتلك في واقع الحال وجهين بلاستيكيّين: له، في كينونته الأدبية، آراء أبي العلاء وله سلوك وروح ابن القارح عدا ذلك.

أروع ما في كلّ ذلك أن المؤلف يجعل كلّ الاستنتاجات الأدبية المتعلّقة بأشعار من يحاورونه تخرج من أفواههم وليس من ابن القارح! . ثمّة ذكاء وفنيّةٌ بليغة ومهنيّةٌ عالية في هذا الاختيار! .

لعلّ الحوار التالي، الذي يبرهنُ فيه آدمُ نفسُه أن كلّ ما قيل باسمه من الشعر منتحَلٌ، يُجلي ذلك الأسلوب الرائع في استنطاق الاستنتاجات من الساردين الآخرين أنفسهم. يعطي ذلك الأسلوب لهذه الاستنتاجات قيمةً أهمَّ وأكبر، ينوِّعُ أصوات اَلرواية وأبعادها الفاعلة، يشدُّ القارئ لمتابعةِ تفاصيل السردِ وتطوّرات تفاعلاته، ويعمِّق إيمانهُ بصوابِ الاستنتاجات. يستخدمُ أبو العلاء في حوار آدم وابن القارح، كعادته، المنطقَ، التحليلَ اللغوي، ضربَ الميتافيزيقيا بالميتافيزيقيا للوصول إلى نتائجه:

((فيلقى ابن القارح آدمَ، عليه السلام، في الطريق فيقول: يا أبانا، صلّى الله عليك، قد رويَ عنك شِعرٌ منه قولك:

نحن بنو الأرضِ وسكّانُها
منها خُلِقنا وإليها نعُودْ

والسُّعدُ لا يبقى لأصحابِهِ
والنحسُ تمحوهُ ليالي السُّعود

فيقول: إن هذا القول حق، وما نطقهُ إلا بعضُ الحكماء، ولكني لم أسمع بهِ حتّى الساعة! .

فيقول: لعلّك يا أبانا قلتَهُ ثمّ نسيت! فقد علمتُ أن النسيان متسرِّعٌ إليك، وحسبكَ شهيداً على ذلك الآية المتلوّة في فرقانِ محمّد، صلى اللهُ عليه: «ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي، ولم نجد له عزماً!».

يقول آدم، صلّى اللهُ عليه وسلّم: «أبيتم إلا عقوقاً وأذيّة، إنما كنتُ أتكلّمُ العربية وأنا في الجنّة، فلّما هبطتُ إلى الأرض نُقِلَ لِساني إلى السريانية، فلم أنطق بغيرِها إلى أن هلكتُ، فلمّا ردّني الله، سبحانه وتعالى، إلى الجنّة عادت عليّ العربية!.

فأي حينٍ نظمتُ هذا الشِّعر: في العاجلة أو الآجلة؟... والذي قال ذلك يجبُ أن يكون قاله في الدّار الماكرة، ألا ترى قوله: «منها خُلِقنا وإليها نعود»؟ فكيف أقول ذلك ولساني سريّاني؟

وأما الجنّة، قبل أن أخرجَ منها، لم أكن أدري بالموت فيها. وأما بعد رجوعي إليها فلا معنى لقولي: «وإليها نعود» لأنه كذبٌ لا محالة، ونحن معشر أهلِ الجنّة خالدون مخلّدون!...))

٥) خاتمة

عبر نقْشٍ ثريٍّ عارمِ الخيال لِعوالم الجنّة والنار، كتب أبو العلاء نصّاً بديعاً يتقاطع فيه السّردُ الروائي بالتأملات الفلسفية.

استخدم منهج «البرهان عبر المحال» ليصل نصّه هذا لِـ«ذي الدّين» و«ذي العقل» في الوقت نفسه، ولِيستولي عليهما معاً منذ عشرة قرون!.

تزداد رغبة الأوّل شوقاً ولهفةً لِـ«نعيم» الجنّة بعد قراءة النص، فيما يتساءل الثاني حول فحوى مسلّمات هذه العقائد، يرتبك، يضحك، يصطدم... وكأن أبو العلاء أراد أن يؤكد في «رواية الغفران»، قبل هذا وذاك، ما قاله في «الزوميّاته»:

اثـنـانُ أهـلُ الأرضِ: ذو عَـقـلٍ بـلا
دِيـنٍ، وآخـرُ ديِّـنٌ لا عـقـلَ لـه

الهوامش

(١) رسالة الغفران، أبو العلاء المعري، دار صادر، بيروت.

(٢) Mon zombie et moi, la philosophie comme fiction. Pierre Cassou-Noguès. Ed. Seuil, 2010.

(٣) L'atelier du roman, Mars 2010, Ed. Flamarion, n. 61, Paris

(٤) La connaissance de l'écrivain, Jacques Bouveresse, Ed. Agone, 2008.

(٥) Les Impératifs, poèmes de l'ascèse. Edition bilingue. Ma'arrî. Traduits et commentés par H. H. Vuong, et P. Mégarbané. Ed. Sindbad, 2009.

(٦) راجع فصل: الجنة والجحيم في ملكوت رسالة الغفران.

تأملات من وحي «سبعة أجيال من قاطعي الرقاب»!

(١) مدخل

ماذا يدور في رأس الإنسان في السويعات الأخيرة التي تسبق شنقه أو إعدامه؟. دهمني هذا السؤال عندما رأيت على الشاشة الخطوات الأخيرة لِصدام حسين نحو المشنقة!.

سكنتني مُذّاك أسئلةٌ متفرِّعةٌ تابعةٌ عدّة: ما هي آخر المشاعر والذكريات التي تضطرم في دماغ الإنسان حينذاك؟ أيسكنه هاجس الرغبة في الهروب من السجن، أم أمل الخلاص بمعجزةٍ ميتافيزيقيّةٍ ما أو بقرارِ عفوٍ مفاجئ، أم يحلم (يا له من حلم!) بتحوُّلِ عقوبة الإعدام إلى عقوبة أشغال شاقّةٍ مؤبّدة؟.

أتراودهُ، بعدم اكتراثٍ أرستقراطيٍّ رفيع، «طززٌّ» هادئة صمّاء ترنَّمَ بها شاعرٌ يَمنِيٌّ أبيّ:

ومن لم يمت بالسيف مات بغيرهِ
تعدّدتِ الأسبابُ والموتُ واحدُ

أم أنّه يتمتمُ بدل ذلك، بيأسٍ قاتل، عبارةَ فيكتور هيغو: «وداعاً أيها الأمل! وداعاً أيتها الورود والطبيعة والريح! كلّ ذلك لم يعد لي! ومريم، مريمي الصغيرة المسكينة! من سيحبك بعد الآن؟... قلبي يدمي كل ثائرته».

أيشتعلُ دماغهُ ندماً وأسى حال يقينه بأنه لن يجلس بعد اليوم في بلكونةٍ مفتوحة على الطبيعة، المحيط، العصافير، الكثبان البيضاء، السفن البعيدة؟ لن يستنشق عطراً أنثوياً رقيقاً تتخلّله نسماتٌ من «عرَقِ الآلهة»! لن يُقبِّلَ خصراً رشيقاً لميسَ البشرة، ينساب في نهايتهِ وَركٌ رهيفُ التكوّر!.

أيحلمُ أن يبقى يوماً إضافيّاً واحداً، ساعةً واحدة، دقيقةً فقط، في هذه الحياة الفانية (التي فضّلها أوليس، بطل الأوديسيا، على حياة الآلهة، عندما رفض الخلودَ الذي عرضته له كاليبسو، الإلهةُ الخارقة الجمال، الأبديّةُ الشباب، التي تحيى في جنّة تكتظُّ بكل ما يحلمُ به الإنسان!)؟

أتعتوره أحلام سوداء يرى نفسه فيها يحملُ رأسَهُ بيده؟ هذا الرأس الذي سيجزره السفّاح بعد لحظات، لِيرتطم بالأرض وتتطاير خصلات دماغه ودمائه (قبل أن تلعقها كلاب آخر الليل وفئرانه وصراصيره)!.

«سبعة أجيال من قاطعي الرقاب» عنوان كتاب كبير، فريدٍ ومثيرٍ جداً وقع في يدي بالصدفة قبل أيام. نشره في ١٨٦٢ هنري كليمان سانسون، آخر سلالةٍ من سبعة سيافين، قَطعَتْ رقاب آلاف ممن حَكمتْ عليهم محكمة باريس بالإعدام، منهم: الملك لويس السادس عشر وزوجته ماري أنطوانيت، قادة الثورة الفرنسية: دانتون، روبيسبيير ورفاقهم... وأسماء أخرى متنوعة كثيرة: «مجرمون ستتقيؤهم جهنم»، أبرياء، عشّاق متهمون بجرائم غرامية!. رسم الكتاب بإيقاعٍ مدهش تفاصيل «يتوبسياء» ساعاتهم الأخيرة!.

تختلط في الكتاب ثلاثة روافد:

١) دراسة تفصيلية مفيدة لتاريخ الإعدام تسرد صنوف التعذيب والتنكيل وطقوس احتفالات الإعدام منذ قرون، حتى مرحلة الإعدام «الناعم» بالمقصلة دون تعذيب، غداة الثورة الفرنسية.

٢) تفاصيل السيرة الذاتية لحياة سبعة جلادين، كتبوا في مذكراتهم، بأسلوب أدبي شيق وحساسية عالية، يوميات حياتهم الحميمية التي تناقلوها بكل تفاصيلها الصغيرة. بدأت هذه السلالة بشارل سانسون (سانسون الأوّل!) الذي وُلِدَ في ١٦٣٥، وانتهت بهنري سانسون (سانسون السابع، أو السيّاف الأخير!) مؤلف الكتاب، مروراً بسانسون الرابع (سانسون الأكبر!)، السيّاف ـ الكاتب الذي كان يقضي كل ليلة في كتابة يومياته وانطباعاته الشخصية، والذي بتر وحده أكثر من ٢٧٠٠

رأس، في الحقبة المسعورة التي سبقت وتلت الثورة الفرنسية!.

٣) سردٌ أدبيٌّ شديدُ الإنسانية والرقة كتبه هؤلاء السفّاحون (قد يبدو ذلك غريباً جداً، لكنه كذلك!) لوصف دقائق الساعات الأخيرة التي سبقت جزْرَهم لرقاب من حَكَمْتْ عليهم محكمة باريس بالإعدام بالشنق أو بحدّ السيف أو المقصلة! وثّق هؤلاء السبعة كل إعدامٍ نفّذوه في يومياتٍ كتبوا فيها انطباعاتهم وأحاسيسهم بشكلٍ مذهلٍ آسر!.

(٢) طقوس التعذيب والتنكيل قبيل الإعدام

سأنطُّ فوق القسم الأول رغم أهميته الشديدة. تلزم لقراءته مقدرةٌ فوق إنسانية على عدم الغثيان والطرش!. لعلّ الفصل الخاص بإعدام سامسون الثالث لِداميان، الذي حاول اغتيال الملك لويس الخامس عشر، مرعبٌ بشكل خاص! ثمّة ساديّةٌ لا حدّ لها عند الانتقال من صنف تعذيبٍ لآخر، بعد تخمين وحساب ما يتبقّى للمتهم من قوةٍ وإمكانيةِ حياة، من أجل مواصلة باقي أصناف التعذيب الأخرى في ضوء ذلك الحساب الشنيع (دون نسيان أي صنفٍ يخطر أو لا يخطر ببال)!. يُجلي ذلك الفصل بوضوح خصوبةَ همجية الخيال البشري وثراء وحشيته! تبدو جهنم بالمقارنة بما عاناه داميان روضةً من رياض الجنّة!.

ثمّة لحظة مهمة في ذلك الفصل: مرحلة إدخال الإعدام

بالمقصلة («الجيوتين» بالفرنسية، نسبة لاسم الدكتور جيوتين الذي اقترح ذلك، بتأييد روبيسبيير، على البرلمان، بعد انتصار الثورة الفرنسية) كأسلوبٍ «حضاريٍّ» متكافئ وعادل يؤدي إلى إعدام المتهمين دون التنكيل بهم أو تعذيبهم. يساعد ذلك أيضاً على تلافي إمكانية هفوات السيافين وأخطاء ضربات سيوفهم أثناء بتر الرأس، التي تهشِّمُ الفك أو تعبث بالصدر أحياناً!.

المقصلة عمودان تفصلهما شفرة عريضة، مائلة الحد. يضطجع المتهم أفقياً أسفلها وهو موثوق الجسد بالحبال، قبل أن تسقط على رقبتهِ شفرتُها المرعبة بلمحة برق!. «دقيقة ألمٍ فقط»، كما كان يُقال! دقيقةٌ واحدة ربما، لكن «كل ثانية تسبقها تساوي عاماً من الرعب والرجفات»، كما يقول السفّاحُ الأخير!.

لعلّ مقصلة الثورة الفرنسية مثّلت خطوة متقدّمةً لـ«حضارةٍ جديدة تبحث عن صياغة عَالمٍ جديد»، لاسيما بعد إنهاء طقوس التعذيب والتنكيل التي تسبق الإعدام، وإدخال قوانين وحقوق أكثر إنسانية في التعامل مع المُدانين بالموت!.

غير أن تقاليد احتفالات الإعدام لم تتغيّر: يحتشد المتفرجون لرؤية طقوس الإعدام، يشترون مواقعهم بثمنٍ غالٍ أحياناً. تأسرهم السعادة والنشوة لرؤية ذلك، يا للفظاعة! يُحمَلُ الرأسُ بعد سقوطه في السلّة الحمراء لِيُعرضَ أمامهم! يُصفّقون بهرج ومرج! (الرعاع تصفّقُ دوماً)! ضحكات ضباع تدوّي ملء ساحة الكونكورد!. ما أقبح الإنسان!.

انتقد برودوم (رفيق دانتون) بشدّة، في برلمان الثورة الفرنسية، هذه التقاليد «غير اللائقة بشعبٍ مضيءٍ إنسانيٍّ حرّ»، كما قال!. ثمّ اختفت أوّلاً بأول بعد الثورة الفرنسية كلُّ طقوس الإعدام التي كانت تُستهلُّ ببرنامج تعذيب متنوِّعٍ خاص للأيام التي تسبق الإعدام، ثم بطقوس احتفالية متميّزة في يوم الإعدام نفسه: تبدأُ بتجوال المُدَانِ في عربةٍ لِعرضهِ على الملأ في شوارع باريس، حتى حلقِ شعره وخلع ثيابه من قبل غلمان وأعوان السيّاف، قبل لقاء الاعتراف الأخير مع القديس الذي يلقي خطبته المنافقة الجوفاء الشهيرة.

(٣) سِيَر الجلّادين

سير حياة السفاحين السبعة تحتل حيزاً كبيراً في الكتاب! أوّلهم شارل سانسون، رأس السلالة، الذي كان يتيماً منذ فجر طفولته. سقط في بدء شبابه في غرامٍ لم يكتب له النجاح. تلاهُ غرامٌ آخر مع مارغريت، ابنة سيّافٍ اشترط عليه للزواج منها أن يكون سيّافاً بعده، «كي لا يتجرأ على السخرية من مهنة عَمِّه أمام أبنائه»!.

ثم توارث إبن شارل سانسون وأحفاده المهنة نفسها، معتبرين أنفسهم «ورثةَ سيفِ القانون»، يتوارثونه كما يتوارث الملوك صولجاناتهم!. يعرفون مع ذلك أنها أصعب وأبشع مهنة!. السيّاف في الوعي الجمعي وحشٌ لا ترقُّ له قناة! «السياف رديفٌ للشيطان، مجرّد رؤيته تملأ الإنسان هلعاً»، كما قال بطل

رواية فيكتور هيغو «آخر يومٍ لِمحكومٍ بالإعدام»!.

السيّافون (أو «منفِّذو الأعمال الكبرى» حسب التسمية الرسمية في النظام القديم، «المنتقمون للشعب» حسب بلاغةِ الثورة الفرنسية) شريحةٌ اجتماعية مغلقة، مُحصَّنة، يهابها وينبذها المجتمع. تتوارث مهنتها أباً عن جد!.

المدهش جدا أن السيافين من سلالة سانسون رجالٌ ذوو أحاسيس إنسانية رقيقة، كما تبرهن كتابتهم!. كان الفقراء يخرجون لتأبين جنازاتهم بأعداد كبيرة!. في مجمل ذلك ما يفسّر بشكل أو بآخر استغراب بطل رواية فيكتور هيغو عند رؤية الجلّادِ أمامه يُحدِّثه برقة، يسأله وهو يربط وثاقه إن لم يؤلمه قليلاً، يعتذر له بلغة وأحاسيس خالفت كل توقّعاته: «عفواً سيّدي! أآلمتكَ قليلاً؟»!. «لم أتصوّر أن السفّاحين رجالٌ ناعمون!»، يقول بطل فيكتور هيغو!.

لعلّ الأسطوريّ والواقعيّ يختلطان في هذه الصورة الإنسانية المفرطة لهذه السلالة من الجلّادين. لعب سانسون الأول في ذلك دوراً خاصاً كما يبدو، لاسيما بعد تقاعده وانعزاله، وتكريس حياته للحب والتقوى ودعم الفقراء (لطلب المغفرةِ من «جرائمه القانونية»؟). استطاع في كل الأحوال أن يؤسس سلالةً وسمعةً فرضت نفسها، ليكون أحفادُه مثله: «إنسانيين قبل الإعدام مباشرة، وإنسانيين بعد الإعدام مباشرة»، على حدّ تعبير المؤرخ برنار لوشاربونيه!

وصْفُ هنري سانسون للصعوبة الاستثنائية لأول إعدامٍ يقوم به الجلّاد لافت للنظر تماماً! لعله، مثل العشق الأول، لحظةٌ تلتصق بالذاكرة بعنف! أثارني هذا التماثل الرهيب في تجربتين إنسانيتين شديدتي التنافر!: سقوط بعض أفراد سلالة هؤلاء السفّاحين مغشياً عليهم، عند ممارسة أول إعدامٍ لهم، يؤكد أننا أمام جلّادين أقل فظاظة مما نتصوّر، أكثر رومانسية ورقّة مما نتوقعه بكثير!.

يُذكر أن هذا الكتاب الذي لخّص فيه آخر السيافين يوميات أجداده وتجربته الشخصية، وصيّةٌ أدبية (يسميها هنري سانسون: «وصية السفّاح الأخير») تنادي بأقوى وأشد العبارات الصارخة بإلغاء عقوبة الإعدام معتبرةً إياها «آخر قلاع الهمجية والبربرية الإنسانية»!. اقترح إلغاء هذه العقوبة، لأول مرة، الكاتبُ الإيطالي سيزار بيساريا في كتاب سريٍّ في ١٧٦٤. لم يتحّقق ذلك في فرنسا إلا في ١٩٨١ فقط، بعد وصول اليسار إلى السلطة!. لم يفلح روبيسبيير على سبيل المثال، قبل ذلك بقرنين، في تمرير مقترح إلغاء عقوبة الإعدام على برلمان الثورة الفرنسية!.

الجسد البشري، كما يقول السفّاح الأخير، «صنع الإله! هو وحده من يمتلك الحقّ بإلغائه!». لا يخلو الكتاب أيضاً من نقدٍ وسخرية عنيفة من «العدالة الإنسانية» وهي تتحدث باسم «العدالة الإلهية»!.

لعلّ إلغاء عقوبة الإعدام مؤخراً في حوالى ٧٥ بلداً (الفضاء الأوروبي لا يسمح لدولة بالانضمام إليه دون ذلك) يمثّل رمزاً حضاريّاً دون شك! غير أن الوحشية والعنف الإنساني لم يضمحلّا إثر ذلك إطلاقاً!. تعجُّ العقود الأخيرة بمجازر زاخرة: الإبادات الجماعية في هيروشيما وناغازاكي، رصاصات النازية في معسكرات التعذيب والقتل الجماعية لاسيما أوزفيتش، الإعدامات السوفياتية والصينية للمخالفين للسلطة، كل الحروب الاستعمارية الإقليمية والعرقية الوحشية في السنوات الأخيرة! إلخ.

لعل الاتجاه العام لتقبّل الإنسان الحديث للإعدام صار ملطّخاً بالمفارقات، مثيراً للحيرة: يغشى الإنسانَ المتحضّرَ التقززُ (هو رائعٌ في ذلك) عند أي إعدام مباشر، وجهاً لوجه! لكنه ينظر بعدم اكتراث للإعدام التقنيّ الحديث الذي تقوم به الدول القوية بمعدات تكنولوجية تضرب عن بُعد، تسحق الأطفال والشيوخ والأبرياء بكميات تجارية!. كأنه لا يميّز بين هذا السحق الفعليّ الملموس عندما يراه على الشاشة، ومشاهدة فيلم مجرّد عن حرب خيالية في الشاشة نفسها. كأنه يخلط بين فسيفساء ألعابٍ نارية، وفسيفساءِ صواريخ مثل تلك التي ملأت سماء بغداد!.

أو لعله يرى قبحاً في الإعدام اليدويّ القروسطي، وجماليةً ما في الإعدام التكنولوجي الحديث! يكفي استرجاع مآسي فلسطينيّي غزة، للشعور بالخيبة من شدّة نفاق هذا الإنسان

الحديث الذي ألغى عقوبة الإعدام مع ذلك! . السحل الجماعي بأحدث الأسلحة التكنولوجية، والحرب «المُطْلَقة» التي تحصدُ أكبر عددٍ من الأبرياء بأسرع وقت (على الطريقة النازية) لا تثيران غضبه وتقزّزه كثيراً! ألا يحتاج أحياناً إلى تذكيره بحقيقةٍ صغيرةٍ فاقعة: «أن ترى طائرة تغير على شاشة تلفزيون غير أن تراها بالعين الهلعة، أن تسمع صوت الانفجار على الشاشة غير أن ترتج بك الأرض ويتطاير حولك الكون كله»، حسب تعبير أمجد ناصر في مقالٍ له في «القدس العربي»؟ .

لأسمح لنفسي بالقول: لا يحق للإنسان الحديث ادعاء التحضر طالما سالت قطرة دم واحدة، لأي إنسانٍ كان، في أي بلدٍ كان، بأيٍّ سلاحٍ كان، ولأيِّ سببٍ كان! .

(٤) آخر ساعات المحكومين بالإعدام

الجزء الأكبر من الكتاب يسرد سيرورة الأيام والساعات الأخيرة من حياة رتلٍ متنوّعٍ من المحكومين بالإعدام يتنقّل بين «مجرمين ستتقيؤهم جهنم» حتّى عشّاقٍ جميلين رائعين قُتلوا بسبب ما آلت إليه تداعيات العشق من «جرائم»! .

لا تفوت على «السفّاح الأخير» ملاحظة «جمالية الجريمة» فيما ارتكبه بعض المحكومين عليهم بالإعدام أحياناً! ثمّة جماليةٌ ما، في الحقيقة، حتى في أكثر الأحداث شناعة! . (تحدّثتُ في مؤتمر العجيلي للرواية بالرَّقة (سوريا، كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٨)، الذي تخصّص بدراسة جماليات الرواية، عن

جماليات الخراب، انطلاقاً من نص الإلياذة: «إحدى تجليات عبقرية الإلياذة تكمن في قدرتها على رؤية الجمال في أشنع وأقبح نشاط إنساني: الحرب! لا أدري من قال: «ليسمو الفن حتى في تدمير العالم!». هكذا حال حرب طروادة التي تدور حولها كلُّ الإلياذة: سيمفونية من قرعات السيوف، التحام الأجساد، صرخات الموت. سفنٌ مدمّرة، صهيلٌ وأبواق، سيولُ دماء. سيمفونيةٌ محبوكةٌ من نبرات العنف والخراب، لكنها شديدةُ الجمال أوّلاً وأخيراً!...»).

لعلّ أكثر ما يلفت النظر عند قراءة تفاصيل الساعات الأخيرة لطابور الرقاب المبتورة هو أن سلوك المدانين في تلك الساعات الحاسمة شديد التنوّع والاختلاف، يصعب حصره أو استشرافه، غامضٌ غالباً، معاكسٌ أيضاً لما نتوقعه أحياناً. يصعب فعلاً سبر النفس البشرية، وتصنيف وأرشفة تنوعات أحاسيسها، لاسيما عندما يكون الموت على بعد مليمتر فقط، أقرب من حبل الوريد!.

رهبة الموت، عندما يبدو أكيداً بعد دقائق، تجعل بعض من صمدوا أمام كل أنواع التعذيب يستسلمون ويعترفون ويكشفون هويّة رفاقهم قبيل الموت بدقائق! كأنهم لا يستطيعون مقاومة ظمأ الحياة ولو لِهنيهات قليلة إضافية. فيما آخرون كتسحهم الثقة حتى آخر لحظة بأن القبر الذي سيخرّون فيه هو عرشٌ ينتظرهم، يحنّون للوصول إليه بأسرع وقت!.

بين أولئك وهؤلاء تتنوّع الحالات كثيراً: نفوسٌ من فولاذ «ذوو أعين خلقت لئلا تبكي» تنهمر دموعها فجأة في آخر اللحظات! (ما هي الذكريات أو الأحاسيس التي كهربت أدمغتها في تلك اللحظة بالذات؟) فيما آخرون عاديون جداً، لم يُعرفوا بِشجاعةٍ متميّزةٍ أو جرأة خاصة في حياتهم، يتقدَّمون نحو الموت بنفس هادئة، تصرّ أن يكون ديكور آخر لحظات وداعها للأرض فخوراً (أيُّ مدلولٍ جبّار يمثله الفخر بالنسبة لهم، ليطغى على كل الأحاسيس الأخرى؟).

بين هؤلاء وأولئك حالات كثيرة «طبيعيةٌ جداً»، إن جاز القول: مدانون تبدو عليهم رجفة الموت، تَصلُّب الرقبة، صعوبة بلع الريق، اضطرابُ الرموش.

تزدحم، خارج هذه الدائرة، حالاتٌ كثيرةُ التفرد والخصوصية:

ثمّة من يصرخ وسط أبشع أنواع التعذيب متحدّياً: «مزيداً! مزيداً!» وكأنه يتلذّذُ فعلاً بما يُسمى «سكرة الألم»!.

ثمّة، مثل دانتون، من ظلّ وفيّاً لشخصه بدقّة كبيرة: ظلّ فظّاً غليظ القلب بذيئاً يشتم أعداءه بتعالٍ هائل حتى لحظة بترِ رأسه!. فيما فَابْر، رفيقه، تمتم قبل موته هذه العبارة الجميلة المذهلة: «لأتعلّمَ كيف أموت! لأتعلّمَ كيف أموت!...»

ماذا يحدث عندما يسقط الجلاد في غرام من سيبترُ رأسَها بعد لحظات؟.

مدام انجيليك تيكيت في الثانية والأربعين من العمر، «مخلوقةٌ ساحرة»، كما قال شارل سانسون! كانت أجمل وأروع وأذكى نساء باريس حينها، كما يقال! أُتُهِمَتْ بقتل زوجها بعد تدهور علاقتهما وسقوطها في عشق آخر.

يحكي شارل سانسون دقائق عبورها ساحة الإعدام بمعطفها الوثير الأبيض، بقوامٍ بديع وخطوات ملوكية. تشكر القسيس بصوتٍ ساحر ولغة متعالية حصيفة على «مواساته وسلوانه بكلماتٍ طيّبة ستحملها معها للرب»! يصف السيّاف لمساتها الأخيرة لِشعرها الراقص على كتفيها، وكأنها ستقابل عاشقها بعد لحظات! تسأل السفّاح قرب خشبة بتر الرأس، بلغةٍ أرستقراطية: «أيمكنكم، أيها السيّد الطيب، أن تشرحوا لي في أي وضعٍ تحبون أن أكون!».

أمام ذوبان شارل سانسون وهو يرى هذه المخلوقة الساحرة تواجه الموت بهذه النعومة، تضع أنجيليك رأسها لوحدها على خشبة البتر! «أأنا كما يلزم أيها السيّد؟»، تضيف!. هاهي تواصل إثراء حياتها الأنيقة حتى آخر لحظة!.

«سيف العدالة» يخرّ بكل عنفهِ وبشاعته على جِيد هذه المخلوقة الجميلة! يتفجّر الدم عنيفاً، غير أن الرأس لم يسقط!. ضربة سيفٍ ثانية فوق نفس هذا الرأس الفاتن!. تصلُّبٌ غير أليف، لرأسٍ بالغ الرقة! سيل الدمِ أعمى الجزّار، كما يبدو! أو أن ضرباته تتلعثمُ وترِقُّ أمام جمالِ هذا الرأس الذي لا يستطيع

جزَّه!. ما زال لم يسقط! الجماهير تدوّي و«تُصفّر» بين نشوةٍ وسخط من هذه المجزرة، بين تهديدٍ ووعيد للسيّاف!.

الضربة الثالثة: الرأس الذي يُقدِّسُه الجلّاد يهوي أمام رجليه!.

شارل سانسون الذي يصاب بعد كل إعدام بحالة هذيان، كان في دوّامة تذمّر وغثيان لا توصف! «رأس انجيليك الذي ظلَّ وقتاً طويلا فوق خشبة الإعدام، باتجاه «بلدية باريس»، حافظ، كما يقول من رأوه، على نُبلِهِ وجماله!» كلمات الجلّاد هذه لا تخلو من عدم موضوعية العاشق!.

«تحققت العدالة الإنسانية!»، قالت الصحف حينها! «أريد أن أسأل العدالة الإلهية رأيها في ذلك»، قال الجلّاد!.

لعلّ أكثر حالات الإعدام إدهاشاً هي حالة ذلك المُدان الذي ظلَّ يقرأُ بحماسة واهتياج، دون توقّف، طوال الأيام التي سبقت لحظة إعدامه!.. ثمّ، بصَلفٍ أرستقراطيٍّ نبيل وتعالٍ لا حدّ لرهافته، توقّف عن القراءة، «أثْنَى» زاويةَ رأس الصفحة التي كان يقرأها (يا للسحر! يا للعظمة!)، قبل أن يضطجع أسفل المقصلة!.

انحنيتُ إعجاباً أمام جلال هذا المشهد!.

امرأة ترى في العربة التي تحملها إلى المقصلة شاباً حزيناً مداناً مثلها، يكاد يقتله الشوق والأحزان والهلع. تتحدّث معه برقة

وعطفٍ وروح فكاهة! تتمكن من إضحاكه أيضاً!. يُبَشِّرُها السيافُ حال وصولهما بأنها «ستمرُّ» قبل الشاب! ترفض ذلك حتى لا تتفجّر أحزان الشاب من جديد بعد فراقها! يرفض الجلّاد بشدّة، لأن ذلك ترتيبُ المحكمة! تردّ عليه بِكياسةٍ ثاقبة لا أستطيع وصف سِحرِها: «أيها السيد! كيف لكم أن ترفضوا لامرأةٍ طلبَها الأخير؟»!.

ينحني السفّاح عند رغبتها ويدعها للدور الثاني، كما طلَبَتْ، ولو خالف ذلكَ المزاجَ الحضاري: «المرأةُ أوّلاً، Ladies First»!.

نظرات لويس السادس عشر في زوايا ساحة الإعدام قبيل قطع رأسه، وكأنه ينتظر مجيء مواليه لإنقاذه، تُذكِّرُ بزيغ نظرات تشاوشيسكو (حاكم رومانيا السابق) وزوجته، في زوايا المكان، بحثاً عن منقذٍ يصلُ قبل إعدامهما! الملوك كما يبدو، يعتقدون دوماً أنهم لا يمكن أن تنتهوا مثل ضحاياهم!.

ردّد لويس السادس عشر في لحظةٍ ما، مثل تشاوشيسكو وصدام حسين، بنفس المنطق الأعمى، هذه العبارة الجوفاء التي تثير الرثاء: «إنها خيانة!».

لم يفشل لويس السادس عشر، رغم ضعف شخصيّته، في الموت بلياقة خلال سيناريو ساعاته الأخيرة، كما يبدو من قراءة نص سانسون الرابع.

صدّام حسين، هو الآخر، لم يفشل في إخراجِ أشَمّ لِسيناريو ساعاته الأخيرة وهو يتوجّه نحو المشنقة واثق الخطوة هادئ الابتسامة، رغم أن حياته كانت سلسلةً نقيّةً متواصلةً من العنف والفشل والهزائم التي حوّلت العراق العظيم إلى مستعمرةٍ للأميركان (سقط نظامُه كقصرٍ من وَرق، ضاعت ثرواتُ بلده عبثاً في سياسات وحروبٍ سخيفةٍ فاشلة، ورمى طاغوتُه الملايينَ من شعبهِ في أحضان الموت والدمار والشتات)!. بالعكس من ذلك، كانت لحظةُ إعدامِه هديّةً قدّمها له خصومُه لِبعد مماته: أثاروا غضبَ الجميع، بمن فيهم ضحاياه، من ذلك الإعدام غير الإنساني الحقير، وأثبتوا أنّهم يتمتعون بذات البشاعة وروح الانتقام السافل!.

لا أدري، يبدو كلُّ شيء كما لو أن السفّاحين المنتصرين يعملون كل ما بوسعهم كي يُعدم الحكام المخلوعون بسيناريو فخورٍ لائق! كأن في ذلك عهداً سريّاً قطعه السفّاحون بينهم منذ الأزل!.

(٥) خاتمة: أدب السفاحين لسان العرب؟

كتاب سانسون أثار ضجّة واهتماماً كبيرين عند نشره في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. ما زال إلى اليوم حاضراً في الوجدان الفرنسي، يُستلهمُ في بعض الأعمال الأدبية بأكثر من شكل، رغم أن الحياة المعاصرة تجاوزت سياقَه تماماً!

ماذا لو كتب السفّاحون العرب مذكراتهم ويوميات ضحاياهم أيضاً؟ لماذا لا يحقّ لنا، على الأقل، أن نقرأ مجازر إباداتنا الجماعية اليومية؟ أليس لنا في هذا التراث الحيّ النابض المتأبد صاعٌ وباعٌ نفوق به الأمم؟ ألا يجدر بـ«أدب السفاحين» أن يكون «لسان العرب»، قبل أيِّ نوعٍ أدبيٍّ آخر؟ أنحتاج إلى جوائز أدبية، بأسماء سفاحينا التاريخيين والمعاصرين، ليزدهر هذا النوع الأدبي، الذي يلزمنا تحريره لنتحرر منه؟.

المحور السادس: الربيع العربي

دفاعاً عن مُعمّر القذافي!

(١)

أعترف منذ البدء بأني لا أكنُّ عشقاً خاصّاً لِملِك ملوك أفريقيا، الذي أعتبره في الحقيقة صعلوكَ صعاليك الكرة الأرضية!.

لم أتلكأ في الحقيقة، منذ أن بدأتُ الكتابة، عن التعبير عن مقتٍ جذريٍّ لِمعظم القادة العرب الذين احتلَّ القذافي موقعاً متميّزاً فريداً في طليعتهم.

لعله كان وحيدَهم الذي تمنيتُ في قرارة نفسي، وقبلتُ ولو على مضض، أن يرحل عن السلطة قبيل علي عبدالله صالح (بلطجيّ بلاطجة رؤساء العرب بامتياز) الذي يعلمُ اليمن كم جوّعه ونهبه ودمّره وأوصله لحضيض التخلف والتشظّي والانهيار!.

(*) (نُشِرَ هذا الفصل غداة إلقاء معمر القذافي خطابه الشهير في بدء اندلاعة الثورة الليبية.).

بعد هذه المقدمة التي تبرئ عنوان مداخلتي من كل شبهة، أقول إن طيفَ سقوط معمر القذافي (الذي ربطتني به في أواخر التسعينيات من القرن المنصرم علاقةٌ حميميةٌ خاصةٌ جدّاً، سأتحدث عنها بعد قليل!) راود دماغي منذ أن بدأتْ جماهير الثورة العربية المعاصرة تُردِّدُ كلّ يوم أقدس وأنصع الآيات: «إرحل»، «الشعب يريد إسقاط النظام».

(٢)

يلزمني أن أقول أوّلاً إني، مثل كلِّ من فقد الأمل بثورةٍ عربية تنقلُ شعوبنا المهانة من عوالم الظلمات والاستبداد إلى عوالم الحريّة والعقل ومواكبة العصر، انتقلتُ من دهشةٍ لدهشةٍ أكبر، مع تقدُّمِ يوميات الثورة العربية:

عشتُ أوّلاً مخاض ولادةٍ جديدة حال هروبِ بن علي وانتصار الشعب التونسي. استيقظتْ حينها في دماغي أحلامٌ أمستْ لا تتجرأ حتى مراودتي في المنام!.

ثمّ جاءت ثورة مصر لأحيى ولادةً ثانيةً جبّارةً فعلاً!. يكفي أن أتذكّرَ تفاصيل كيف عشتُ عن بُعْد يوميّات ميدان التحرير، ثمّ كيف قضّيتُ دقيقةً دقيقة مساء خطاب حسني مبارك الأخير حتّى اللحظة الإلهية في عصر جمعة الرحيل، وكيف لم أستطع أن أمتلك نفسي من فرط السعادة حال تنحّي الرئيس المخلوع. يكفي أن أستعيد هذا الشريط لأستوعب أخيراً ما تُمثّلهُ بالنسبة

لي مصرُ، «أمّنا التي عادت إلينا» كما يقول سعدي يوسف، ولأدركَ كم أعشقها عشقاً فريداً لا حدّ له!.

ثمّ ما إن رحل بن علي واقترب موعدُ سقوطِ حسني مبارك حتى تذكّرتُ علاقتي الخاصةّ جدّاً، في التسعينيات من القرن المنصرم، بالقذافي الذي كنت أتوجّه نحوه ساعةً كلّ مساء لأغادر يوم العمل الجامعي نحو عالَمٍ أكثر فانتازية، يختلطُ فيه الواقع بالخيال!.

لأشهر طويلة في أواخر التسعينيات كنتُ في الحقيقة أواظبُ كلّ ليلةٍ على مشاهدة القناة الليبية لمدةٍ تقتربُ من الساعة أحياناً: ساعتي السريالية، كما كنتُ أسمّيها!.

كانت خاتميَ السليماني الذي بمجرّد أن أفركه أرحل بلمحة البرق إلى كوكبٍ بعيد ينسيني كل مشاغل والتزامات الحياة العملية واليومية!.

أحطُّ على ذلك الكوكب الفنتازيّ حالما أسمع مثلاً محاضرةً للقذافي يشرح فيها للملأ أن أميركا ستنقرض بعد خمس سنوات لأن قبائل تكساس ستتحالف مع قبائل كاليفورنيا للقضاء على قبائل نيويورك، ثمّ ستتقاتل في ما بينها وتدمّر نفسها..

أو عندما أسمعه يُقسِّمُ تاريخ البشرية إلى ثلاثة عصور: عصر حضارة الصُفر (الصين)، ثم عصر حضارة البيض (الغرب)، قبل عصر حضارة السود الذي بدأ أخيراً، لأن الكتاب الأخضر

قال: «السود ستسود»!. أراقبُ ببهجةٍ ماكرة ساحةَ المحاضرة وهي تدوي بتصفيقٍ محموم حال استدلالهِ بآية الكتاب الأخضر المفحمة..

أو عندما أسمع المذيع في القناة الليبية يتلو في النشرة المسائية أخباراً عن أمجاد رواية العقيد-الروائي: «الأرض الأرض، القرية القرية، وانتحار رائد الفضاء»... (أتساءل: إلهي، ماذا تبقّى لنا؟ ماذا تبقّى لنا؟. حتّى الرواية صارت مملكته أيضاً!).

تحوّلَتْ علاقتي الساخرة بالقذافي سريعاً إلى قرفٍ وقهر وأنا أرى عبر شاشة القناة الليبية كيف تُهدَرُ أموالُ ليبيا بمشاريع عملاقة فاشلة: عشرات مليارات الدولارات تبدّدتْ مثلاً في مشروعٍ قالَ الخبراءُ الدوليّون إنه من أفشل وأسخف المشاريع الدوليّة: «النهر الصناعيّ العظيم» الذي خامر نزوات القذافي ذات ليلةٍ قارسةِ الهوَس، لِمجرد أنه لا يمكن أن «يوجد شعبٌ عظيم بدون نهرٍ عظيم» حسب قناعاته المسكونة بأشباح جنون العظمة!.

ثمّ تحوّلَتْ علاقتي المقهورة بالقذافي إلى معينِ أسىً خالص وأنا أشاهد كيف يسحق هذا الطاغية جسدَ وروحَ المواطن الليبي ويحوّله إلى أداة تصفيقٍ لرجلٍ مزركشٍ بالأمراض، يزيده مرُّ السنين بطشاً وجنوناً ونرجسيّةً وأوهاماً.

توقّفتُ بعد أشهر عن مشاهدة قناة القذافي لأنها صارت تثير

أعصابي وغثياني: لم تعد تلك الساعة السريالية الأثيرة إجازةً عابثة أو لحظةَ بهجةٍ ماكرة بقدر ما أمست بؤرة قرفٍ وغضبٍ وتوتّرٍ وأحزان!.

ثمّ نجحتُ بشكلٍ لا بأس به، خلال أكثر من عقدٍ من الزمان، أن أنسى ظاهرةَ القذافي وهلوساته الفريدة، حتّى جاءت صرخةُ من ضحّى بروحه في صليب الحريّة لنحيا، قديس العرب الأمجد محمد أبو عزيزي، التي أيقظتْ أمّةً عربيةً كنتُ أعتقد أنها خرجت من التاريخ وقُرِّر لها أن تظلّ خارج عصر العقل والحريّة إلى أبد الآبدين.

سقط جدار الخوف.

هرب بن علي.

تهاوى حسني مبارك.

انفتح باب الحلم على مصراعيه.

(٣)

كنتُ في القطار الذي يغادرُ باريس نحو الجنوب عندما كان القذافي يلقي خطابه الأخير، أصغي له على شاشةِ جهاز الآيباد، من قناة الجزيرة... تنسابُ من نافذة عربة القطار على يساري مناظر شتائية بديعةٌ صماء صامتة.

كان تنافرُ ضجيجِ خطاب القذافي مع المناظر التي تنزلق أمامي حادّاً جدّاً: على الشاشة رجلٌ سيكوباتيٌّ نرجسيّ، يردّد أنه المجد، وأنه يقود ليبيا التي تقود كلَّ القارات.

السيّدة التي كانت تواجهني في القطار (التي ربما سمعَتْ ذات يوم أن هناك بهلواناً اسمه القذافي!) كانت تستغرب وهي تراني أحملق بالشاشة متوتراً مرتبكاً، لاسيما أثناء المرور بنفق تحت أرضيّ يحرمني من سماعِ بعضِ كلمات الخطاب.

أمامي إنسانٌ جبانٌ خائف، يرتجف وهو يستجدي «من يحبون القذافي»، كما قال، بالخروج للزحف العظيم، يهدِّدُ شعبَهُ بتنظيف ليبيا «دار دار، بيت بيت، زنجة زنجة» (حوّلَ شبابُ الإنترنت، الذي يجيدُ مواجهةَ هذيانِ الطاغية بالتهكّمِ والاستهزاء، هذه الكلمات إلى عنوان أغنيةٍ يوتوبيّةٍ ساخرة!).

هذا الرجل، الذي طالما سمعتهُ يتكلّمُ ببرودةٍ تثير القرف دون إكمال عباراته غالباً، يرتعشُ الآن أمامي، تتزاحمُ عباراته، يُلخبِط، يُذكِّرُ أنه ليس رئيساً «ولا يمتلك أية صلاحيات!»، يقول إن عدد المتمرّدين «واحد على مليون من الشعب الليبي» (أي ثمانية أشخاص تقريباً!)، إن عدد حافظي القرآن مليون ليبي... (رثيتُ أوجاع «نظريّة الأرقام» وأنا أصغي له!...)

ملكُ ملوك أفريقيا عارٍ تماماً، يرتعشُ كدجاجة تشمُّ رائحة السكين!.

شعرتُ نحوه بشفقةٍ مداهمةٍ لا أستطيع وصفها!.

الطاغوت يرتجفُ أمامي، يتصنّعُ القوّةَ والثقةَ بالنفس والشجاعة. لكن نبراته وحركاته وإيقاع صراخه كانت تخدعه تماماً لتبرهن عكس ذلك!. شعرتُ حقّاً برأفةٍ عميقة بهذا الرجل رغم كل جرائمه الصمّاء، رغم وحشيّته ودمويّته!.

(٤)

كنت قبل ذلك بيوم قد دافعتُ عن معمّر القذافي عندما أفتى الشيخ القرضاوي على قناة الجزيرة بقتله!. شعرتُ حينها بالتقزز حالما سمعتُ حضرةَ الشيخ يفتي بذلك بكلِّ برودة!.

شرحتُ مشاعري في نقاشٍ تفجّر مباشرةً بعد ذلك في قائمة عناوينٍ إلكترونية أساهم فيها. كتبتُ حينها مباشرة:

(حتى وإن كان القذافي صعلوك صعاليك الكرة الأرضية فإن قتلَهُ جريمة.

لا نريد أن نسلك نفس سلوك الطاغية البشع في القتل.

تكفي محاكمةٌ عادلةٌ!.

أضف أنه بفضل تلك المحاكمة (التي أتمناها بضراوةٍ أيضاً لعلي عبدالله صالح، لحسني مبارك، وبن علي) ستصيرُ «السلطة مغرم وليست مغنم» العبارة الوحيدة الصادقة التي سيكون قد

قالها علي صالح خلال ٣٣ سنة من الكذب والنهب وصناعة الخراب والتخلف!...)

دار بعد ذلك جدلٌ في قائمتنا الإلكترونية مفاده أن قتل القذافي سيوفّر أكثر من حياة.

كان ردّي المباشر:

(لا أظن أن قتله سيوفّر حيوات أكثر مما سيوفره القبض عليه...

نحن بحاجة إلى تقديم نموذجٍ لِسلوكٍ إنسانيٍّ يبدو فيه القتل خطّاً أحمر، أيّاً كان المجرم!.

مفهومُ الانتقام البدائي والقصاص ليس فقط مفهوماً همجيّاً، لكنه سيريحُ الجلّادَ بشكلٍ أو بآخر، وسيحرمُ الضحيّةَ من وأدٍ ضروريٍّ، مفيدٍ نفسيّاً، لا يخلو من أناقةٍ أيضاً، لجراحهِ وأوجاعهِ ومآتمهِ اللانهائية...

سجنُ القذافي في نفس الجحور التي بناها لمعارضيه (الذي يسميهم «جرذاناً»)، ومحاكمته طويلا على كل نفسٍ قتلها أو عذّبها، حلٌّ أحمدُ وأنسبُ وأفضلُ في رأيي من رصاصات القرضاوي، لاسيّما للضحيّة التي سترى جلّاداً كالقذافي، مصاباً بمرض جنون العظمة، «يتجرجر» يوماً بعد يوم، عارياً إلا من أربعة قرونٍ من أبشع الجرائم!.

ثمّ إنّ مسّ حياة البشر وتقريرَ مصائرهم بفتاوٍ لِرجال دين، من

داخل قناةٍ رائعةٍ كالجزيرة، مهزلةٌ في رأيي، لا محلّ لها اليوم من الإعراب:

الشيخ القرضاوي يبدو كمن جاء من القرن السادس الميلادي ليتسلل قرب الهدف في مباراة كرة قدم تدور في القرن الواحد والعشرين!).

الثوراتُ العربية
وسقوطُ نظريةِ صراع الحضارات

لكلمتَي «الشعب يريد» ما يُشبِهُ مفعولَ صيغةِ «افتح يا سمسم» السحريّة: ما إن صدحتْ بهما حناجر ساحات وشوارع الثورة العربية، منذ بضعة أشهر، حتى سقطت ديكتاتوريتان عاتيتان، تَلتْهما ثلاثٌ على وشك السقوط، ستلحقُها أُخَر. رافقت كلُّ ذلك تداعياتٌ وتغيّراتٌ تأخذُ اليوم بُعداً كونيّاً يتجاوزُ بقاع العرب والمسلمين.

بفضلهما مثلاً سقطت كقصورٍ من ورق كليشاتُ نظريات «صراع الحضارات»: طأطأ رأسَهُ من روّجَ أن لِشعوبِ العرب هويّةً ثقافيّةً ملقّحةً ضد إرادة الديموقراطية وحب الحريّة، مفعمةً بِعشق الجلّاد، مجبولةً على حكمٍ استبداديٍّ متأبّدٍ عتيقٍ، يجيد الاحتماء بالدين، لا يتناغم مع الحضارة الإنسانية الحديثة المؤسسة على مبادئ حقوق الإنسان والحرية والديموقراطية.

عندما يرى المراقب أن الشعوب العربية تصنع اليوم كتائبَ من شبابٍ يواجهُ بصدورٍ عارية، وبشجاعةٍ ملحميّة نادرة، رصاصَ الطغاة وقنابل بلاطجتهم، مُقدِّماً نفسَه أضحيةً لآلهةِ الحريّة والكرامة وحقوق الإنسان، يشعرُ ذلك المراقب بالإحراج إذا كان قد روّج قبلها للقول بإن حضارات العرب والمسلمين لا تجيد إلا صناعة انتحاريين يُفجرّون أنفسهم وسط كتل الأبرياء في الحافلات وناطحات السحاب الآمنة.

تزداد وطأةُ ذلك الإحراج عندما يرى ذلك المراقب أن شباب الديموقراطيات العربية الناشئة في تونس ومصر باتوا يبدعون صيغاً جديدةً لتطوير الديموقراطية وصيانة الثورة، يوجِّهون يوميّاً إيقاع سيرورة الحياة المدنيّة والسياسية، يمنعون انغلاق الحكام في أبراجهم العاجية واكتفاءهم بإدارة لعبة الاستفتاءات والانتخابات الدورية. لعلّ كثيرين من مواطني الديموقراطيات الغربية «الشائخة» يعضّون شفاههم هذه الأيام غِيرةً من حيويّةِ إنجازاتِ هذا الشباب العربي الجديد، وهم يلاحظون أن إضراباتهم النقابية الطويلة ومسيراتهم اليومية الرافضة لم تعد تؤدي إلى إسقاط هذا القرار أو ذاك، أو إلى التأثير على مسار هذه الأزمة المالية أو تلك.

ذلك المراقب يفقد آخر أوراقه وهو يرى هذه الثورات العربية ترفع اليوم جليّاً في مقدمة أهدافها شعارَ «الدولة المدنية الحديثة»، بعدما برهن الثائرون على سلوكهم المدنيّ الراقي

وجسّدوه يوميّاً في ساحات اعتصاماتهم الحضارية التي تستلهمُ روحَها من تقاليد يوميات «ساحة التحرير» في القاهرة.

تُمثِّلُ هذه الساحات، كما لاحظ الفيلسوف الفرنسي آلان باديو، كومونات مدنيّة راقية (صحيفة «اللوموند»، ١٩ شباط/ فبراير ٢٠١١). يبرهن الشباب فيها أن الموقف المتحجّر من المرأة، وكلّ اعتداءات اللاتسامح الدينيّ والعنف الطائفي (التي يُقدِّمها البعض كهُويّةٍ ثقافيةٍ ثابتة تبرِّرُ نظرية صراع الحضارات) تختفي فجأة عندما تغيب أجهزة أمن النظام القمعي، كما هو الحال في «الكومونات» أو المدن «المحرّرة» من سلطة النظام القمعي. يبدو جليّاً حينها أن أجهزة النظام هي من تُدبّر تلك الاعتداءات في الغالب، لِتكريس تناحر الناس والتفريق بينهم بما يضمن لها الديمومة والسيادة.

من لم تدمع عيناه أثناء أداء المسيحيين والمسلمين قدّاسهم وصلاتهم جنباً إلى جنب، أو عند رؤية الشباب المسيحي المصري يحرس صلوات الشباب المصري المسلم في ساحة التحرير؟.

من لم تهتزّ جوارحه وهو يرى الشبابَ اليمني في ساحات الحرية والتغيير يشيّد كرنفالات مدنيّة يتعلّم فيها منذ ٣ أشهر ممارسة ثقافة الاختلاط والحوار، أرقى الفنون والطقوس والأخلاق المدنيّة، تاركاً سلاحَهُ في المنزل ونزاعاته الطائفية لأحلام الحاكم، مواجهاً رصاص قناصة وبلاطجة الطاغية بصرخات: «سلمية، سلميّة!»؟.

الأكثر إثارةً هو أن بذور هذه الثقافة المدنيّة الجديدة أرعبت الرئيس اليمني الذي قضّى ثلث قرنٍ يُكرِّس ويصون ثقافةً متخلِّفةً مضادّة، لدرجة أنه قال في خطابه المقتضب في ١٥ نيسان/ أبريل ٢٠١١ إن الاختلاط في ساحات الثورة «يحرِّمهُ الشرع»، متحوّلاً إلى فقيهٍ طالبانيٍّ يُزايد على كبار السلفيّين اليمنيين التقليديين الذين لم يقولوا كلمةً حول ذلك الاختلاط!.

إذا كانت استعارةُ «الشعب يريد» تلخِّصُ فعلاً جوهرَ معالم الحضارة الإنسانية الحديثة (منذ الثورة الفرنسية التي أسّستْ مداميك هذه الحضارة، حتّى ثورات شرق أوروبا في ١٩٨٩، مروراً بربيع ثورات الشعوب الأوروبية في ١٨٤٨)، فلعلَّ هذه الاستعارة لم تدوِّ بهذا الجلاء والقوّة كما هو الحال اليوم في بلدان العرب.

لعلّ عذرَ من اعتنق نظرية صراع الحضارات يكمن في أن أحداً لم يتوقّع أن تخرج هاتان الكلمتان من قمقم بلاد العرب التي راوحت منذ قرون في ما يشبه «النقطة الثابتة»، معيدةً صناعة واقعها الاستبدادي وتخلفها السحيق، جيلاً بعد جيل.

فلقد كانت الثقافة العربية قبل هذه الثورات أسيرةَ مبدأ «الحاكم يريد»، «الله يريد» (التي تبدأ بها أكثر من آيةٍ قرآنية). أما الشعب فهو «يطيع وليّ الأمر»، يصبرُ، يصبر... يصبرُ على ذمّة أغنية: «دولة الظلم ساعة، ودولة الحق حتى قيام الساعة» ذات الإيقاع الرتيب الخانع.

نعم، لم يستشرف أحدٌ إمكانية ظهور طفرةٍ في سلوك الشعوب العربية تؤدي إلى انهيارِ جدار الخوف من الطاغية والبحثِ عن حياةٍ أخرى. لسنا هنا بصدد تفسير ذلك. لكننا بصدد إجلاء البعد الميتافيزيقي والمدنيّ لاستعارة «الشعب يريد» في سياقها الثقافي العربي.

عندما يقول الشعب الحاضر، بضمير الغائب: «الشعب يريد»، فثمّة بلاغةٌ جبّارة تجعل هذا الشعب الحاضر يمتلك قوّة الإله الغائب، وكأنه يقول ضمنيّاً: «ما يريده الشعب يريده الله»! تنطبق بعد ذلك على الشعب كل الصفات الميتافيزيقية التي صُمّمت للآلهة: «لا حاكم إلا الشعب»، «لا عاصم إلا الشعب».

ربما لذلك يتضايقُ السلفيّون في قرارات أنفسهم من قوّة هاتين الكلمتين. ولذلك حاول بعضهم في مسيرات الثورة اليمنية تسريبَ بديلٍ لهما أحياناً: «يا الله، يا الله، أسقط علي عبدالله!» التي لا تختلفُ في الجوهر عن شعار مناصري رئيس اليمن وهم يرددون مقابل مبالغ يومية: «يا الله، يا الله، احفظ علي عبدالله!».

الجميل هنا أن هذا البُعدَ الميتافيزيقيَّ لاستعارة «الشعب يريد» يرفدُ بقوّة بُعدَها المدنيَّ الذي ينطوي على منحِ السلطة للشعب دون وصايةٍ أو وسيط!.

لعل اندماج التيارات الإسلامية التقليدية (حزب النهضة التونسي، الإخوان المسلمين المصري، الإصلاح اليمني...) في أتون هذا المشروع المدنيّ هو ما يوجّه الضربة القاضية لمروجّي نظرية صراع الحضارات.

فمن اللافت جدّاً التفاعلُ الايجابيُّ لقطاعٍ عريضٍ من أعضاء هذه التيارات الإسلامية مع حركة الثورات العربية. فمنذ أن تخلّصت هذه التيارات من معظم عناصرها المتطرفة التي غادرت بلدانها للاندماج في الحركات الجهادية الإرهابية، وبعد أن أفلس الخطابُ السلفيُّ المتطرفُ ودعواتُه للحفاظ على هويّةٍ ثقافيةٍ لا تضمنُ إلا إعادة إنتاج الاستبداد والتخلف، لاسيما في أوساط الأجيال الشبابية الجديدة المنفتحة على التكنولوجيا الحديثة ولغة العصر الحديث، صارت التيارات الإسلامية عنصراً مهيئاً لِرفد حركة الثورات العربية.

احتاجت الأوساط الثقافية الغربية التي لم تستوعب ذلك، لاسيما المتأثّرة بمفعول نظرية صراع الحضارات وعقدة ١١ سبتمبر، لبضعةِ أسابيع من الارتباك قبل أن تعترف بأن هذه الثورات العربية تختلف عن الثورة الإسلامية الإيرانية، وقبل الإقرار النهائي بأنها «ثورات شعبية»، لا علاقة لها بخطاب آيات الله أو فقهاء الإسلام السياسي، يحرّكها شبابٌ مدنيٌّ منفتحٌ على الحضارة الإنسانية وقيم الحرية والكرامة والديموقراطية.

ذلك ما دعا المفكّر الفرنسي أوليفيه رُوْي إلى التأكيد أن هذه

الثورات العربية ثورات «ما بعد إسلامية» (صحيفة «اللوموند»، ١٤ شباط/ فبراير ٢٠١١). وذلك ما جعل كلمة «تحرير»، نسبة لساحة القاهرة، تدخل القاموس الإنساني من أقدس أبوابه!.

يكفي على سبيل المثال ملاحظةُ الدور المتميّز الذي يلعبه كثيرٌ من شباب حزب الإصلاح في الثورة الشبابية اليمنية، لاسيما توكّل كرمان ذات الخطاب المدنيّ الذي يتناغم تماماً مع الخطاب المدني للثائرات اليمنيات المدنيّات في طليعة حركة هذه الثورة مثل أروى عبده عثمان، بشرى المقطري، سامية الأغبري، وهدى العطاس على سبيل المثال لا الحصر.

غير أن التطور الأكثر عمقاً يبدو جلياً في تجربة حزب النهضة التونسي الذي يعيش جدلاً يفرزُ أكثر فأكثر خطاباً مدنيّاً (صحيفة «اللوموند»، ١١ نيسان/ أبريل ٢٠١١) يوشك أحياناً أن يتجاوز خطاب بعض الأحزاب العربية ذات التاريخ المدنيّ!.

لعله لا يمكن بعدُ التأكيدُ أن التيار الإسلامي قد تغيّرَ وتمدّنَ تماماً في معمعان هذه الثورات العربية لدرجةٍ لن تجعلهُ يعيق بناء النظام المدني المنشود. فما زالت بعض الكتل الظلامية في حزب الإصلاح اليمني، على سبيل المثال، تُمثّلُ خطراً حقيقيّاً على مستقبل مَدنيّة الثورة اليمنية.

لن يضمحلَّ هذا الخطرُ إلا بنبذ الخطاب الظلاميّ لهذه

القيادات، وإعادة صياغة مؤسساتها، مثل «جامعة الإيمان» السلفيّة التي لا محلّ لها من الإعراب في الدولة اليمنية الجديدة إلا إذا تحوّلت إلى جامعةٍ مدنيّةٍ حديثة.

أودّ في الختام أن أستشهد بعبارة كامو الشهيرة: «القرن الواحد والعشرون سيكون دينيّاً أو لا يكون!» التي ترى حضارتنا الإنسانية، بكل تنوعاتها وأطيافها، واحدةً إحدى في هذا القرن.

لعله اليوم في الطريق لأن يكون فعلاً قرناً مَدنيّاً في كلِّ أرجاءِ كوكبنا الأزرق!.

أضواء على مباراة شطرنج بين صالح وشعب اليمن

١

ثمّة مفارقة يكررها الكثيرون: تبدو ثورة اليمن أعمق وأنضج الثورات العربية حتى الآن، في بلدٍ يوشك على الانهيار، رئيسه أضعف حلقات قادة العرب. . . فيما لم يسقط نظام الرئيس صالح حتى اللحظة!

ثمة في الحقيقة طلاسم يلزم فكّها لفهمِ خصوصيات الثورة اليمنية وتعقيداتها، وإجلاءِ خطأ هذه المفارقة.

صحيحٌ أن نظام صالح، بخلاف سائر أنظمة العرب، فشل جذريّاً وعلى كل الصعد: تمكّن صالح بنجاحٍ مذهل من أن يكون مهندسَ تدميرِ اليمن في كل المجالات: التنمية، التعليم، السياحة، الثقافة، المدنيّة، الأمن، الخدمات الكهربائية

(*) نُشِرَ هذا الفصل في بدء الثورة اليمنية على نظام علي عبدالله صالح.

والمائية... ليصير اليمن «بفضلهِ» على شفير الانهيار والصوملة.

وصحيحٌ أن اليمنيين يهندسون اليوم أروع وأعظم الثورات العربية. أثبتوا أنهم يمتلكون إرادةً خارقةً صارت مضرب الأمثال: أكثر من ثلاثة أشهر من الاعتصامات والمسيرات المتصاعدة، التي لم تقتصر على بعض المدن الكبرى (مثل حالتي مصر وتونس)، بل شملت كل مدن اليمن وقراها من جزيرة سوقطرة حتى أطراف صعدة.

ليس ذلك فحسب، بل ثاروا قبل كل ذلك على أنفسهم، صانعين ثورات اجتماعية وثقافية داخل ثورتهم السلميّة المذهلة: خرجت المرأة التي كانت أشبه بشمّاعةٍ منزليّةٍ في الغالب، لتحتلّ اليوم قلب الساحات إن لم تكن جذوتها أحياناً. ترك اليمنيّون أسلحتهم في البيوت (من كان يتوقع أن يحدث ذلك؟) ليحملوا الورود بدلاً منها ويواجهوا الطاغية بصدور عارية. حوّلوا ساحاتهم إلى كومونات تاريخية يتعلمون فيها الحياة المدنيّة، يكتشفون فيها أخيراً أنفسهم وملكاتهم، يكتبون فيها أحلامهم على البالونات ويطلقونها ببراءة أطفال، يرتّبون ساحاتهم وينظفّونها وينمقّونها لتكون نواة مدن المستقبل الزاهرة، يمارسون فيها الاختلاط الحضاري والفن والأدب والجدل والضحك حتى سقوط النظام!.

من قال عنهم صالح إنهم أصيبوا بـ«أنفلونزا البلدان المجاورة»

هم في الحقيقة شبابُ شعبٍ فتك به وباءٌ عضال: وباءُ الحرية، الذي لن يطيح إلا طبيب الزور الذي أخطأ التشخيص.

وصحيحٌ أخيراً أن صالح شخصيّةٌ فريدةٌ جدّاً: يحتقر التعليم والعلم بصدق وإخلاص. لا يحتقر شيئاً قدر ذلك: بعكس كل القادة العرب، لم «يخطئ» ولو مرة واحدة بتوجيه أحد أبنائه أو بناته للتعليم، في الداخل أو الخارج، أو حتى شراء شهادات ملفقة له!.

يكفي سماع شذرات من خطاباته لنستوعب مدى جهله وبلطجيته معاً. لن أتحدث عن انتهاكه الدائم لإعراب جمع المذكر السالم فذلك ترفٌ لغويٌّ في حالته. سأذكر على سبيل المثال فقط عبارته التي تتردد كل ساعة في قناة الجزيرة والتي يقرأها من ورقة (وليس شفوياً):

«تُشكَّلُ لجنةَ (بدلاً من لجنةٌ) من مجلس النواب والشورى لإعداد دستوراً (بدلاً من دستورٍ) جديداً (بدلاً من جديدٍ)». . . لا يُسكِّن لِيسلم، كما اعتاد ناطقو العربية، لدرء ارتكاب خطإٍ في قواعد نحوها. يقرأ ببلطجيّة: ينصب كلّ الكلمات لمجرد أنه لا يعرف قراءة الضمّتين والكسرتين. من نصب على اليمن وشعبه طوال ٣٣ عاماً لا يعرف إلا النصب، حتى في اللغة العربية.

الأسوأ أنه مستعدٌّ أن يُهزّئ أو يصفع أيّ مستشارٍ يتجرأ على مراجعته، كما حصل عندما تجرأ أحد مستشاريه، كما يقال، أن يشرح له الفرق بين «لم» و«لن»، الذي لا يعرف التمييز بينهما

عند الحديث بعد ٣٣ عاماً من الحكم! . يقضي اليمنيّون وقتهم في السخرية منه عند سماعه يستخدم «لن» في محل «لم» في كل عبارة! . (إقرأ الفصل التالي).

أنتقلُ الآن، بعد تذكير هذه البديهيات، إلى ما سيفسر إشكالية المفارقة الرئيسة التي استهلَّ بها مقالي هذا:

ليس صالحُ قطعاً أضعفَ حلقةٍ في الرؤساء العرب كما يقال. هو أصعبهم ولا شك، لأنه يكثّف في شخصهِ برعونةٍ مراوغة أبشعَ مساوئهم جميعاً كما سأحاول التوضيح. صالح داهيةٌ في صناعة الخراب، وفي صناعة الخراب فقط.

فالقوات المسلحة اليمنية أوّلاً (بعكس حالتي مصر وتونس) لاسيما الحرس الجمهوري والأمن المركزي، يقودها أبناؤه وأخوته وأبناء أخوته. ويعلم المراقب السياسي أن إسقاط النظام في هذه الحالة (كما هو الحال في ليبيا) يزداد صعوبةً وتعقيداً بكثير، لاسيما أن الثورة اليمنية تفتقدُ (بعكس ليبيا أو سورية) الدعم أو الضغط الخارجي. ليس ذلك فحسب، بل هي تثير في الجوهر مخاوف دول الخليج التي لا يعرفُ قاموسُها كلمتي: «الشعب يزيد»، والتي لا تكنُّ عشقاً عارماً للثورات: تفضِّلُ قطعاً «الرئاسات الملكية» المتأبدة على الأنظمة الديموقراطية، خوفاً من تسلُّلِ عواصف رغبات التغيير والحريّة إلى شعوبها!.

ولعلّ الصعوبة الرئيس الثانية تكمن في أن أحد أهم معالم صالح هو براعته الشديدة في تنفيذ شعارٍ يلخِّصُه أفضل تلخيص: كي تحكم اليمن ٣٣ عاماً يلزمك أن تكون ثعباناً يرقص فوق هامات جياع!.

لذلك حرص علي صالح منذ بدء حكمه على تطبيق شعار الاستعباد العتيق: «جوّعْ كلبك يتبعك!». استولى وأتباعه على كل ثروة اليمن، لدرجة أن مثلاً يمنيّاً شهيراً ممتعاً يلخص ذلك (عند الحديث عن مصير موارد بترول اليمن الذي يُصدَّرُ من ميناء «بئر علي» في شبوة): «من بئر علي، إلى جيب علي»!.

يقضّي صالح وقته مثل شيخ قبيلة في دار الرئاسة، يوزّع ثروة اليمن كما يريد: يجوّع من يريد، يغْني من يريد، يقتل ويشتري من يريد. ليس له مشروعٌ في الحياة غير ذلك، لدرجة أوصلَتْ قطاعاً واسعاً من شعب اليمن إلى تحت خطّ الفقر والجوع، بجانب أميّتهم التي تضرب رقماً قياسياً.

يزيد كل ذلك من تعقيدات الثورة اليمنية. فالأميّ الجائع، الذي لا يجد الماء والخبز النظيف في يمن اليوم، لا يميل لقضاء وقته في ساحات الاعتصام، أو في الانهماك في تنظيم الثورات عبر الفايسبوك.

أضف أن صالح، الذي صار اليوم متفرّغاً طوال الأسبوع لعمله الجديد «مقاول مسيرات مضادة»، يجيد جلب هؤلاء الجياع من

كل مدن وقرى اليمن النائية، بجانب من تبقى له من أنصار وخائفين من التغيير ومتذبذبين ومطبّلين وتنابلة وفاسدين سيفقدون مصالحهم بانتصار الثورة، إلى تجمُّعٍ أسبوعيٍّ يتيم في ساحة واحدة: ساحة السبعين بصنعاء (التي لا يمكنها أن تتجاوز رياضيّاً المائة ألف شخص)، في حين تمتلئ ساحات التغيير والحرية وشوارع مدن اليمن وقراه بأكثر من أربعة ملايين متظاهر، ملأ منظرهم المدهش، وهم يرفعون سواعدهم المتلاحمة في لوحة فريدة، الصفحة الأولى من صحيفة اللوموند الفرنسية قبيل أسبوعين.

يطلق صالح في تجمعاته الأسبوعية خطابات رديئة مسعورة، تدوم دقيقتين، يشتم فيها الشعب بأشنع الأوصاف، على طريقة معمر القذافي. تتجلى في هاتين الدقيقتين شخصيّته الظلامية المجرمة: يسبُّ مثلاً باسم الشريعة الإسلامية، على الطريقة الطالبانية، تواجدَ المرأة في ساحات التغيير والحرية واختلاطها بالرجل، لتنطلق بعد ذلك مسيرات بلاطجته في صنعاء باتجاه ساحة التغيير قرب الجامعة مردِّدةً: «الجامعة الجامعة، عند القحاب الصائعة!» شاتمةً ببذاءة طليعة نساء اليمن الرائعات المتواجدات في الساحة!.

أجزم هنا أن صالح أسوأ من القذافي لكنه أكثر خبثاً وأقلّ ضجيجاً: لم يكن أقلّ دموية من القذافي عندما فجّر حرب ١٩٩٤ أو حروب صعدة الستة، أو غيرها من الحروب على

شعبه التي أزهقت أرواح عشرات آلاف اليمنيين. يكفي تذكُّرُ مناوراته عند توقيع «وثيقة العهد والاتفاق» مع الحزب الاشتراكي اليمني وغيره من القوى الشعبية قبيل حرب ١٩٩٤ (التي تشبه مناوراته هذه الأيام للتهرب من توقيع معاهدة الصلح الخليجية مع اللقاء المشترك)، قبل التنصل من ذلك الاتفاق لشنِّ حربٍ طاحنة حوّل بعدها جنوب اليمن إلى غنيمة حرب، دمّر كل تقاليده المدنية وإدارته المتطوّرة، وعامل أبناءه كمواطنين ممتهَنين من الدرجة الثانية.

بعكس القذافي، عندما يقتل صالح خصومه منذ ٣٣ عاماً، يخرج دوماً في جنازاتهم على رأس المشيّعين. لا يُسمي من أمر قناصتَهُ بقتلهم في ساحة التغيير في مجزرة ١٨ آذار/ مارس «جرذاناً» كما فعل القذافي، ولكن «شهداء الديموقراطية»، متهماً، بكل برودة، سكان منازل تخوم ساحة التغيير الطيبين بقتلهم!. وعندما سئلَ: لماذا أصابت الرصاصات رؤوسَ أولئك الستّين شهيداً وأعناقَهم، بتلك المهنيّة المليمترية، أجاب، ببرودة أكبر، بأن كلَّ شعب اليمن قناصةٌ بالفطرة!.

يعرف صالح، كرئيس عصابةٍ محترف، كيف يكذب ويغيّر التزاماته ويقلب أقواله في كل لحظة، كيف يماطل ويناور. يسمّي ذلك «الرقص فوق رؤوس الثعابين». أضف أن تشبُّثَهُ وهوسَه بالبقاء في السلطة لا يقلّ عن معمر القذافي.

ثمّ لا يهمّ صالح، مثل القذافي، أن يكون مؤلف «نظرية ثالثة»،

ولا تساوره الرغبة ببناء تماثيل شخصيّة له. هذه أمورٌ شكليّة من منظوره. تُهمُّه السلطةُ الكليّة والاستيلاء الكامل على الثروة وتوريثها لأبنائه، لا غير. يعتبر اليمنَ، بعد ٣٣ عاماً من الحكم، «غنيمته» الشخصية التي لن ينتزعها منه ومن أبنائه أحد.

ما زاد من تعقيد ظروف الثورة اليمنية أخيراً هو أن صالح يحاول أن «تخرج عن النص»، وأن تبدو أزمةً بين حزبه الحاكم والمعارضة.

فهذه الثورة، من وجهة نظر شطرنجية (أي كمباراة بين الشعب وصالح: يريد الأول فيها إخراج الثاني من الحكم، ويريد الثاني إخراج الأول من الحياة)، وصلت إلى نقلاتها النهائية: لم يتبق لصالح إلا الملِك وبضعة بيادق، فيما يسيطر الشعب على كل أجنحة رقعة الشطرنج ومركزه.

أيُّ لاعبٍ شطرنج يحترم نفسه كان سيستسلم في هذه اللحظة ويترك المباراة. لكن صالح يلجأ اليوم إلى حركاتٍ بهلوانية لإرباك خصمه. يشتمه ويشتم أنصاره في قاعة المباراة. يهدد باستخدام المسدس لاغتياله. يراوغ، يركل بقدميه خصمه أسفل طاولة الشطرنج. يطلب من جيران صالة المباراة التوسط لإنهاء المباراة، يتركهم يتدخّلون بها ويمسّون قطعها... يريد فركشة اللعبة بأية طريقة قبل هزيمته.

ازداد تعقيد هذه المباراة اليوم بشكلٍ جليّ. ستطول كما يبدو، وستكون نتائج ذلك وخيمةً على الجميع، إذا لم يمارس المجتمع الدولي ضغوطه على نظام صالح.

لكن شعباً اكتسحهُ وباء الحرية بهذه القوة العاتية قادرٌ حتماً، في كلِّ الأحوال، على الصبر ومواصلة ثورته السلمية حتى النصر.

استدراك: كنتُ أتصفح قبيل قليل بعض صفحات الفايسبوك. وجدتُ فيها هذا الدعاء الأنيق لعزت القمحاوي الذي كتبه قبل شهرين: «يارب كل الوحوش: خلِّصْ سورية من فم الأسد، وخلِّصْ ليبيا من فم السلعوة، أما علي عبدالله صالح فاتركه لليمنيين، فهو أضعف من أن نشغلك به يا قادر يا كريم». . . لعلّ الشيخ عزت يعيدُ صياغة دعائه بعد هذا المقال!.

بلاغة صالح

التأمل في لغة الطغاة العرب موضوعٌ عميقٌ شيّق، ومؤلمٌ في الوقت نفسه، ليس فقط لأنه يكشف عورات هؤلاء الطغاة وخارطاتهم النفسية، بل لأنه يسمح لنا بمعرفة ذواتنا في جوانبها الأكثر قصوراً وضعفاً واستسلاماً.

إذا كان اللاوعي الإنساني لغة، كما يقول لاكان، فهو لغة لانهائية الغموض والتعقيد. بين هذه اللغة التحتية ولغة الخطاب اليومي المباشر الفوقية جسرٌ من الآليات والقواعد التي تُترجِمُ لغةَ اللاوعي بطريقةٍ أو بأخرى.

تحليلُ الخطابات الاستطرادية المباشرة للطغاة العرب (لاسيما بعد أن أجبروا على المداومة الإعلامية والإسفاف المباشر أمام الجماهير العربية بفعل ربيع ثوراتها، مما جعلهم يرددون عبارات مرتبكةٍ خائفة مدهشة مثل: «زنجة زنجة!»، «فاتكم

(*) نُشِرَ هذا الفصل في ملف في مجلة «الدوحة» حول بلاغة القادة العرب.

القطار!»، «فهمتكم!» أثارت سخرية المواطن العربي من المحيط إلى الخليج) أمرٌ يهمُّ كثيراً علماء اللغة والنفس والاجتماع والانثروبولوجيا. خصوصاً بعدما تراكمت مادةٌ غنيّةٌ تسمح بفكِّ شفرات تركيب أولئك الطغاة وسلوكياتهم الخفيّة، شريطة الكشف عن آليات وقواعدِ نحوِ لغة لاوعيهم المغلّفة ومنطقهِا العام، وما تريد توصيله للناس في كل خطاب، وطرائقها في التأثير على سلوكهم ومواقفهم. وشريطة تحليل مضمون خطاب هؤلاء الطغاة وشكله على حدٍّ سواء.

ليس صعباً فكُّ شفرات خطاب الرئيس اليمني علي عبدالله صالح، لأن له قاعدة خطابية رئيسة ثابتة منذ ٣٣ عاماً، يجيد أداءها بهدوءٍ ودون خجل: الدجل الكليّ الخالص وقول العكس الكامل لما يريده أو لما ينوي أن يحدث فعلاً!.

عبارتان، قبل توليه السلطة بقليل، وبعد خروجه منها بيومين إن كان قد خرج منها فعلاً، تشرحان ذلك بكل جلاء:

«أتمنى أن أحكم اليمن أسبوعاً واحداً فقط»، ردّد صالح (كما نقل عنه بعض من عرفوه قبل أكثر من ٣٣ عاماً) عقب دوره الشهير في قتل الرئيس إبراهيم الحمدي، صاحب مشروع التحديث، في ١٩٧٧.

أسبوع الزاهد عن السلطة تحوّل إلى أكثر من ٣٣ عاماً من تشبُّثٍ جنونيٍّ بها لم ينتهِ بعدُ حتى كتابة هذه السطور.

وبعدما اضطر إلى التوقيع على مبادرة مجلس التعاون الخليجي بيومين فقط (بعد تهرّبٍ يوميّ ومماطلة فاقت مماطلة عادل إمام في مسرحية: «الزعيم») قال في اجتماع لحزبه الحاكم هذه العبارة (بعد أن نظفتُها من الأخطاء اللغوية): «كان من المفترض أن توقع هذه الاتفاقية في وقت مبكر ولكن للأسف الشديد كانت هناك مماطلة من قبل بعض الأطراف، حيث كان من المفترض عليهم توقيعها في وقت مبكر لنخرج من الأزمة المستفحلة في الوطن والتي ألحقت ضرراً فادحاً في مجال التنمية، في المجال الاجتماعي والثقافي والسياسي، وفي شتى المجالات».

لم يكن يمزح!. يصعب أن يقول الإنسان كذباً خالصاً أكثر وقاحة!.

غير أن ما يميّز لغة أكذوبات صالح بعد اندلاع ربيع الثورة اليمنية (التي أجبرته على الحديث شبه اليومي في خطابات مباشرة، متوترة أحياناً، كان خلالها أشبه بنصف سكران) أنه صار لا يبذل جهداً في أن يصدِّقه الآخرون كما كان حال خطاباته القديمة.

في الحقيقة، كانت أكذوبات صالح قبل هذه الثورة مخرَجةً بدهاء، أشبه بشفرات لا يلاحظها إلا القليلون ولا يبدو كذبها جليّاً للعامة في الغالب. أجاد على سبيل المثال التطبيق الحرفيّ لمبدأ «اقتل الخصم وامش في جنازته» الذي مارسه دوماً بمكرٍ ومهارةٍ مسرحيّة فائقة عند تخلصه من أبرز خصومه السياسيين.

كان يكفي أن يسبّ الفساد ونهب الأراضي في خطابٍ ما ليلاحظ بعضُ المراقبين ازديادَ حملات نهب الأراضي اليمنية من قبل ذويه وعصابته بعد الخطاب مباشرة، وكأنّ هناك شِفرة وكلمة سرٍّ تمهيدية بينه وبينهم: اعملوا دوماً عكس ما أقول!.

كان يكفي، كمثَلٍ آخر، أن يدّوي في خطاباته منذ ٢٠٠٦: «سنولّد الكهرباء بالطاقة النوويّة» ليظلّ كثيرٌ من الساذجين يصدّقون هذا الوعد، رغم تواتر انقطاع الكهرباء في اليمن أكثر فأكثر من عامٍ لعام. وعندما عاقب الناس بقطع الكهرباء بعد اندلاع ثورتهم، اضطرهم إلى الاستضاءة بالشمع، أو بـ«الشمع النووي»، كما أطلق ظرفاء الثورة للتذكير بذلك الوعد.

كان يكفي أن يَعِد في خطاباته منذ ٢٠٠٦ ببناء سكةٍ حديدية في اليمن لِيصدّقَهُ البعض، وليحلموا ليل نهار بأوّل قطارٍ يعبر اليمن، قبل أن يسمعوه يردّد أمامهم دون خجل عبارته الشهيرة: «فاتكم القطار! فاتكم القطار!...»

أما موضوع بلاغةِ خطاب صالح وأسلوبه اللغوي فهو حديثٌ ذو شجون، يجعل أكثر من مثقفٍ يمني يبكي خجلاً ومرارة من مدى جهل رئيسهِ لأدنى قواعد اللغة وأبسط معاني الكلمات.

يصعب في الحقيقة أن يوجد رئيسٌ كصالح تعكس بلاغتُهُ كراهيتَهُ المفرطة للثقافة والتعليم. لعله الرئيس العربي الوحيد الذي لم يحرص على تعليم أولاده (جميعهم عسكريون بلا مؤهلات

يسيطرون بشراسة على أهم قيادات الدفاع والأمن في اليمن)، ولم يكلف نفسه حتّى منحهم شهادات علمية ملفّقة أسوةً ببعض أبناء الطغاة العرب، من فرط احتقاره للتعليم كما يبدو.

يكفي الإصغاء له لإدراك مدى المصيبة. إذ هو الرئيس الوحيد الذي لا يعرف الفرق بين مدلولي كلمتي «لم» و«لن»: يستخدم دوماً «لن»، التي تنفي الفعل المضارع في المستقبل، بدلاً من «لم» التي تنفيه في الماضي!.

ألا يُكثِّفُ ذلك، بشكلٍ رمزيٍّ شديدِ التعبيرية، كيف وحّدَ صالح الماضي والمستقبل اليمني، أي كيف جمّد الزمن اليمني، ماضيه ومستقبله، في حاضرٍ متخلف دام ٣٣ عاماً، أسماه مع ذلك في حملته الانتخابية في ٢٠٠٦: «اليمن الجديد»؟.

ثمّة حادثةٌ شهيرة يرددها اليمنيون كثيراً تُلخِّصُ علاقة صالح الشهيرة بثنائية «لم» و«لن» أفضل تلخيص:

سألت مذيعةٌ عربيّةٌ صالح، أثناء مفاوضاته السريّة مع المملكة السعودية حول حدودها مع اليمن، في ثمانينيات القرن المنصرم:

ـ سمعنا أنكم ذهبتم سرّاً للسعودية لمناقشة الاختلافات حول الحدود؟

ـ لا، لن أذهب!، ردّ صالح.

ـ لم أم لن يا فخامة الرئيس؟، سألته المذيعة.

ـ لم ولن (في نفس الوقت)!، ردّ صالح بابتسامةٍ وبريقٍ في العينين، وكأنه أفعمها بشطارته.

يُجلي ردُّه الأخير هذا، بتركيز شديد، طريقته في الحديث الذي يمارسه بنفس «البلطجة» التي يمارس بها سياساته: لا توقفه أية فرامل أثناء الحديث. لا يخطر بباله أن هناك مدلولات قاموسية وقواعد نحوية بدائية يلزم احترامها عند الكلام. يعتقد أنه يكفي دوماً ممارسة الشطارة حتى في اللغة، أي السطو والفظاظة والمزاحمة والعشوائية والاستغباء في كل الاتجاهات!.

إن من يصغي لصالح وهو يلقي خطاباته يلاحظ مثلاً أنه لا «يُسكِّن لِيسلم» أثناء الحديث، شأن الكثيرين من ناطقي العربية. ينصب غالباً، واثقاً من نفسه. ينصب، ينصب... ينصب الكلمات، في كل الاتجاهات، من تعوّد على النصب والنهب اليومي!. أما الحديث عن احترامه لقواعد تشكيل «جمع المذكر السالم» وغيرها من أوليات نحوِ اللغة العربية فذلك ترفٌ شديدٌ في حالة فخامة الرئيس اليمني الذي لا يجهلها فقط، ولكنه يجهل أنه يجهلها، وذلك أسوأ المصائب، كما يقول الحديث الشريف!.

لادراك مدى الفضيحة (التي يتحمل مسؤوليتها الكثير من المثقفين والسياسيين ممن مارسوا حمل المباخر ومسح الأحذية لمخلوقٍ كهذا) يكفي ملاحظة أن صالح، أو «الرئيس المثقف» كما سمّاه ذات يوم رئيس تحرير صحيفة ثقافية يمنيّة، نال أكثر

من «دكتوراة فخريّة» من جامعة يمنية!. لا أعرف كيف يمكن أن تكون جامعات كهذه دُوراً لها علاقةٌ ما بنشر العلم والمعرفة!.

الأسوأ ربما: يُعتبَرُ صالح شاعراً يمنيّاً رسميّاً كبيراً له «معلّقات شعرية» تمّ تلحينها وأداؤها كسينفونيات في الأعياد الوطنية، لم (أو «لن»، كما يقول الشاعر) يتلكأ أدباء ونقاد يمنيّون معروفون عن مدحها، وعقد الندوات الفكرية حول قائلها، «الشاعر المشير الرئيس الأب»، كما يسمّونه. شعارهم في ذلك ما قاله أحد شعراء الصعاليك وهو يمدح نفسه:

ولـــلـــه درّ فـــتـــىً عـــارفـــاً
يـجـاري الـزمـان عـلـى فـطـرتـه
يـواسـي الـفـقـيـر بـاحـسـانـه
ويـرقـص لـلـقـرد فـي دولـتـه

بين رقصهم في دولة القرد، على إيقاع رقص القرد «على رؤوس الثعابين» (حسب الاستعارة الحِميَرِيَّة القديمة، التي استخدمها صالح، بفضل مستشاريه، لوصف ما يعني حكم اليمن خلال عدة عقود) مات اليمن «بصندوق وضّاحٍ بلا ثمنٍ، ولم يمت في حشاها العشقُ والطربُ»، كما قال شاعر اليمن العظيم عبدالله البردوني الذي لا ينتمي إلى سلالة من يجيدون مراقصة رئيسٍ لا يعرف التمييز بين «لم» و«لن».

«بلكونة» جون جينيه تكشفُ حاضر اليمن ومستقبله

جون جينيه أحد أكبر أسماء أدباء القرن العشرين.

«البلكونة» إحدى أهم مسرحيّاته. درسها، في من درسها، الفيلسوفُ المعروف آلان باديو في كتابه «بورنوغرافيا الحاضر»، وقبلَهُ عالمُ النفس الكبير لاكان في دراسة طويلة في كتابه «تشكّلات اللاوعي».

«مثل فرويد الذي استمدّ جزءاً من نظريّته من مسرحيات سوفوكل الإغريقية، اشتغل لاكان على المسرحية»، كما يقول آلان باديو.

بُنيةُ مسرحية «البلكونة» ونتائجها تلخصان، بشكلٍ مثيرٍ مذهل، كما سأشرح لاحقاً، واقعَ اليمن الحالي وسيرورته القادمة. أي:

(*) كُتبت هذه الكلمة لمناسبة انعقاد «مؤتمر الحوار الوطني» اليمني الشهير.

الثورةُ التي «عطّفَتْ»، مؤتمرُ الحوار الوطني في فندق الموفمبيك، الشعبُ المقهور خارج الفندق، إعادةُ ترتيب موازين قوى السلطة بعد الثورة.

لِأُلخِّص مسرحيّة جينيه بِكلمتين أوّلاً:

ثمّة أربع قوى تتقاسم المسرحيّة، كما يلاحظ الفيلسوف آلان باديو:

١) ثورة شعبيّة تلفظُ أنفاسها الأخيرة.

٢) قائدُ الشرطة، الشخصيّة الجوهريّة في المسرحية.

٣) بيت دعارةٍ أرستقراطية: يلتقي فيه الجنرال، القاضي، أسقف الكنيسة، المِلِكَة، قائدُ الشرطة، ولاحقاً واجهة الثورة الشعبية: روجيه.

بيتُ الدعارة هنا رمزٌ مجازيٌّ لِموقعٍ تُمَارَسُ فيه لُعبة مرايا وكاميرات تُثيرُ الرغبة، تصنعُ اللذّةَ والوهم. مبنيٌّ على الدعاية والتحريض التجاري. يُصلّي فيه الأسقف «أمام الله وعدسة الكاميرا».

تقودُ بيت الدعارة الشخصيّةُ الجوهريّة الثانيّة في المسرحية، إرما.

((«السلطة العارية» التي تُحرّكُ كلَّ شيء في الخفاء ولا تبدو في السطح.

إشكاليةُ المسرحية هي العلاقة العميقة والمعقّدة بين السلطة، الديموقراطية، الصور الإعلامية وصناعة الوهم في واقعٍ مُنكسر، بلا بوصلة، خرج للتوّ من انتفاضةٍ ثورية!.

خلاصةُ المسرحيّة: ما إن تقع الثورةُ الشعبية في فخِّ لُعبةِ بيت الدعارة إلا «وتكتبُ نهايتَها، تصلبُ نفسَها»، «تسيرُ نحو مقبرةِ الحلم»، كما يقول آلان باديو.

قائدُ عمليّة صلبِ الثورة في المسرحيّة هو قائدُ الشرطة، جورج.

هو وإرما، رئيسة بيت الدعارة، يمثّلان واجهة «السلطة العارية».

ينتصران في نهاية المطاف.

البعدُ الهام، الرائعُ المبدعُ الفريد، في المسرحيّة هو:

رغم أن قائد الشرطة هو من يمتلك زمام النصر إلا أن صورته الشعبية لا تثيرُ إعجاب أحد، بعكس سائر رموزِ بيتِ الدعارة!

يُقرِّرُ قائد الشرطة حينها أن يُخرِج هيئتَهُ الجديدة على شكلِ قضيبِ ذَكرٍ هائل، يستحوذُ الجميع!

هنا تبدأ اللعبة الكبرى:

في حوارٍ له مع بعضِ رموزِ بيت الدعارة يقول قائد الشرطة:

ـ بعد كلّ هذا، أريد الآن أن أخوض معركة الأفكار الجريئة. ثمّة من نصحني أن أبدو على شكلِ قضيبِ ذَكَرٍ هائل!

الملكة: جورج!... كيف تتجرأُ قولَ ذلك؟.

قائدُ الشرطة: عليَّ أن أعمل ذلك إذا أردتُ أن أكون رمزَ الأمة، رمزَ جبرّوتكِ!.

يخاطب أحدُ رموزِ بيت الدعارة المِلِكةَ حينها:

ـ أتركيه سيّدتي. هذه لغة الزمن المعاصر!.

أختتمُ هذا العرض السريع لمسرحية جينيه بهذا الحوار شديد التعبيرية، حول النفوذ والسلطة:

يخاطبُ قائدُ الشرطة القاضي:

ـ فوقك، أعظم منك، ثمّة الملكة. منها تستمدُّ سلطتَك وحقوقَك حاليّاً. أعلى من المِلِكة، مرجعُها: العلَم الوطني الذي وضعتُ عليه صورةَ شهيدة الثورة: شانتال، قدّيستنا!

الأسقف: أعلى من مِلِكتِنا (التي نُقدِّسها)، وأعلى من العلَم، هناك الله الذي يتحدّثُ بصوتي!.

قائد الشرطة: ومن أعلى من الله؟. إنه أنتم أيّها السادة لأنه بدونكم لا وجود له. وأعلى منكم: أنا الذي بدوني...

القاضي: والشعب؟ ورجال الإعلام؟.

قائد الشرطة (ساخراً):

ـ لِنركع أمام الشعب، الذي يركع أمام الله!. ذلك يعني: . . . (ينفجر الجميع ضاحكاً!).

□□□

لن يجد القارئ صعوبةً في ملاحظة أن التطابق بين واقع اليمن اليوم والمسرحية يفقعُ النظر:

على سبيل المثال: كَثَمنٍ للانتفاضة الثورية لم يعد، في نهاية المسرحية، للملِكة وجودٌ ذو أهميّة، شأن ما حصل لِعلي عبدالله صالح وذويه.

تأخذ إرما موقعها رويداً رويداً.

مثل اليمن، صارت السلطةُ الحقيقية بيد قائدِ الشرطة ورئيسةِ بيت الدعارة، أهمِّ القوى الحيّة التي لعبت دوراً رئيساً قبل الثورة، بالتحالف مع الملكة.

السؤالُ المفصلي الكبير الذي انفتح بعد انتهاء الثورة هو:

كيف يُخرِجُ قائدُ الشرطة نفسَه الآن بِهيئةٍ جديدةٍ قويّةٍ جذّابة تناسب المرحلة القادمة؟

أي: كيف تظهرُ صورتُهُ الجديدة بـ"لغة الزمن المعاصر»، كما يقول الحوار أعلاه؟.

لعلّ «مؤتمر الحوار الوطني» الذي انعقد في اليمن، حضره حوالى ستمائة عضو، وسط لُعبةٍ إعلاميّةٍ ذات سيناريو دعائيٍّ رهيب، هو هذا الإطار الجديدُ الذي يُخرِجُ فيه قائدُ الشرطة نفسَه بـ«لغة الزمن المعاصر».

رسمَت «السلطةُ العارية» في اليمن تفاصيلَ هذا الحوار الوطني بِشكلٍ يتجاوزُ كل التوقّعات.

كان همّها أوّلاً أن يستمرَّ مؤتمرُ الحوار الوطني فترةً طويلةً خياليّة: ستة أشهر، بأيّ ثمن. وأن يمتلئ بالآليات الطويلة المتداخلة المعقّدة: اجتماعات فنية، نظام داخلي، نقاشات لوائح تنفيذية وتفاصيل لا حدَّ لها، ضجيجٌ وشدٌّ وجذب ومظاهر إعلامية استعراضية لا نهاية لها!.

كان همّها أن يفقد الواقعُ والناسُ كل أملٍ أثناءه، أن يتركّز نظرُهم حوله لا غير كـ"حلّ أوحد»، أن لا يثيرَهم أيّ إعجابٍ إلا بِشكلِهِ المبالغِ به، (الموازي لِقضيب الذّكر المبالغِ بِتضخيمِهِ في المسرحية)، أن يستحوِذَ رغباتهم ونزواتهم، أن يتمنّوه ويحلموا به، ويندموا إذا لم يشاركوا به، وكأنّه قد «فاتهم القطار» إذا لم يكونوا ضمن أعضاء ذلك المؤتمر.

ليس غريباً إذن، كما يبدو من مسرحية جون جينيه، أن يكون

قائد الشرطة حريصاً بشكلٍ لا حدَّ له على أن يكون الإخراجُ الجديد لموقعهِ في السلطة بعد الثورة مركزَ استقطابِ اليمنيّين ورغباتهم وآمالهم.

لا حلّ لِلمستقبلِ الشرعيّ الجذّاب لِقائد الشرطة إلا في هذا المؤتمر المبالغ بِطولِه، بضجيجه، بقيمتِه، بأهميّتِه، بِالدعاية الإعلاميّة له، وبخلطِهِ الكيمائيّ للضحيّة والجلّاد معاً، للمجرمِ والبريء معاً... في أوبرا يُجيد قائد الشرطة عزفها كما يشتهي.

لِضمانِ ذلك، لِضمان نجاح المؤتمر وحضورِ أعضائه كلَّ الجلسات خلال ستة أشهر، لم تبخل «السلطة العارية» بشيء!

ثمّة، على سبيل المثال، آليّةٌ لم تُمارَس في أيِّ مؤتمرٍ في العالَم:

ضرورةُ «توقيع حضور» عضو المؤتمر يوميّاً، واستلامه مقابل ذلك مبلغاً هامّاً يثيرُ لعابَ الشعبِ المقهورِ الجائع الذي لا يفهمُ ما هي معايير دفع ذلك المبلغ، لا سيّما في وطن راتب المواطنُ الشهر فيه لا يتجاوزُ غالباً مبلغَ حضورِ نصفِ يومٍ واحد لِعضو المؤتمر!

أضف أن ما يتقاضاه الموظّفون في العالم الخارجي، اثناء حضورهم أي مؤتمر، هو صرفيات مواصلاتِهم وغذائِهم وسكنِهم أثناء المؤتمر، وليس ثمناً يوميّاً لحضور الجلسات!.

كلُّ شيءٍ مُبالغٌ به في هذا المؤتمر، بِشكلٍ مرسومٍ بِعناية، لِيكونَ موقعُهُ في الحياة اليمنيّة مثل قضيب ذَكَر قائدِ الشرطة في مسرحيّة جون جينيه.

لا أستطيعُ أن أصف كم تتفِقُ، بشكلٍ بديعٍ مذهل، تفاصيلُ مسرحية جون جينيه مع واقع اليمن اليوم!.

لعلّ نتائجَ المسرحية أيضاً تستشرفُ ما سيحصل في اليمن قريباً:

سينجحُ مؤتمرُ الحوار الوطني بالتأكيد، بعد هذا الثمن الباهظ الذي تدفعه «السلطة العارية» لِنجاحه.

أي: سيتجذّرُ تحالفُ قائدِ الشرطة ورئيسةِ بيت الدعارة وستنتصرُ شرعيّتهما المطلقة في اليمن القادم!

(أي: ستنهزم الثورة وأحلامها بالإطاحة بهما وبناء يمنٍ جديدٍ على أنقاضهما!).

خلاصة القول: ليس لنا، إذا ما أردنا التشبُّثَ بالثورة وأحلامِها، إلا النهج الذي مارستهُ كل شعوب العالم التي دخلت العصر الحديث:

النقدُ الحيّ الدائم لِلُعبة تحالف قائد الشرطة ورئيسةِ بيت الدعارة، والرفض الإيجابيُّ البنّاءُ لِكلِّ سيناريو يحافظُ على بقائهما.

لا سبيل لنا إلا بفكرٍ قويٍّ منظّمٍ شعبي، ورفضٍ عمليٍّ ثائرٍ فعّال، كما يقول آلان باديو.

ما لم سنظلُّ خدَم رئيسة بيت الدعارة وقائد الشرطة و"السلطة العارية"!.

المحور السابع: حيّ على العلمانية!

العلمانية وتضليلات السلفيّين الأربعة

نجح سلفيّو الشعوبِ العربية بشكلٍ باهر بتقديم مفهومٍ تضليليٍّ للدولة العلمانية يثير رعبَ الكثيرين ورفضَهم، في حين يجدر أن تكون هذه الدولة اليوم أقدسَ وأنبلَ أهداف شعوبنا، لاسيما بعد تفجُّرِ ثوراتها الحديثة من أجل الحرية والكرامة، والخروج من عصور الخنوع والتخلف.

يلزم أوّلاً تقديم تعريفٍ للدولة العلمانية: هي دولةٌ تفصل بين السلطات السياسية، المالية، العلمية، والدينية. تُخضِعُها جميعاً للقانون المدنيّ الذي يحدِّدُ أدوارها وميثاق علاقاتها.

لهذا التعريف نتائجُ كثيرة، أبرزها إتاحةُ الدولةِ العلمانية حريةَ البحث العلمي والتعبير دون تدخل سلطةٍ سياسيّة أو دينية، وكذلك حريّةَ الرأي والإيمان أو عدم الإيمان بعقيدةٍ أو دِين.

كلُّ شعوبِ العالَم المتقدمة تحيا اليوم في دولٍ علمانية. يشملُ ذلك عدداً هاماً من الدول، من أميركا غرباً حتى اليابان شرقاً،

مروراً بكلٍّ أوروبا، من فرنسا حتى تركيا، وإن كانت العلمانيةُ التركيةُ تميل في الجوهر لِفرضِ خضوعِ السلطةِ الدينيةِ للسياسيّة، أكثر مما هي فصلٌ حقيقيٌّ بينهما.

يمكن تلخيص التضليلات السلفيّة لمفهوم العلمانية بأربعة:

التضليل الأول: ينعت السلفيون الدولة العلمانية بالدولة الملحدة. في ذلك بهتانٌ خالص لأن الدولة العلمانية لا تمنع ممارسة الدِّين، بل تحترمه بشكل عميق، كما تحترم عدم الإيمان به بشكل مماثل. الدول التي كبّلتْ الأديان وضيَّقت خناق العبادات، مثل الإتحاد السوفياتي في عهد ستالين أو فرنسا غداة ثورتها قبل أكثر من قرنين، لم تكن دولاً علمانية.

ليس ثمة ما يمنع تطوّر الدين في المجتمع العلماني أو حتّى وصول حزبٍ دينيٍّ إلى السلطة (كما هو حال الحزب الإسلامي الحاكم في تركيا اليوم) إذا ما التزم بقانون الدولة العلمانية وميثاقها الضمني الذي يفصل بين السلطات.

التضليل الثاني: يُصرُّ السلفيون على المزج بين العِلم والدِّين. يتحدّثون في هذا الإطار عن مفاهيم لا علاقة لها بالعِلم، كالإعجاز العلمي في القرآن مثلاً.

في ذلك تضليلٌ جذريٌّ لأن مفهومي الدِّين والعِلم لا يربطهما رابط: الأول مبنيٌّ على اليقين والإيمان المطلق بنظريّةٍ دينيّةٍ قاطعة، هائلةِ الحجم كثيرةِ التفاصيل عادةً، تبدأ مثلاً بِخلق

السماوات والأرض في سبعة أيام، ثم خلق آدم من نفخةٍ في صلصال، وخروج حواء من كتفه، قبل طردهما من الجنة بعد قصة التفاحةِ الشهيرة... والثاني مبنيٌّ على البرهان والسببيّة والتجربة، يتجاوزُ نفسَه يوماً بعد يوم. يمكن ممارسته من أيِّ أحد، ملحداً كان أم متديّناً، شريطة أن يستخدم أثناء ذلك العقلية العلمية التي لا تحتاج إلى أية فرضيةٍ أو نظريةٍ دينيّةٍ أو ميتافيزيقيّة.

منهجا العِلم والدِّين في تفسير ظواهر الكون والحياة لا علاقة بينهما إطلاقاً. لا يحتاج رَجل الدِّين، على سبيل المثال، إلى مختبرات علمية وأبحاث عميقة لدراسة كيف نشأت ظاهرة اللغة، لأن النظرية الدينية تقول له بكل سهولة إن آدم كان يتكلم (اللغة العربية، كما يقول فقهاء المسلمين) قبل هبوطه للأرض... فيما يحتاج رَجلُ العِلم إلى مختبرات وأبحاث طويلة معقّدة يشتركُ فيها علماء البيولوجيا والحفريات واللغات وسيكولوجيا اللغة وغيرهم، من أجل إجلاء أسباب ظهور ملَكة اللغة لدى الإنسان وتطورها بشكلٍ يختلف جذريّاً عن باقي الحيوانات... يلجأون بُغية ذلك إلى متابعةِ تطور مختلف ظروف حياة أسلاف هومو سابيانس (الإنسان الحديث) في شجرة الأنواع البيولوجية خلال ملايين السنين، وتحليلِ التركيب الفيزيولوجي لهم، مستفيدين من الاكتشافات العلميّة الحديثة.

لا يعني ذلك بالطبع أن الإلحاد يشكّلُ غايةً ما للعِلم، أو أن العِلم يقود إلى الالحاد بالضرورة. إذا كان العِلم يدحضُ بالفعل بعض المسلّمات التوراتية، كبناء الكون في ستة أيام أو سبعة، فاكتشافاته تفتح دوماً أبواباً للتساؤلات والفرضيات التي يخوض فيها الفلاسفة وعلماء الدِّين كلٌّ بطريقته، كتلك المتعلقة بماهية الصدفة في نظرية النشوء والارتقاء ودورها مثلاً.

التضليل الثالث: يقول السلفيّون إن الدولة المسلِمة أثبتتْ أنها دولة العِلم لأنها أنجبت جابر بن حيان وابن ٱلهيثم وغيرهم من علماء المسلمين في العصر العباسي، ولذلك لا تحتاج إلى العلمانية.

في ذلك الطرح جهلٌ عميقٌ بطبيعة العِلم الحديث من ناحية، وحجّةٌ واهية تثيرُ الاستغراب أيضاً.

لا شك في أن الدولة الإسلامية كانت في العصور الوسطى في أوجِ الحضارة الإنسانية. أثرَتْ خلالها كوكبةٌ من علماء المسلمين وفلاسفتهم وأدبائهم جُلّ الثقافة والمعارف الكونيّة أيما إثراء. لكن تكرار الحديث اليوم عن ذلك مثيرٌ للهزل إلى حدٍّ ما، لاسيّما بعد قرونٍ لم تستطع الدولة الإسلامية فيها مواكبة العصر، بل أضحت تتقهقر في مؤخرته، وفي هذا الزمن بالذات الذي بات أصغرُ مختبرٍ علميٍّ غربيٍّ يبتكِر كل يوم كميّةً من المعارف تتجاوز كل ما أنتجته القرون الوسطى.

في تكرار قول ذلك جهلٌ بتاريخ العِلم أيضاً، لأن الاكتشافات العلميّة الكبرى بالذات لم تتفجّر في الغرب العلماني إلا عند بدءِ تحرّرِ العِلمِ فيه (والفكر عموماً) من سلطة الدِّين، بشكلٍ تمّ تثبيتُهُ قانونيّاً في فرنسا على سبيل المثال، في ١٩٠٥، بقانونٍ شهيرٍ فصل الدّين عن الدولة، بعد أكثر من عقدين من فصله عن المدرسة التي نُزِعت من جدرانِها كلُّ الأيقونات الدينية، ومن مناهجها كلُّ الموادِ والمسلمات الدينية.

فمنذُ أن لم يعُد للدِّين الحقُّ بالتدخل بقضايا وشؤون الفكر، بدءاً بمواضيع دراساته وانتهاءً بِكتُبِهِ ومنشوراته ومحاضراته، انفتحت أمام الحضارة الإنسانية كلُّ الأبواب، لتتوالى سلسلةٌ من ثوراتٍ علمية وقطائع أبستمولوجية مع العلوم القديمة ومسلّماتها الدينية قادت للحداثة المعاصرة.

التضليل الرابع: يقول السلفيون إن العلمانية ظاهرةٌ غربيّةٌ بحتة، لا مرجعية لها في بلاد العرب، ويلزم عدم استيرادها، بل يجب مقاومتها.

لا ترتبط العلمانية في الحقيقة بحضارةٍ معيّنة: تضمُّ في الواقع، في ما تضمّ، مجتمعات شرقية مسلِمة كتركيا، أو بوذيّة كاليابان. إنها حاجةٌ جوهريّةٌ إنسانيةٌ عالميّةٌ كليّة، في لحظةٍ مُعيّنة من تطورِ الإنسانِ الحديث، مثلها مثل النضال ضد العبودية والاستعمار. نشأت جذورُ العلمانيّة تاريخيّاً في معمعان صراعٍ طويل خاضه مفكرو التنوير، أدّى بعد قرونٍ من الكفاح

إلى تأثيثِ فضاءٍ حرٍّ يستطيع الإنسان الحديث أن يمارس فيه حياته المدنيّة وحريّاته دون قيود.

لعل مرجعيتها في بلاد العرب أعمق جذراً من أية حضارةٍ أخرى: مَن، في أتون القرون الوسطى، شيّدَ المداميك الأولى للعقلانية واستقلال الفكر عن الخطاب الديني التقليدي، أفضل مِن كوكبةٍ من فلاسفة، تبدأ بالمعتزلة وتنتهي بابن رشد، صاحب «تهافت التهافت» وشرح أرسطو؟. مداميكٌ ترجمَتْها وتفاعلَتْ معها وتأثرَتْ بها وطوّرتْها بشكلٍ هائل حضارةُ الغرب قبيل عصور التنوير، أكثر من الحضارة العربية نفسها التي حُوربت وانحسرتْ فيها تلك الأفكار، ليسودَ فيها الانحطاط والظلامية حتى اليوم!.

من أبلغُ وأروع ممن فصل، في بداية القرن الحادي عشر، بين العِلمِ والدِّين أيما فصل، عندما قال:

إثـنـان أهـل الأرض ذو عـقـلٍ بـلا
دِيـنٍ، وآخـرُ دِيّـنٌ لا عـقـل لـه

فيلسوفُ الشعراءِ وشاعرُ الفلاسفة، أبو العلاء المعري؟

ثم لا يوجد في الحقيقة تضليلٌ أتفهُ من تضليلِ مفهوم «نقاء الحضارات» (عدا مفهوم «صراع الحضارات»!): لا تتطور في الواقع حضارةٌ ما دون أن تستوعب إنجازات الحضارات الأخرى أوّلاً وتتمثلها وتتجاوزها. ذلك ما برهنت عليه حضارةُ

لغة العرب ابتداءً من القرن الثامن عندما ترجمت تراث الإغريق والشرق واحتضنته قبل أن تصل لِمجدِها. كذلك فعلت الحضارةُ الأوروبية في منتصف الألفية السابقة مع تراث الحضارة العربية. وكذلك فعلت اليابان أيضاً في القرون الأخيرة.

ما الفرق بين الدولة العلمانية والدولة المدنية؟

يكتنِفُ استخدام مفهومَي «الدولة المدنية» و«الدولة العلمانية» في خطابنا العربي اليومي غموضٌ وخلطٌ وملابسات، لاسيما منذ بدء ثوراتنا العربية المجيدة التي فتحت بابَ الجدل على مصراعيه حول هذين المفهومين اللذين باتا يتصدَّران أهداف هذه الثورات.

للإجابة على عنوان هذا الفصل، وللتطرّق إلى الصعوبات التي ستواجه «علمنَةَ» الدول المدنية التي تنشدها الثورات العربية، يلزم التذكير أوّلاً بتعريفَي هاتين الدولتين.

الدولة العلمانية (المتجذّرة في حيوات معظم الدوّل المتقدّمة من أميركا غرباً حتى اليابان شرقاً، مروراً بكلّ أوروبا لاسيما تركيا، مركز امبراطورية الإسلام سابقاً) «دولةٌ تفصل بين السلطات السياسية، والمالية، العلمية، والدينية. تُخضِعُها جميعاً للقانون المدنيّ الذي يحدِّدُ أدوارها وميثاق علاقاتها».

كلمة «الفصل» هنا ليست شديدة الأهمية فقط، بل بيت القصيد... ثمّة مبدآن علمانيان جوهريان ينبثقان من هذا الفصل:

المبدأ الأوّل: تفصلُ الدولة العلمانية بين مجالين مختلفين في حياة الناس: العام والخاص. المجال العام (الذي يضمّ المدرسةَ، والفضاءَ المدني عموماً) مكرّسٌ لما يخدم جميع الناس، بغضّ النظر عن أصولهم وألوانهم ومعتقداتهم الدينية أو ميولهم الإلحادية. لا مرجعية فيه لأي دينٍ أو فلسفةٍ إلحادية. أما المجال الخاص فيستوعب كلَّ المعتقدات والرؤى الشخصية، دينية كانت أم لا دينية أو إلحادية.

المبدأ الثاني: تضمنُ الدولة العلمانية المساواة الكلية بين كل المتدينين بمختلف مذاهبهم، واللامتدينين والملحدين أيضاً. تدافع عن حريتهم المطلقة في إيمانهم أو عدم إيمانهم (حريّة الضمير) وتحترمها بحق.

لعلّ مفهوم «الدولة المدنية» انبثق غداة اندلاع الثورات العربية، واكتسب أهميّةً متصاعدة بعد أوّل انتصاراتها. يُعرِّفُ الكثيرون هذه الدولة بأنها دولة «تحقق جملة من المطالب المتعلقة بالمواطنة المتساوية وبالديموقراطية والحريات وحقوق الإنسان وغيرها من المطالب المتصلة بحاجة الشعوب العربية إلى التطور والتنمية، وتستمدُّ قانونها من الشريعة الإسلامية».

إذا كانت كل دولنا العربية اليوم أشكالاً مختلفة للدولة الدينية التقليدية، فالدولة المدنيّة المنشودة لا تختلف كثيراً هي أيضاً عن هذه الدولة الدينية إلا بنزعتها المُعلَنة لإرساء الديموقراطية والمساواة ومواكبة العصر الحديث، فيما تختلف الدولة المدنية بشكلٍ ملحوظ عن الدولة العلمانية.

لإجلاء ذلك يلزمنا تحديدُ بعض الفوارق الجوهرية بين مفهومَي هاتين الدولتين. أو بالأحرى يلزمُنا توضيح ما أضافته الدولة العلمانية إلى الحضارة الإنسانية، وما لا تمتلك الدولة المدنية شروط تحقيقه.

لعلّ أحد أبرز ما حققه مفهوم العلمانية على الصعيد الحضاري هو إنهاء الصراعات والاضطهاد الطائفي والحروب الدينية في الدول التي ترسَّخَ فيها هذا المفهوم، بفضل مبدئه الثاني. يكفي على سبيل المثال تذكُّرُ الخلافات الصدامية بين البروتستانتية والكاثوليكية في فرنسا وألمانيا وبريطانيا، والحروب الدينية الطاحنة التي سبقت عصر العلمانية. صارت هذه الحروب والصراعات مستحيلةً اليوم في المجتمعات العلمانية بفضل المساواة المطلقة بين الجميع.

لعل عدم اعتناقِ مفهومِ الدولة المدنية للمبدأ العلماني الثاني لا يبعث الأمل الجاد بإمكانية التساوي الكليّ الحقيقي بين مختلف الفئات الدينية أو العرقية في دولنا المدنية المنشودة، أو بإمكانية القطيعة مع ما يؤدّي إلى تمييز فئةٍ عن أخرى. أضف أن أدبيات

الدولة المدنية لا تضمن الاعتراف بحقّ عدم الإيمان أو الإلحاد.

أحد أبرز الإنجازات الحضارية الأخرى للدولة العلمانية إلغاؤها المطلق لِشرعية أية «فتوى» دينية أو سياسية تمسّ حياة عالِم أو مفكّر، أو تمنع إصدار أي كتاب، كما ازدحم تراجيدياً بذلك تاريخُ «فتاوى» الكنيسة في أوروبا... لا تبدو في مشاريع دولنا المدنية أية نوايا تتعلق بالفصل القانوني بين الدين والسياسة والعِلم، بغية القطيعة الجذرية مع تاريخنا العربي الحافل بفتاوٍ دينيةٍ وسياسيةٍ مضرّجةٍ بالقمع والدم مسّت حياة مفكرينا وأدبائنا بشكلٍ قياسيٍّ مريع.

تظلُّ المدرسة العلمانية أعظم إنجازات الدول العلمانية بلا منازع. يتأسّس عليها التفوق الحضاري لهذه الدول على سائر العالم. فهذه المدرسة (التي يَدرس فيها أبناء غير المتدينين أو ذوي الديانات والمذاهب المختلفة معاً، بشكلٍ حضاريٍّ متآلفٍ متناغم) مفصولةٌ تماماً عن تأثير أي دينٍ كان، أو فلسفةٍ مُلحِدة. تُعلِّمُ الطالبَ كيف يُفكِّر بروحٍ نقديّة، كيف يحكم وحده دون أي يقينٍ مسبق بأية عقيدةٍ أو أيديولوجيا، كيف يمارس حريّته في التحليل والتمحيص والرفض، وكيف يبني يوماً بعد يوم شخصيَّته المستقِلّة. تُكرِّس هذه المدرسة في الطالب العقليّةَ العلميّةَ الخالصة وتُنمّي استخدامَها لِفهمِ الكونِ والحياة انطلاقاً من مبادئ السببيةِ والتجربة والبرهان، وعبر دراسةِ نظريات العِلم الحديث، لاسيما نظريات النشوء والارتقاء، الانفجار

الكوني الكبير (البيغ بانغ)... تسمح له هذه المدرسة أيضاً الانفتاحَ على استيعاب كلِّ التراث الفكري الإنساني بمختلف تياراته الفلسفية، دينية أو لا دينية. هي باختصار: مدرسة ثقافة العقل والحرية والحداثة بامتياز.

لا يوجد مشروع الدولة المدنية، الذي تُلوِّحُ به الثورات العربية حتى الآن، أية رغبةٍ جليةٍ في قطيعةٍ جذريّةٍ مع فلسفةِ وتكوينِ المدرسة العربية الحالية التي أنجبت بامتياز أجيالاً ممن تعلموا الخضوع للجلاد، وترعرعوا في ثقافة التفسيرات الظلامية للكون والحياة، وحافظوا على سمعة تخلفنا العلمي والاجتماعي والحضاري عموماً.

ثمّة أيضاً إنجازٌ حضاريٌّ علمانيٌّ هام: تحوّلَ الدين في الدول العلمانية إلى سلطةٍ روحية خالصة، لا يستطيع السياسيّ التحكّم بها. لا يمكنه مثلاً إعداد الخطب الدينية التي تُلقى في المعابد، مثل حال خطب مساجد دولنا الإسلامية التي لا تخجل أحياناً من التصريح بأن حاكمَ بلدِها «سادسُ الخلفاء الراشدين وأميرُ المؤمنين وسليلُ رسولِ رب العالمين!».

باختصار شديد: ينتمي مفهوم الدولة العلمانية إلى نخبةٍ من المفاهيم الإنسانية الحديثة الراقية التي تتغلغل جذورها في أعماق الفكر الإنساني العالمي، لاسيما العربي المتنوّر. لا يرتبط هذا المفهوم بالطبع بنظامٍ محدّد، رأسمالي أو اشتراكي، يمينيٍّ أو يساري.

رغم توسّع انتشار العلمانية دولياً، يجد مفهومُ العلمانية عراقيل وكوابح لا حدّ لها في مجتمعاتنا العربية، تنذر بصعوبةٍ هائلة ستواجه عَلمنَة دولهِ المدنية المنشودة.

لعلّ أبرز مناهضي هذا المفهوم هم الظلاميون الذين يمارسون تجاهه تضليلاتٍ ذكيّة تَعرَّضنا لها في فصلٍ سابق. يرافقهم بالطبع الطغاة العرب الذين يتدخّلون بضراوة في شؤون الدين ويستخدمون الفقيه مطيةً للسيطرة على أدمغة أبناء شعوبهم، وممارسة ديكتاتورياتهم.

ليس هؤلاء فحسب، بل هناك العديد من «الثوريين» العرب الذين يتسمّرون أمام مفهوم العلمانية أو يعتبرونه، بكل بساطة، مفهوماً استعمارياً كونه انطلق من الغرب، رغم تِكرارهم لمصطلحاتٍ نهضت أيضاً في الغرب ذاته، كالديموقراطية وحقوق الإنسان.

ثمّة أيضاً عددٌ من المثقفين العرب الذين يجدون صعوبةً في خوض الانتقال للفكر العلماني، لأسبابٍ متنوّعة لا يمكن حصرها في هذا الفصل.

لعلّ أبرز هذه الأسباب خيبة هؤلاء المثقفين العرب من السلوك اللاإنساني الجشع، أو اللاعلماني المنافق، لقادة عددٍ من الدول العلمانية الغربية وبعض مفكريها، خارج دولهم أو داخلها أيضاً.

يكفي على الصعيد الخارجي تذكُّرُ تحالف قادة هذه الدول، في عمق الحرب الباردة، مع السلفيين المسلمين وتدريبهم عسكرياً ضد «الشيوعية الكافرة» في أفغانستان، وما أدت إليه عواقبه من كوارث زلزلت الغرب في عقر داره. أو يكفي اليوم مراقبة التحالف المقدس لأميركا العلمانية مع سياسات التوطين الإسرائيلية المنطلقة من أسس لاعلمانية رجعية عنصرية: «أرض الميعاد»، «خير أمة أخرجت للناس».

لا يجد هؤلاء المثقفون العرب، وعندهم كلُّ الحق في ذلك أيضاً، منطقاً لفهم الازدواجية في سموّ مبادئ العلمانية ذات البعد الإنساني الراقي من ناحية، وفي خساسة السياسات الاستعمارية والاقتصادية والمالية الجشعة للدول العلمانية وما تصنعهُ من أزمات دولية تدمِّرُ الدول النامية من ناحية أخرى.

ويكفي، على الصعيد الداخلي لبعض الدول العلمانية، ملاحظة كيف يلجأ بعض قادتها السياسيين، مثل بعض قادة اليمين الفرنسي، إلى تسريب تصريحات انتخابية ديماغوجية نتنة، تسيء للعلمانية أساساً، بهدف إرضاء بعض العنصريين من الناخبين الذين لا يحترمون، لسببٍ أو لآخر، الأديان التي دخلت النسيج الاجتماعي الفرنسي في العقود الأخيرة كالإسلام.

لا تخلو مواقف بعض قادة اليسار ومفكريه من أخطاء موازية تسيء للعلمانية هي الأخرى عندما تلجأ، في معمعان معارضتها

الإيديولوجية لليمين، إلى سلوكٍ لاعلمانيٍّ يدافعُ، باسم الحريّة الشخصية، عن مظاهر دينية ظلامية صارخة، كالنقاب الوهابيّ الطالباني، تتسلّل لِفضاء المجال العلماني العام الذي يُفترض أن يخلو من أي مظاهر تُخِلّ بالمبدأ العلماني الأول.

ولعلّ سلوك بعض العلمانيين المتطرفين، الذين يمارسون العلمانية كدِين، يسيءُ هو الآخر لمفهومها. لا يستوعب هؤلاء مثلاً دور الاسطورة والأديان في حياة الكثيرين. يغامرون أحياناً بإقحام العِلم والفكر الحر في جدَلٍ هدفه دحض فرضياتٍ دينية بحتة (مع أنها ليست فرضيات علميّة أساساً) أو السخريّة بحدّة من رموزٍ مقدّسة ذات أهميّة عاطفية قصوى في حياة المتدينين... أليس من الكياسة بمكان عدم تجريح هؤلاء أو إيذاء مشاعرهم بمسِّها الكاريكاتوري الواخز؟.

لنفصل الدين عن مدرسة الدولة المدنية!

يزداد الحديث اليوم عن مفهوم الدولة المدنية التي تنشدها الثورات العربية. غير أن هذا المفهوم لم يتم تحديده بدقة حتى الآن.

نعرف جميعاً ما يعني مفهوم الدولة الدينية: المثل الأكبر على ذلك المملكة السعودية.

نعرف أيضاً ما يعني مفهوم الدولة العلمانية: المثل الأكبر على ذلك فرنسا، وإلى حدٍّ كبير سائر دول أوروبا من فرنسا إلى تركيا، وعدد آخر من الدول المتطورة.

ربما يلزم أن أعطي تعريفاً أدقّ لمفهوم الدولة العلمانية دون الاكتفاء بالأمثلة.

الدولة العلمانية دولةٌ تحترم حريّة الضمير والاعتقاد: الإيمان أو عدم الإيمان فيها بدين أو عقيدة لا يُهمّ إلا المؤمن أو الملحد وحده.

القانون فيها لا ينطلق من أي شريعةٍ سماوية أو عقيدةٍ إيديولوجية، لا يُميز بين الناس انطلاقاً من عقائدهم ودياناتهم. يتساوى أمامه الجميع بغضِّ النظر عن جنسهم، عرقهم، لونهم، عقيدتهم، ديانتهم أو إلحادهم. . .

الدين في الدولة العلمانية مفصولٌ عن الدولة: ابتدأ العمل بذلك الفصل، في فرنسا، في عام ١٨٧١. أُلغيت حينها ميزانية دعم العبادات، وتحوّلت الكنائس إلى ملكية للدولة، شأنها شأن المتاحف. يزورها من يحب من البشر، بغض النظر عن هويّته، للتمتع برؤيتها كتراثٍ معماري، أو لسماع الموسيقى، أو للعبادة إذا أحب!. كلّ ما يحتاج إليه المتدينون، لممارسة عباداتهم في الدولة العلمانية، يكون تمويله من قبلهم فقط. لا يحق للدولة دعم ذلك.

لكن الدولة العلمانية تحترم كل الأديان، وإن لا تعترف بها في الجوهر. لم يكن الاتحاد السوفياتي في عصر ستالين، على سبيل المثال، دولة علمانية، لأنه أغلق الكنائس وضايق الأرثوذكسيين في عباداتهم.

المدرسة في الدولة العلمانية لا تعترف بأي دينٍ كان. أُقِرَّ ذلك، في فرنسا على سبيل المثال، بقانونٍ شهير في ١٩٠٥، سُحِبتْ إثرهُ كل صور المسيح وكتب التوراة والأيقونات الدينية من المدارس.

الأهم هنا هو أن الدّين لا يُدرَّس في مدرسة الدولة العلمانية لأنها لا تعترف به في الجوهر. مبدأها أن التعليم الحقيقي لا يمكنه إلا أن يكون علمانياً، لأن الأديان تتطلب اليقين والإيمان المسبق بكلّ خطابها وتفسيرها للوجود والحياة، فيما منهج العِلم معاكسٌ لذلك تماماً: يرفضُ العِلمُ اليقينَ المسبقَ بأي خطاب. يتكئ على مبدأ البرهان العلمي لا غير. يتطوّر ويتجاوز نفسه يوماً بعد يوم.

المدرسة العلمانية لا تعترف، على سبيل المثال، بنظرية الخلق الدينية (قصة حواء التي خرجت من كتف آدم، التفاحة، الحيّة، الهبوط من السماء للأرض كعقوبة على هذه الخطيئة... وكل التاريخ الديني الذي تقدمه الكتب السماوية). لا تدرَّسُ فيها إلا النظرية العلميّة التي تفسر نشوء الحياة على الأرض: نظرية النشوء والارتقاء.

حاول التعيس جورج بوش (مدعوماً بـ«الخلقيين» في أميركا: منظمةٌ يدعمها اليمين المتطرف والظلاميون) السماح، في بعض الولايات الأميركية، بتدريس نظرية الخلق الدينية بجانب النظرية العلمية. أثار ذلك حينها رفضاً وصراعاً كبيراً بين الخلقيين من ناحية، والعلماء والتربويين من ناحية أخرى.

انتهى كل ذلك الآن، لاسيما بعد انتخاب أوباما الذي أعاد المياه إلى مجاريها مكرّراً أن نظرية الخلق الدينية ليست علمية، ولا يُسمح لذلك تدريسُها في مدارس أميركا.

باختصارٍ شديد، الدولة العلمانية دولة الحريّة والقانون المدنيّ والمساواة والعلم الحديث. لكن ماذا تعني الدولة المدنية؟

إذا كانت تعني الدولة العلمانية فذلك جليٌّ رائع في نظري، أما إذا كان لها تعريفٌ آخر، فيلزم تحديده بدقّة.

وهذه الدقة تنقص في كثيرٍ من التعريفات التي تصاغ اليوم، في صحفنا العربية، لمفهوم «الدولة المدنية». ثمّة اتفاقٌ فيها على أن الدولة المدنية «تحقق جملة من المطالب المتعلقة بالمواطنة المتساوية، وبالديموقراطية والحريات وحقوق الإنسان وتحديث التعليم وتطويره وغيرها من المطالب المتصلة بحاجة الشعوب العربية إلى التطور والتنمية»، لكن هذه التعريفات لا تميل غالباً للتحديد الدقيق لعلاقة الدين بالدولة المدنية.

أفهم تماماً أن واقعنا العربي وسياقه التاريخي يختلف عن واقع وسياق تاريخ الغرب، وأن استيراد مفهوم الدولة العلمانية بصيغته الغربية لا يناسب واقعنا العربي الراهن.

لا يضايقني شخصيّاً أن تدعم الدولُ المدنية المنشودة لثوراتنا ميزانيات المساجد والكنائس ومعابد اليهود وسائر العبادات، وتهتم بها كلّ الاهتمام. لكني أعتقد أن إنجازاً تاريخياً عظيماً لثوراتنا العربية سيتحقق إذا ما فصلَتْ الدين عن المدرسة على الأقل.

أعترف بأن بقاء تدريس الدين في المدرسة، كما كان عليه قبل

هذه الثورات العربية الظافرة، لن يمنع التعليم العربي من تخريج أطباء ومهندسين وفنيّين يجيدون استخدام ما أنتجته الحضارة الغربية.

لكن ما أتمناه لواقعنا العربي هو أعظم من ذلك بما لا حدّ له. أريده ألاّ يكون مستخدِماً لحضارة الغرب وحسب، بل مساهماً، شأنه شأنها، في صناعة الحضارة الإنسانية.

لن يكون ذلك إلا عندما يكتسب الطالبُ، بفضل مدرسة الدولة المدنية، العقليةَ العلميةَ الماديّةَ المبنيةَ على التساؤل والرفض والنقد والبرهان.

الدينُ عائقٌ طبيعيٌّ أمام اكتساب هذه العقلية، لأنه يؤسس عقليّةً غيبيّةً معاكسةً لها تماماً. أضف أنه يلجأ أحياناً إلى استخدام المفاهيم الميتافيزيقية المشوّشة، مثل مفهوم «الإعجاز العلمي في الكتب السماوية»، التي تحوّل بوصلة العقليّة العلميّة ١٨٠ درجة في الاتجاه المعاكس.

باختصارٍ شديد: لتدعم دولتنا المدنيّة المنشودة المعابد الدينية ما شاءت، لكن ليكن تعليمُ مدرستنا الجديدة، على الأقل، علمانيا خالصاً، لأن التعليم الذي يصنعُ الحضارة لا يمكنه إلا أن يكون علمانياً خالصاً!.

في مديحِ الفصلِ بين الشوربة والروث

يُطلَقُ اسم «المُخضّريّة» في اليمن على كل خليطٍ عشوائيٍّ متنافرٍ وغير طبيعي. مصدرُ ذلك حكايةٌ يمنيّةٌ متداولةٌ قديمة يُروى فيها أن أحد بائعي سوقٍ شعبيٍّ كان يقوم ببيع «البرعي» (شوربة يتناولها الناس وهم واقفون أثناء مرورهم بالسوق)... ذات يوم، بينما هو يُعدُّ شوربته، مرّت دابّةٌ ألقت بشذراتٍ من روثها في القدر، على غفلةٍ من البائع.

ما إن رأى البائعُ الروثَ في شوربته حتى سارع إلى تحريكها وخلطها، بعدما تأكد أن أحداً لم يلاحظ أو يرمق ما حدث. حالما تذوّقَ الزبناء الشوربة أبدوا استياءهم من مذاقها ولونها الغريب الأخضر. أجابهم البائع: «هذه مُخضّريّة!... كُلوا، هنيئاً مريئاً وأحمدوا الله!».

إذا كانت هناك كلمةٌ واحدةٌ تُلخِّصُ اليوم بُنيةَ حياة بلاد العرب فهي: مُخضّرية. لأن كلّ مجالات حياتنا السياسية والدينية

والمالية والعلمية تختلط معاً في «مُخضّرية» قوميّةٍ من المحيط إلى الخليج.

لعلّ هذا الخلط هو جذر تخلف بلداننا العربية اليوم، لأن تاريخ تطوّرِ الحضارة الإنسانية ليس أكثر من تاريخ الفصل بين مختلف مفاهيمها وسلطاتها: إذ لم تتقدّم الثقافات والعلوم إلا على إيقاع الفصل بين الحدث التاريخي والأسطورة، بين التاريخ العلمي والتاريخ الديني، بين المبرهن واللامبرهن، بين الفضاء الشخصي والفضاء العام... يُقضّي العِلمُ وقتَه يفصلُ الظواهر والمجالات والافتراضات ويعزلُها لِدراستها وحلِّها بُطرقٍ متخصِّصةٍ ملائمة. لم تتقدّم الحضارة الحدثية إلا بفضل الفصل بين السلطات السياسية والدينية والعلمية والمالية.

لنأخذ العلاقة بين السلطتين العلميّة والمالية كَمَثل: الفصلُ بين الإدارة العلمية والإدارة المالية في الجامعات (شأن باقي الدوائر الحكومية في بعض الدول المتطوّرة) مفتاحُ شفافيتِها في تلك الدوّل وحصانتِها من الفساد. بِفضل ذلك الفصل لا تخضع الإدارة المالية في الجامعة لِسلطة رئيس الجامعة. هي سلطةٌ موازيةٌ لِسلطته ومستقلّةٌ عنها، تخضعُ لـ «محكمة الحسابات» أو وزارة المالية أو غيرها في جهاز الدولة المالي.

عندما يتقدم رئيسُ الجامعة أو رئيسُ قسم أو أستاذٌ مسؤولٌ عن مشروعٍ علمي بطلب صرف ماليٍّ لإنجازِ مهمةٍ أو شراءِ جهاز، يصل ذلك الطلب للإدارة المالية التى تضبط، باستقلاليةٍ كاملةٍ

عن رئيس الجامعة أو المسؤول العلمي، مدى انسجامه مع اللوائح المالية. ترفضُ بعدها أو تقبل الطلب محدِّدةً المبلغ المطلوب لِذلك.

بالمقابل، لا يحق للإدارة المالية صرف أي مبلغٍ لوحدها. يقتصر دورُها على تقديم كشوفات ماليّةٍ تفصيليّةٍ وشفّافةٍ جدّاً للاجتماعات الدورية لمجالس الأقسام والمختبرات والمجلس الإداري للجامعة، وعلى رقابة انسجام الصرفيات مع اللوائح والقوانين لا غير.

يضمن هذا الفصل بين السلطات الإدارية العلمية والمالية، في الدول المتطورة، الشفافيةَ وعدمَ الفساد. في حين أن المزج بين هذه السلطات في إدارات المؤسسات العربية عموماً يُعطي لرئيس الإدارة سلطاتٍ مطلقة، ويُحوِّلُ المؤسسة غالباً إلى إقطاعيّةٍ صغيرة تسير بآلية عملٍ كمداء تفتحُ أبواباً متّصلةً خفيّةً لتحقيق المصالح الشخصية الصغيرة وتفشّي الفساد.

المزج بين الدين والسياسة في حياتنا العربية هو الآخر «مُخضّريةٌ» لا تضاهيها مُخضّرية.

في محاضرةٍ في مؤتمر دينيٍّ مصري قال محمد بديع، المرشد العام لجماعة الإخوان المسلمين (صحيفة «الأهرام»، ١٩ أيار/ مايو ٢٠١١): «انتهى زمن لا سياسة في الدين ولا دين في السياسة. فالإسلام دين ودولة وحضارة وثقافة ورياضة» وكأنّ الدِّين والسياسة لم يكونا ممزوجين حتّى مخ العظم في مصرِ ما

قبل ثورة ٢٥ كانون الثاني/ يناير، وفي كل واقعنا العربي اليوم.

يضمنُ هذا المزج بين الدين والسياسة ديمومةَ الأنظمة الاستبدادية العربية ويحافظُ على تخلفنا بنجاحٍ منقطعِ النظير. إذ ليس لذلك المزج حدود: يكفي مثلاً سماعُ نائبِ رئيس لجنة حماية الوطن والمواطن في سوريا، الشيخ أحمد شيخو، يقول «إن الملائكة تُسبِّحُ لِبشار الأسد».

يكفي أيضاً، لِمعرفة كيف يُستخدمُ الدِّين أداة قذرة بيد نظام طاغية اليمن، سماعُ بيان اجتماع علماء اليمن وهو يفتي، بتحريم المظاهرات، وبأن الخروج على ولي الأمر علي عبدالله صالح «بغي»، وبأن قتل البلاطجة للمواطنين اليمنيين «جهادٌ في سبيل الله».

مخاطرُ تحوّلِ العلاقة بين الدولة والدين إلى طبقٍ من المُخضريّة لا تقتصر على دورِ علماء نظام صالح بل تشملُ عدداً من علماء الدين الذين يقفون اليوم مع الثورة في اليمن: يكفي إدراك أن أحد خطباء ساحة التغيير في صنعاء هو من أفتى بتحليل زواج الفتيات الأطفال مُشرِّعاً بذلك «البيدوفيلية» وانتهاك المحارم. وأن سلفيّاً شهيراً، توغّل في تخوم الشعوذة عند «اختراعه» دواءً دينيّاً لعلاج مرض الإيدز يروحُ ضحيّتَهُ أبرياءٌ من المرضى يتوافدون إليه من أطراف الأرض، يدعو اليوم لبناء «الدولة الدينية» بعد انتصار ثورة اليمن.

العلمانية لا تعني في الجوهر أكثر من فصل السلطات السياسية والدينية والعلمية والمالية لا غير. هي ليست أقلَّ رشداً وحكمةً من فصل الشورية عن الروث. هي باختصار شديد: مضادٌّ حيويٌّ فعّال ضد وباء الدولة ـ المُخضّريّة.

لذلك هي مبدأٌ إنسانيٌّ راقٍ يتبوأ نفس مقام المبادئ السامية كالحريّة والديموقراطية والمساواة. هي ليست أيديولوجيا أو نظاماً سياسيّاً جديداً: بإمكان المرء أن يكون يساريّاً أو يمينياً، رأسمالياً أو شيوعياً، بإمكانه أن يمتلك أيةَ رؤيةٍ أو ايديولوجيةٍ سياسية، ويكون علمانيّاً في الوقت نفسه. هي ليست دِيناً أو عداءً لِدين: بإمكان الإنسان أن يكون متديّناً أو لامتديّناً أو ملحداً، ويكون علمانيّاً في الوقت نفسه.

يكفي التأمل بعبارة رجب طيّب أردوغان، رئيس وزراء تركيا ورئيس حزب العدالة والتنمية الإسلامي الذي وصل ديموقراطيّاً للسلطة في تركيا العلمانية: «أنا مسلم وأحكم دولة علمانية!».

ليس غريباً أن تثير هذه العبارة سخطَ السلفيين والطغاة العرب لأنها تنسف ببساطة كلّ أكذوباتهم الفاحشة التي نجحت في تشويه مدلول العلمانية وفي اتهامها بالعداء للدّين، وأمعنَتْ في تضليل المواطن العربي وتخويفه من هذا المفهوم الحضاريّ شديد الجوهرية.

وليس غريباً أيضاً أن يُلوِّحَ اليوم كثيرٌ من المثقفين العرب

بعدائهم الشرس الذي لا يقبل النقاش لمفهوم العلمانية، ليس فقط تحت استفحال تأثير تلك التضليلات السلفية، لكن أيضاً بسبب نفاق حكام الدول الغربية العلمانية، أو ربما أحياناً لأن الاختيارَ الفكريَّ الحرّ لهولاء المعادين للعلمانية ومزاجهم الذوقيّ الشخصيّ هو الانتماءُ لما يمكن تسميته مجازاً: نادي «عشاق المُخضّريّة».

المؤلف

- من مواليد عدن، ١٥ أغسطس ١٩٥٦ .
- بروفيسور جامعي في علوم الكمبيوتر بقسم هندسة الرياضيات التطبيقية (كلية العلوم التطبيقية، روان، فرنسا)، منذ ١٩٩٢ .
- روائي وكاتب ينشر بانتظام في المجلات والصحف العربية: الحياة، القدس العربي، الدوحة الثقافية، الوطن المغربية، منبر ابن رشد، صحف يمنية . .
- يشرف على مشاريع فرق أبحاث جامعية دولية مشتركة، وعلى كثير من أبحاث الدكتوراه .

صدر له:

في الرواية:

- **الملكة المغدورة**، (بالفرنسية)، دار لارماتان، فرنسا، ١٩٩٨، ترجمها للعربية علي محمد زيد، دار المهاجر، اليمن، ٢٠٠٢ .

- **دملان**، (ثلاثية روائية)، دار الآداب، لبنان، ٢٠٠٩.
- **طائر الخراب**، رياض الريس للكتب والنشر، لبنان، ٢٠١١.
- **عرق الآلهة**، رياض الريس للكتب والنشر، لبنان، ٢٠٠٨.
- **تقرير الهدهد**، دار الآداب، لبنان، ٢٠١٢.
- **أروى**، دار الساقي، لبنان، ٢٠١٣.

في القصة:

- **همسات حرّى من مملكة الموتى**، دار العفيف الثقافية، اليمن، ٢٠٠٠.

في الشعر:

- **شيءٌ ما يُشبهُ الحب**، دار العفيف الثقافية، اليمن، ٢٠٠٢.

في الفكر:

- **عن اليمن، ما ظهر منها وما بطن**، دار العفيف الثقافية، اليمن، ٢٠٠٥.
- نُشرت له كتب علمية عديدة، وأكثر من ٩٠ بحثاً علمياً، بالفرنسية والإنكليزية في مؤتمرات ومجلات علمية دولية محكّمة.

فهرس الأعلام

آدم (النبي) ٥٥، ١٥٤، ١٦٥، ١٦٦، ١٧٣، ١٧٤، ١٩٠، ١٩١، ٢٦٥، ٢٨١

آل زبير، ابن حكيم موسى ٧٣

آينشتاين ٢٩، ٩٤

إبراهيم (النبي) ٥٨، ٦٣، ١٦٢، ١٦٣

ابن اسحاق ٧٢، ٧٣

ابن حيان، جابر ٢٦٦

ابن رشد ٩٩، ١٠٤، ١٣٨، ٢٦٨

ابن ضرار، الشماخ ١٥٩، ١٨٨

ابن عبد المطلب، حمزة ١٦٢، ١٨١

ابن القارح ٨، ١٥٣، ١٥٧، ١٥٨، ١٥٩، ١٦٠، ١٦١، ١٦٢، ١٦٣، ١٦٤، ١٦٥، ١٦٦، ١٧١، ١٧٢، ١٧٣، ١٧٨، ١٧٩، ١٨٠، ١٨١، ١٨٣، ١٨٤، ١٨٦، ١٨٧، ١٨٨، ١٩٠

ابن هشام ٧٢، ٧٤

ابن الهيثم ٢٦٦

أبو مازن العثماني ١٦١

أبو مرة ١٧٣

أبو هدرش ١٨٦

الأخطل التغلبي ١٦٥

أردوغان، رجب طيب ٢٨٩

أرسطو ٤٣، ٢٦٨

الإرياني، صباح ٤٥

الإرياني، مالك ٤٥

الأسد، بشار ١٩، ٢٨٨

الأصمعي ١٢٤، ١٣٧، ١٦١

الأعشى ١٥٩، ١٦١، ١٨٤

الأغبري، سامية ٢٣١

إمام، عادل ٢٤٥

امرؤ القيس ١٦٣، ١٨٢، ١٨٥

أوباما ٨٦، ٢٨١

اوس بن حجر ١٦٤

ب

باديو، آلان ٢٢٧، ٢٥١، ٢٥٢، ٢٥٩
باسكال، بليز ١٨، ٦٤
البردوني، عبد الله ٢٤٩
بديع، محمد ٢٨٧
برودوم ٢٠٠
بشار بن برد ١٦٣، ١٨٣
بلقيس ٩١، ٩٤
بن علي، زين العابدين ٢١٦، ٢١٩، ٢٣٧
بني جعدة ١٦٠
بوش، جورج ٢٨١
بوين، جيرد ٦٠
بوييه، باسكال ٦٦، ٦٧
بيساريا، سيزار ٢١٢
بيكاسو ١٧

ت

تاماران، جورج ٦٥، ٦٦
تشاوشيسكو، نيقولاي ٢٠٩
تيكيت، انجيليك ٢٠٧

ج

جبريل ٧٣
جوزياس (الملك) ٥٤
جينيه، جون ٢٥١
جيوتين (الدكتور) ١٩٩

ح

الحارث اليشكري ١٦٤
الحسن البصري ١٨٧
حسين، صدام ٢١٠
حمزة بن الحبيب ١٨٧

خ

خديجة، زوجة الرسول ٧٣

ث

ثور بن زيد ٧٢

د

داروين، تشارلز ٢٩، ٣١، ٣٢، ٣٣، ٣٥، ٣٦، ٣٧، ٣٩، ٤٠، ٤١، ٤٢، ٤٣، ٤٤، ١٠٣، ١٢٧
دانتون ١٩٧، ٢٠٠، ٢٠٦
دانتي ١٦، ١٨
دوبسون، جيمس ٨٦

ر

رامبو، أرثور ١٧، ١٩
الرصافي، معروف ٧١، ٧٦
روبيسبير ١٩٧، ١٩٩، ٢٠٢
رُوي، أوليفيه ٢٣٠
سانسون الأول ١٩٧، ٢٠١، ٢٠٢
سانسون الثالث ١٩٨
سانسون السابع ١٩٧
سانسون، شارل ٢٠٠، ٢٠٧، ٢٠٨
سانسون، هنري كليمان ١٩٧، ٢٠٢
ستالين، جوزيف ٢٨٠
السرمدي ١٨٥
سروري، حبيب ١٥
سريوس (الملك) ٥٦
سليمان (النبي) ٥٣، ٦٠، ٨٩، ٩١، ٩٢، ٩٦، ١٠٧
سوليرس، فيليب ١٦

ش

شكسبير ١٠١
الشنفري ١٨٣
شيخو، أحمد ٢٨٨

ص

صالح، علي عبدالله ٤٥، ٢١٥، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٣٣، ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٣٨، ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤١، ٢٤٣، ٢٤٤، ٢٤٥، ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٥٥، ٢٨٨

ط

طرفة بن العبد ١٨٣

ع

عبد الملك بن مروان (الخليفة) ٥٩
عثمان، أروى عبده ٢٣١
عثمان بن عفان (الخليفة) ٥٨
العطاس، هدى ٢٣١
علقمة ١٦٤
علي بن أبي طالب (الإمام) ١٦٢، ١٨١
عمرو بن كلثوم ١٦٤، ١٨٣
عنترة العبسي ١٨٢
عيدان، عدنان ١٣١
عيسى (النبي) ٦٣

غ

غاليليو ٤١، ١٠٩، ١١٠

ف

فاطمة بنت الرسول ١٦٢، ١٨٢

الفراهيدي، الخليل بن أحمد ١٢٤، ١٣٧
الفرزدق ٨٢، ١٠٢
فرعون ٥٢
فرويد ٤٣
فيثاغورس ٣٣، ٤٠
فيرجيل ١٦

ق

القذافي، معمر ٢١٥، ٢١٦، ٢١٧، ٢١٨، ٢٢٠، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٣٨، ٢٣٩
القرضاوي (الشيخ) ٢٢٣
القمحاوي، عزت ٢٤١

ك

كاسو نوجيس، بيير ١٦٩، ١٧١، ١٧٢، ١٧٦
كامو ٢٣٢
الكلامي، خالد بن معدان ٧٢

ل

لامارك ٣٥
لويس الخامس عشر (الملك) ١٩٨
لويس السادس عشر (الملك) ١٩٧، ٢٠٩
ليبدو، بيير ماري ٤٧

م

مارغريت ٢٠٠
ماري أنطوانيت (الملكة) ١٩٧
مبارك، حسني ٢١٦، ٢١٧، ٢١٩، ٢٢١
محمد (النبي) ٧١، ٧٥، ١٦٢، ١٦٦، ١٨١، ١٨٢
المعري، أبو العلاء ١٥، ١٦، ١٧، ١٨، ١٩، ٢٠، ٢٩، ٤٤، ١٠٩، ١٥٣، ١٥٤، ١٥٥، ١٥٧، ١٦٠، ١٦١، ١٦٥، ١٦٧، ١٧١، ١٧٢، ١٧٣، ١٧٤، ١٧٥، ١٧٩، ١٨٢، ١٨٤، ١٨٦، ١٨٧، ١٨٨، ١٨٩، ١٩١، ١٩٢، ٢٦٨
المقطري، بشرى ٢٣١
موزار ١٧
موسى (النبي) ٥١، ٥٢، ٥٣، ٥٥، ٦٣

ن

نبوخذ نصر ٥٤

هـ

هيديغر ١٧

هيغو، فيكتور ١٩٦، ٢٠١
هيكل، محمد حسين ٧٦

ي

يزيد بن معاوية ١٦٥
يوحنا بطرس الثاني (البابا) ٤١
يوسف، سعدي ٢١٧

فهرس الأماكن

أ

الاتحاد السوفياتي ٢٨٠
أريحا ٦٥، ٦٦
إسرائيل ٦١، ١٢٣
أفريقيا ٢١٥، ٢٢٠
أفغانستان ٢٧٧
ألمانيا ٦٠، ٢٧٣
أميركا انظر الولايات المتحدة الأميركية
أوروبا ١٦، ٢٢٨، ٢٦٤، ٢٧١، ٢٧٩

ب

بابل ٥٤، ٥٥، ٥٦
باريس ٨٠، ٩٥، ١٩٧، ٢٠٠، ٢١٩
بحر المانش ٨٠
بريطانيا ٢٧٣

ت

تركيا ٢٦٤، ٢٦٧، ٢٧١، ٢٧٩، ٢٨٩
تكساس ٢١٧
تونس ٢٢٦، ٢٣٤

ج

جبل سيناء ٥١
الجزائر ١٢٨، ١٣١
جزر أرخبيل الغالاباغوس ٣٢
جزيرة سوقطرة ٢٣٤

ر

الرقة ٢٠٤

س

سورية ٢٠٤، ٢٣٦، ٢٤١، ٢٨٨

ش

الشرق الأقصى ١٣٨
الشرق الأوسط ٥٤

ص

صنعاء ٦٠، ٢٣٨
الصين ١٣٥

ع

العالم العربي ١٤، ٣٠، ٤٤، ١٢١، ١٢٦، ١٣٠، ١٣١، ١٤٥، ١٤٦، ١٤٩
العراق ٢١٠

ف

فرنسا ٧٥، ٢٠٢، ٢٦٤، ٢٦٧، ٢٧٣، ٢٧٩، ٢٨٠
فلسطين ٥٣، ٥٤

ق

القاهرة ٢٢٧، ٢٣١
القدس ٥٤، ٦١، ٩٢

ل

لندن ٨٠
ليبيا ٢٢٠، ٢٣٦، ٢٤١

م

المحيط الأطلسي ٨٠، ٩٥
مصر ٥٢، ١٠٤، ٢٢٦، ٢٣٤، ٢٨٧
مملكة سبأ ٦٠، ٨٩، ٩٠، ٩٢، ٩٣

ن

نيويورك ٨٠، ٩٥، ٢١٧

و

الولايات المتحدة الأميركية ٢١٧، ٢٧١، ٢٨١

ي

اليابان ١٠٤، ١٢٢، ٢٦٣، ٢٧١
اليمن ٢٣٣، ٢٣٤، ٢٣٨، ٢٣٩، ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٤٩، ٢٥٥، ٢٥٦، ٢٥٨، ٢٨٨